تاريخ الدولة الفاطمية

الدكتورة
إيناس حسني البهجي



بالعلم نرتقي
مركز الكتاب الأكاديمي

تاريخ الدولة الفاطمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2016/4/1619)

956.0527

البهجي، ايناس حسني

تاريخ الدولة الفاطمية في شبه الجزيرة العربية/ ايناس حسني البهجي عمان:مركز الكتاب الاكاديمي، 2016

()ص.

ر.إ.: 2016/4/1619

الواصفات: /الدولة الفاطمية//التاريخ الإسلامي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى 2017

ISBN978-9957-35-204-2 (ردمك)

مركز الكتاب الأكاديمي

عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري

ص . ب : 11732 عمّان (1061) الأردن

تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+

الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net

A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net

تاريخ الدولة الفاطمية

الدكتورة
إيناس حسني البهجي



الإهـــــــــداء

إلى أسرتي الغالية

المقدمة

اختلفت المصادر التاريخيَّة حول تحديد نسب الفاطميين، فمُعظم المصادر الشيعيَّة تؤكِّد صحَّة ما قال به مؤسس هذه السُلالة، الإمام عُبيد الله المهدي بالله، وهو أنَّ الفاطميين يرجعون بنسبهم إلى مُحمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصَّادق، فهُم بهذا عَلَويّون، ومن سُلالة الرسول مُحمَّد عبر ابنته فاطمة الزهراء ورابع الخُلفاء الرَّاشدين الإمام عليّ بن أبي طالب. بالمُقابل، أنكرت مصادر أُخرى هذا النسب وأرجعت أصل عُبيد الله المهدي إلى الفُرس أو اليهود.

أسس الفاطميّون مدينة المهدية في ولاية إفريقية سنة 300هـ المُوافقة لِسنتيّ 912 - 913م، واتخذوها عاصمةً لدولتهم الناشئة، وفي سنة 336هـ المُوافقة لِسنة 948م، نقلوا مركز الحُكم إلى مدينة المنصوريَّة، ولمَّا تمَّ للفاطميين فتح مصر سنة 358هـ المُوافقة لِسنة 969م، أسسوا مدينة القاهرة شمال الفسطاط، وجعلوها عاصمتهم، فأصبحت مصر المركز الروحيّ والثقافيّ والسياسيّ للدولة، وبقيت كذلك حتّى انهيارها.

أظهر عددٌ من الخُلفاء الفاطميّون تعصُّبهم للمذهب الإسماعيلي، فعانى أتباع المذاهب والديانات الأُخرى خِلال عهدهم، وبالمُقابل اشتهر غيرهم بتسامحه الشديد مع سائر المذاهب الإسلاميَّة ومع غير المُسلمين من اليهود والنصارى الأقباط واللاتين والشوام من رومٍ وسُريانٍ وموارنة، واشتهر الفاطميّون أيضًا بقدرتهم على الاستفادة من كافَّة المُكونات البشريَّة لدولتهم المُنتمية لتكتُّلاتٍ عُنصريَّة مُتنوِّعة، فاستعانوا بالبربر والتُرك والأحباش والأرمن في تسيير شؤون الدولة، إلى جانب المُكوِّن العُنصري الرئيسي، أي العرب.

والدَّوْلَةُ الفَاطِمِيَّةُ أو الخِلَافَةُ الفَاطِمِيَّةُ أو الدَّوْلَةُ العُبَيْدِيَّةُ هي إحدى دُولُ الخِلافةُ الإسلاميَّة، والوحيدةُ بين دُولِ الخِلافةِ التي اتخذت من المذهب الشيعي (ضمن

فرعه الإسماعيلي) مذهبًا رسميًّا لها. قامت هذه الدولة بعد أن نـشط الـدُعاة الإسـماعيليّون في إذكـاء الجذوة الحُسينيَّة ودعوة الناس إلى القتال باسم الإمام المهديّ المُنتظر، الذين تنبؤوا جميعًـا بظُهـوره في القريب العاجل، وذلك خلال العهد العبَّاسي فأصابوا بذلك نجاحًا في الأقاليم البعيدة عن مركـز الحُكـم خُصوصًا، بسبب مُطاردة العبَّاسـيين لهـم واضـطهادهم في المـشرق العـربي، فـانتقلوا إلى المغـرب حيـثُ تمكنوا من استقطاب الجماهير وسط قبيلة كتامة البربريَّة خـصوصًا، وأعلنـوا قيـام الخِلافـةِ بعـد حـين. شملت الدولة الفاطميَّة مناطق وأقاليم واسعة في شمال أفريقيا والشرق الأوسـط، فامتـدَّ نطاقهـا عـلى طول الساحل المُتوسطيّ من المغرب إلى مصر، ثُمَّ توسَّع الخُلفاء الفاطميّون أكثر فضمّوا إلى مُمتلكـاتهم جزيرة صقلية، والشَّام، والحجاز، فأضحت دولتهم أكبر دولةٍ استقلَّت عـن الدولـة العبَّاسـيَّة، والمُنـافس الرئيسيّ لها على زعامة الأراضي المُقدَّسة وزعامة المُسلمين.

الباب الأول

أصول الدولة الفاطمية

أُثيرت حول أُصول الفاطميين عدّة قضايا مُعقَّدة لم يصل الباحثون فيها إلى نتائج مُوحدة. فهذا اللقب، أي «الفاطميين» الذي عُرف به خُلفاء عُبيد الله المهدي، يدُلُّ، للوهلة الأولى، على أنَّهم من ذُريَّة عليّ بن أبي طالب رابع الخُلفاء الراشدين وأوَّل أئمة الشيعة، وفاطمة الزهراء بنت الرسول مُحمَّد، فهُم عَلَويّون. على أنَّ قضيَّة نسب الأُسرة الفاطميَّة، كان ولا يزال، موضوعًا لم يتفق المؤرخون، لا في الماضي ولا في الحاضر، على رأيٍ واحدٍ فيه، وذلك بفعل واقعين: الأوَّل هو التباين السياسي والمذهبي الذي ساد بين المُسلمين بعد وفاة الرسول، والثاني هو امتناع الفاطميين، مُدَّةً من الزمن، عن إعلان أنسابهم، بالإضافة إلى تعمُّدهم إخفاء أسماء أئمتهم من مُحمَّد بن إسماعيل حتّى عُبيد الله المهدي في المُدَّة التي اتخذوا فيها مبدأ ستر الإمام1. وذهب كُلُّ مصدر مذهبًا خاصًّا في تحديد إسم ونسب عُبيد الله المهدي قبل أن يكون مهديًّا، وبعد أن صار كذلك. فبعضُ المصادر تنفي عنه النسب العَلَوي، وتعزوهُ إلى الفُرس أو المجوس، وتصفه أحيانًا بأنَّه ابن يهودي، وترجع في نسبه إلى ميمون القدَّاح فارسيّ الأصل. وهي وإن اختلفت في تحديد اسمه قبل استلامه رئاسة الدعوة الفاطميَّة، إلَّا أنَّها تتفق على أنَّ اسمه بعد أن أصبح رئيسًا للفاطميين هو عُبيد الله، وعلى هذا الأساس دعت هذه المصادر الدولة الفاطميَّة باسم «الدولة العُبيديَّة». وفي المُقابل تؤكد مصادر أُخرى، مُعظمها شيعيَّة، صحَّة نسب عُبيد الله المهدي، وتُرجعه إلى مُحمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصَّادق

وفقًا لما ذكره المؤرّخ ڤلاديمير إيڤانوف في بحثه عن تُراث الإسماعيليَّة المُتعلِّق بظهور الفاطميين، فإنَّ إسم الفاطميين هو الذي أُطلق على الإسماعيليَّة في بداية الأمر. ويذكُرُ الطبريُّ أنَّ بدو بني الأصبغ في بادية الشَّام، اتخذوا هذا الاسم تحت زعامة القُرمطي الإسماعيلي يحيى بن زكرويه.ويُمكنُ التماس أُصول الحركة الفاطميَّة التي أوصلت الفاطميين إلى السُلطة في إفريقية بزعامة عُبيد الله المهدي في أُصول

العقائد الشيعيَّة الإسماعيليَّة التي تُمثِّلُ في الوقت نفسه أبعادًا سياسيَّة وفلسفيَّة ودينيَّة واجتماعيَّة، والتي يتوقَّع مُعتنقوها ظُهور المهدي المُنتظر من سُلالة الرسول مُحمَّد من خلال عليّ وفاطمة مُرورًا بفرع إسماعيل بن جعفر الصَّادق

والواضح أنَّ إسماعيل بن جعفر الصَّادق الذي توفي في حياة أبيه، كان أوسع نشاطًا من إخوته، وأعظمهم تأثيرًا في بناء العمل السياسي للشيعة الإسماعيليين، واتبع مبدأ التقيَّة، فعمل في خفاءٍ تامٍّ، وأحسن اختيار دُعاته وبخاصَّةً مُحمَّد بن أبي زينب مِقلس الأجدع الأسدي المعروف بأبي الخطَّاب2، الذي ادَّعى أنَّ الإمام جعفر الصَّادق جعلهُ قيِّمًا ووصيًّا على إبنه. ووضع إسماعيل بمُساعدته أُسس المذهب الإسماعيلي، وهو أوَّل من تصوَّر الإمامة الشيعيَّة على أنَّها سيادة العالم الإسلامي، أي أنَّهُ حوَّل الإمامة إلى معنى سياسيّ شبيه بالخِلافة، ووضع الخِطط السريَّة للوُصول إلى الحُكم.

وضبط مُحمَّد بن إسماعيل المذهب، ونظَّم الدعوة في عهد الخُلفاء العبَّاسيين: أبو عبدَ الله مُحمَّد المهدي، وأبو مُحمَّد موسى الهادي، وبداية عهد هٰرون الرشيد بمُساعدة حُجَّته ميمون القدَّاح الذي تقول عنه المصادر السُنيَّة أنَّه الديصاني ثنويّ المذهب، الذي أسلم أو أظهر الإسلام مدفوعًا بعاملين: سياسي يتمثَّل بإعادة النُفوذ إلى الفُرس عن طريق الشيعة، وديني يهدف إلى هدم الدين الإسلامي عن طريق الفلسفة الإغريقيَّة، وانتسب إلى الدَّعوة الإسماعيليَّة وأضحى من كبار الدُعاة. ويُرجع الإسماعيليّون نسبه إلى الصَّحابيّ سلمان الفارسيّ.

وطوَّر أُسس المذهب، ووضع الخِطط التي أوصلت الفاطميين إلى الحُكم، ونظرًا لأنَّه كان أحد تلامذة الفلسفة الإغريقيَّة، فقد استغلَّ التعاليم الأرسطاليسيَّة والأفلاطونيَّة لوضع التعاليم الإسلاميَّة في قالبٍ جديدٍ، وأسس حركةً سريَّةً لإحاطة الأئمَّة بستارٍ كثيفٍ.

ويبدو أنَّ الإقامة في المدينة المُنوَّرة أو عاصمة الخِلافة، أو أيُّ حاضرة من الحواضر المشرقيَّة أضحت مُستحيلة بعد حملة الاعتقالات التي نفَّذها الخليفة هٰرون الرشيد، فغادر مُحمَّد بن إسماعيل إلى فرغانة ثُمَّ نيسابور حيثُ تزوَّج وأنجب ابنه عبدُ الله الرضيّ الذي تولّى الإمامة بعده، ونصب له حجبًا وأمرهم بأن يتسمّوا باسمه للتستّر عليه.

وخلف ميمون القدَّاح بعد وفاته ابنه عبدُ الله، وكان حجَّة للإمام عبدُ الله الرضيّ بن مُحمَّد بن إسماعيل، فتابع عمل أبيه، واستطاع أن يجمع مُعظم الفِرق العَلَويَّة المُنقسمة على نفسها في جبهةٍ واحدة، وضمَّ إلى جماعته كُلُّ العناصر السَّاخطة على العبَّاسيين ليُشكِّل منهم جماعة تُخلص لإسماعيل بن جعفر، مدفوعًا بشعوبيَّته الفارسيَّة المُتطرِّفة ضد العرب، ثُمَّ نقل مقرُّ الدعوة والإمام عبدُ الله الرضيّ وابنه أحمد إلى مدينة الأحواز.

وعندما انتقل الإمام إلى بلدة سلميَّة في الشَّام بين حمص وحماة في أواخر عهد الخليفة العبَّاسي أبو جعفر عبدُ الله المأمون خشيةً من مُلاحقة العبَّاسيين له، ظلَّ حُجَّته عبدُ الله القدَّاح يُقيم في الأحواز تسترًا عليه، ثُمَّ لحق به إلى سلميَّة التي أضحت مركز الدعوة الإسماعيليَّة.

اشتهر لعبدُ الله القدَّاح ثلاثة أولاد، هم: أحمد والحُسين وعليّ، اعتمد عليهم في نشر الدعوة الإسماعيليَّة. فجعل ابنه الحُسين في سلميَّة مع الإمام الحسين بن أحمد لزيادة التستّر عليه. وكان أحمد المُلقَّب بأبي الشلعلع مسؤولًا عن الدعوة في العراق والأحواز، فادَّعى أنَّهُ من نسل عُقيل بن أبي طالب لاستقطاب الشيعة، وكان قد أحكم النسب في البصرة.

واختصَّ الابن الثالث عليّ بنشر الدعوة في خُراسان، ونهايته مجهولة. وعندما توفي الحُسين بن عبدُ الله القدَّاح، عهد أبوه عبدُ الله إلى ابنه أحمد برئاسة الدعوة في سلميَّة بالإضافة إلى العراق، ثُمَّ انتقلت إليه رئاسة الدعوة بعد وفاة أبيه، وأصبح

وصيًّا على ابن أخيه سعيد بن الحُسين الذي تقلَّد منصب الحجَّة أو نائب الإمام عقب وفاة عمِّه أحمد، ولم يكن قد تجاوز العشرين من العُمر، فأظهر إخلاصًا وتفانيًا للمذهب الإسماعيلي، ولذلك كان موضع ثقة الإمام المستور الذي قلَّده إمامة الإسماعيليَّة استيداعًا لا استقرارًا، واتخذ إسم عبدُ اللـه، وادَّعى أنَّهُ من السُلالة الشيعيَّة، وأنَّهُ المهدي، وهو عُبيدُ اللـه أوَّل الخُلفاء الفاطميين في إفريقية.

وبهذا فإنَّ المصادر سالفة الذِكر تنسب الفاطميين إلى القدَّاحيَّة، وهي مُستقاة من رواية أبي عبد اللـه مُحمَّد بن عليّ بن رزَّام الطائيّ الكوفيّ في ردّه على الإسماعيليَّة أواخر القرن الرابع الهجري، ونقلها ابن النديم في مؤلفه «الفهرست»، وأخذها عنه من جاء بعده من المؤرخين. أيضًا، هُناك اعترافٌ من شخصٍ عَلَويٍّ عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، هو الشريف أبو الحُسين مُحمَّد بن عليّ بن الحُسين المعروف بأخي مُحسن، ينفي فيه نسب الفاطميين إلى عليّ وفاطمة، ويذكر أنَّ مذهب الإسماعيليَّة لم يكن سوى غشٍ لعبدُ اللـه بن ميمون القدَّاح الذي استهدف، بفضل تعليمٍ خفيٍّ تدريبيٍّ في سبع درجاتٍ، القضاء على الإسلام.

رأي المُؤيدين لنسب الفاطميين إلى عليّ وفاطمة

يرى الإسماعيليّون وغيرهم من الباحثين أنَّ الطعن الذي تمتلئ به كتب مُخالفيهم من المذاهب الأُخرى قد بُنيت بشكلٍ كبيرٍ على التنكيل وتعمُّد الاستناد إلى معلوماتٍ غير صحيحة. وهذا يحصل لأسبابٍ دينيَّةٍ وسياسيَّةٍ بسبب قيام الدولة الفاطميَّة وسيطرتها على أنحاء واسعة من الديار الإسلاميَّة، وأيضًا بسبب السريَّة الكبيرة التي تميَّزت بها الحركة الإسماعيليَّة حيثُ أنَّ دراسة الإسماعيليَّة كانت تنحصر بالمصادر والروايات التي أنتجها أعدائهم.

حسب المصادر الإسماعيليَّة فإنَّ جعفر الصَّادق قد أعطى الإمامة إلى ابنه الأكبر إسماعيل الذي توفي سريعًا بعد ذلك، فانتقلت الخلافة بعده إلى ابنه مُحمَّد. وبسبب قمع الدولة العباسيَّة ومحاولتها الحثيثة لاغتياله، بدأ مُحمَّد مرحلةً مُهمَّةً

وأساسيَّةً في تاريخ الإسماعيليَّة والمعروفة «بمرحلة الستر» حيثُ عمد إلى ترك المدينة المُنوَّرة وإخفاء هويَّته عن عامَّة الناس إلَّا عن قلَّة قليلة من الذين يثق بهم. ومن أهم هؤلاء ميمون القدَّاح ثم ابنه من بعده عبدُ اللـه بن ميمون.

الذين عملوا بشكلٍ كبيرٍ على حماية مُحمَّد بن إسماعيل وكانوا حلقة الوصل بينه وبين عددٍ كبيرٍ من الناس. يرفض المُستشرق المُختص بالدراسات الإسماعيليَّة فلاديمير إيفانوف الفكرة القائلة بأنَّ ميمون القدَّاح لم يكن مُسلمًا وانما ديصانيّ يهدف إلى هدم الإسلام، فيقول إنَّ الفاطميين أخفوا أنسابهم وفروع ذوي قُرباهم خوفًا من أعدائهم، وأنَّ قصَّة ميمون وولده هذا ليست إلَّا خُرافةً وأُسطورة. وقد ورد ذكر إسم ميمون القدَّاح وابنه في كتُب الرجال الخاصة بالشيعة الإثنا عشرية لتصف ميمون بأنَّه من أصحاب الإمامين الباقر والصَّادق المُقرَّبين، وتثُني عليه، ويظهر في تلك المصادر أنَّهُ من مكَّة (من بني مخزوم تحديدًا).

كما يذكر الذهبي وابن حجر اسم عبدَ اللـه بن ميمون القدَّاح ويؤكد انتسابه إلى مكَّة وبني مخزوم ويكتفي باعتباره «ضعيف». وفي خطاب المُعز لدين اللـه إلى داعي السند، ينفي فيه ما ادعاه مناوئيه برعاية الدولة العباسيَّة من انتساب الخُلفاء الفاطميين إلى ميمون القدَّاح ويؤكد نسبه إلى عبدُ اللـه بن مُحمَّد بن إسماعيل، ويُشير إلى أنَّ عبدَ اللـه بن مُحمَّد كان يُلقَّب «عبدُ اللـه الميمون».

يُشيرُ بعضُ المؤرخين إلى أنَّ الغُموض والاختلاف والاضطراب يكتنف المصادر المؤيِّدة لنسب الفاطميين إلى عليّ والزهراء، وأنَّ تلك المصادر ليست واحدة دائمًا،إذ يوجد اختلاف في أسماء الأئمَّة، من ذلك أنَّ اسم والد عُبيد اللـه المهدي غير مُتفق عليه بين هذه المصادر. فثمَّة رواية واحدة تذكر أنَّهُ ابنُ «أحمد» وليس ابنُ «الحُسين»، بل أنَّ عُبيد اللـه المهدي يظهر أحيانًا بوصفه عليّ بن الحُسين. ففي الرسالة التي أرسلها عُبيد اللـه المهدي إلى اليمن وكشف فيها النقاب عن نسب الفاطميين وذكر أسماء الأئمَّة المستورين، أظهر النسب الفاطميّ بصورةٍ مُغايرة لما قدَّمه التُراث

الإسماعيلي المُتعلِّق بأنساب الفاطميين، فيذكر أنَّ جدّه الأعلى هو عبدُ الله أخو إسماعيل الأكبر، وأنَّ الإمام جعفر الصَّادق عيَّن عبدَ الله وليس إسماعيل وريثًا شرعيًّا له، إذ أنَّ جعفرًا خلَّف أربعة أولاد، هم: عبدُ الله وإسماعيل وموسى ومُحمَّد، وأنَّ صاحب الحق فيهم كان عبدَ الله، ولمَّا أراد هؤلاء إظهار دعوة الحق خشوا من اضطهاد العبَّاسيين، فتسمّوا بغير أسمائهم، فكانوا يحملون ألقابًا، وأحيانًا أسماء حركيَّة تُخفي حقيقتهم، وأطلقوا على أنفُسهم ألقاب: مُبارك وميمون وسعيد. فلقب ميمون الذي أُطلق على أحد أولاد جعفر الصَّادق هو الذي قاد إلى هذا الخلط، وقد علَّل الداعي المُطلق إدريس عمادُ الدين هذا الأمر بقوله: «وَكَانَ الدُّعاةُ أيَّامَ الأئمَّةِ المِسْتُورِيْن مُنذُ استِتَارِ الإمَامِ مُحَمَّد بن إسْمَاعِيل، يُسَمُّونَهُم بِغَيْرِ أسْمَائِهِم، وَيَخْتَلِفُونَ في الأسْمَاءِ إخْفَاءً لِأمْرِ الله، وَسَتْرًا لِأوْلِيَائِهِ لِتَغَلُّبِ الأضْدَادِ، وَقُوَّةِ أهْلِ العِنَادِ، لِذلِكَ وَقَعَ الاختِلَافُ في الأئِمَّةِ المَسْتُورِين، وَكَثُرَ خَوْضُ الخَائِضِين وَقَوْلُ القَائِلِيْن».

وبناءً عليه فإنَّ تسلسل الأئمَّة يُصبح كالآتي: عبدُ الله بن جعفر الصَّادق، ثُمَّ عبدُ الله بن عبدُ الله، ثُمَّ أحمد بن عبدُ الله، ثُمَّ مُحمَّد بن أحمد، وتسمَّى كُلُّ واحدٍ من هؤلاء بمُحمَّد لأنَّ المهديّ سيكونُ مُحمَّد بن إسماعيل، فكان كُلَّما قام فيهم إمام تسمّى بمُحمَّد باستثناء عبدُ الله بن جعفر، فقد تسمّى بإسماعيل، إلى أن يظهر صاحب الظُهور الذي هو مُحمَّد بن إسماعيل، فتزول التقيَّة.

ويُشيرُ جعفر بن منصور اليمني الذي حفظ هذه الرِّسالة، أنَّ الإمام مُحمَّد بن أحمد أوصى إلى ابن أخيه، وأعطاهُ باختيار الله، أمره كُلُّه، وتسمَّى بسعيد بن الحُسين، وصارت إليه الدعوة زمانًا. فلمَّا آن وقت الظُهور، أظهر مقامه، وأظهر اسم «عُبيد الله»، وظهر معه كذلك أبو القاسم مُحمَّد القائم بأمر الله.

ويتوافق نسب عُبيد الله المهدي الذي أورته في رسالته3 مع ما جاء في بعض كُتب الأنساب والفِرق، فيذكر العلَّامة عليّ بن حزم الأندلُسيّ أنَّ وُلاة مصر قد ادَّعوا

في أوّل أمرهم، إلى عبدُ الـلـه بن جعفر بن مُحمَّد، فلمّا صحَّ عندهم أنَّ عبدَ الـلـه لم يعقب إلّا ابنةً واحدة اسمها فاطمة، تركوه وانتموا إلى إسماعيل بن جعفر بن مُحمَّد.

ويذكر النوبختي والقِمّي أنَّ عبدُ الـلـه لم يُخلِّف أولادًا، ولكنَّ الثاني يذكر في مكانٍ آخر أنَّ عبد الـلـه وُلد له ولدٌ اسمه مُحمَّد، وأنَّه أرسله إلى جهة اليمن، وانتقل بعد وفاة والده إلى خُراسان، وأنَّه الإمام بعد أبيه، وهو القائم بأمر الـلـه.

ويذكر الدَّاعي المُطلق إدريس عمادُ الدين أنَّ الإمام عبدَ الـلـه الرضيّ بن مُحمَّد بن إسماعيل استخلف أخاهُ الحُسين مكانه، وأمر أتباعه بطاعته، غير أنَّ الحُسين قُتل في حياة أخيه، فعُهد إلى ابنه أحمد بالإمامة، وهو الإمام التقي أحمد بن عبدُ الـلـه الذي رُزق بولدٍ سمَّاه الحُسين، وهو الإمام الزكي ووالد المهدي. ولمَّا شعر الإمام الحُسين بدُنوّ أجله، عيَّن أخاه مُحمَّدًا المُلقَّب بسعيد الخير وصيًّا على ابنه الإمام المهدي. وأراد سعيد الخير أن يجعل الإمامة في عقبه، ويُحوِّلها عن الإمام المهدي، لكنَّه فشل في ذلك.

واستنادًا إلى كتاب التراتيب فإنَّ أسماء الأئمة تختلف عن غيرها ممَّا جاء في غالبيَّة المصادر الإسماعيليَّة وغير الإسماعيليَّة، فذُكر أنَّ إسماعيل ستر على نفسه حجابًا لِعظم الفترة وتغلُّب الضِّد. وانتسب الإمام الحق بعد إسماعيل إلى ابن أخيه، وهو مُحمَّد. ولمَّا حضرته الوفاة، سلَّم هذا الأمر إلى ولده الرضيّ، وهو أوَّل الأئمَّة المستورين، فقام أحمد بالإمامة، وكان حاجبه الذي احتجب به، وسِتره الذي سَتَره، والذي نصَّبه وأقامه مقامه، هو ميمون القدَّاح، وأمره الإمام أن يأخذ العهد لنفسه، أي لميمون سالِف الذِكر، ففعل ما أمره به الإمام، ولم يزل قائمًا بالأمر إلى أن توفي أحمد، فسلَّم الإمامة إلى ابنه مُحمَّد، وأمر عبدُ الـلـه بن ميمون القدَّاح أن يقوم مقامه، ويأخذ العهد لنفسه كفعل أبيه، فلم يزل قائمًا بالأمر حتّى توفي مُحمَّد، فسلَّم الأمر إلى ابنه أحمد، فعيَّن الأخير أخاهُ إمامًا مُستودعًا، على أن يقوم مقام ولده مُحمَّد المهدي ويكون حاجبًا له، فقام المهدي بالإمامة، وقام عمِّه بالخِلافة. وحاول هذا العمُّ أن يُحوِّل الإمامة إلى أولاده ففشل في ذلك.

وهُناك أمرٌ آخر غير مؤكَّد فيما يتعلَّق بصِلة القرابة بين عُبيد اللـه المهدي، وبين مُحمَّد القائم بأمر اللـه الذي خلفه في الحُكم. فقد يكون القائم ليس إبنًا لعُبيد اللـه المهدي، مع أنَّ الأخير كان يُعدَّه ابنًا له من الناحية الرسميَّة، وكان تصرُّفه تجاهه عندما دخل رُقاده، يُشير إلى أنَّهُ يُعدَّهُ المهدي المُنتظر، فقد عامله بتوقيرٍ شديدٍ، ورفع مقامه عن مقامه هو شخصيًّا.

ففي حين تؤكِّد كُتب الظاهر المُوجهة للعامَّة أنَّ الخليفة الفاطميّ الثاني، أي القائم بأمر اللـه، هو ابن عُبيد اللـه المهدي، تنفي بعض النُصوص الباطنيَّة المُوجَّهة للخاصَّة والمُطلعين على الأسرار، بُنوَّته إلى عُبيد اللـه المهدي، وتُنسب الأخير إلى أصلٍ غير عَلَويّ بل ميمونيّ.

وعليه، كان دور عُبيد اللـه المهدي حمل الوديعة، أي الإمامة، ليرُدَّها إلى مُحمَّد القائم بن الحُسين بن أحمد، وبالتالي يكونُ عُبيد اللـه المهدي الوحيد الذي لا ينتسب إلى عليّ بن أبي طالب. ويقول المُؤرِّخ برنارد لويس أنَّ التناقض بين النسب الرسمي والنسب الذي يربط الفاطميين بميمون القدَّاح مردُّه وجود إمامتين ظهرتا بعد وفاة الإمام إسماعيل بن جعفر الصَّادق: الإمامة المُستقرَّة والإمامة المُستودعة، فالمُستقرَّة بدأت مع مُحمَّد بن إسماعيل وتُفضي إلى القائم بأمر اللـه، وهي إمامة حقيقيَّة في ذُريَّة الحُسين، أمَّا المُستودعة فقد بدأت مع عبدُ اللـه بن ميمون القدَّاح وتُفضي إلى عُبيد اللـه المهدي، وهي إمامة بالوصاية في أعقاب عائلة القدَّاح. والإمامُ المُستقر هو المُؤهَّل لنقل الإمامة إلى ابنه الذي يحجُبه الإمام المُستودع إلى أن يأتي اليوم الذي يُسلِّمها فيه إليه.

وبناءً على ذلك، فإنَّ عُبيد اللـه المهدي، الذي هو الإمام المُستودع، لم يكن سوى الوصيّ والأب الروحيّ لمُحمَّد القائم بأمر اللـه، الذي هو الإمامُ المُستقر، وقد سلَّمه عُبيدُ اللـه الإمامة المُستودعة لديه. فالحاكم الأوَّل المكشوف والإمام الفاطميّ الشرعيّ وفق هذا التفسير هو مُحمَّد القائم بأمر اللـه، أمَّا عُبيد اللـه المهدي فهو مُستودعه، وينتمي إلى أُسرة القدَّاح.

وقد نقض فلاديمير إيفانوف نظريَّة برنارد لـويس، وقـال أنَّهـا وُضـعت أيَّـام الأئمَّـة المكـشوفين لتبرير انتقال الإمامة بالوراثة، وعلى هذا الأساس فإنَّ الخُلفاء الفاطميين بما في ذلك عُبيد اللـه المهـدي، ينتمون إلى نسبٍ علويٍّ صحيح

الباب الثاني

البدايات وقيام الدولة

الفكر والدعوة

داعية الباطنية في الشمال الإفريقي

أبو عبد اللـه الشيعي

وقع الاختيار على اليمن لكي تكون مركزاً لدعوة الشيعة الإسماعيلية لبعدها عن أنظار الدولة العباسية, ومن هناك بدؤوا في إعداد القوة العسكرية السرية التي هي عدتهم في المستقبل, وتسلم القيادة في اليمن رجل يدعى رستم بن حوشب الذي استطاع أن يستقطب بعض الفرس المعادين للمسلمين, إلا أن ابن حوشب رأى أن أرض المغرب خصبة للبذور الشيعية, فأرسل من اليمن رجلين من أنصاره هما «سفيان والحلواني» إلى طرابلس وتونس لنشر المذهب الشيعي, واستطاعا أن يتوغلا بأفكارهما في قبائل البرانس ذات القوة والشكيمة والعدة والعتاد, والتي تتطلع إلى إقامة دولة في المغرب على نهج الأدارسة في المغرب الأقصى, والأغالبة الذين عاصمتهم تونس.

ومن بين الذين اختارهم ابن حوشب في اليمن: أبو عبد اللـه الشيعي حسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء, وكان قد وقع اختيار ابن حوشب على هذا الرجل لما لمس فيه من صفات قيادية بارزة من علم وذكاء ومقدرة في التعامل مع الناس, ويعتبر أبو عبد اللـه الشيعي اليماني الصنعاني المؤسس الفعلي لدولة العبيديين الرافضية الإسماعيلية في المغرب, فأرسله ابن حوشب بعد موت الحلواني وأبي سفيان الداعيتين بالمغرب, وقال له: «إن أرض كتامة في بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وسفيان, وقد ماتا, وليس لك غيرها فبادر فإنها موطأة ممهدة لك»[1].

وفي ما بين 288هـ إلى 289هـ وصل أبو عبد اللـه الشيعي الرجل الداهية المراوغ الماكر صاحب الحيل العجيبة إلى مكة, وبحث عن وفود المغاربة التي جاءت

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (ج57/2) للدكتور عبد الفتاح الغنيمي.

للحج واستطاع أن يتعرف على حجيج كتامة, وتقرب إليهم بما أظهره لهم من زهد وفقه وعلم, وتمكن هذا الداعية من قلوب الشيوخ الكتاميين, ورجع معهم موهمًا إياهم أنه يريد مصر لتعليم الأولاد القرآن, وعرضوا عليه الذهاب معهم إلى المغرب, فأظهر عدم الرغبة, ثم بسياسته الماكرة لبى طلبهم ونزل في القيروان ليبحث عن مواطن الضعف في دولة الأغالبة, ويجمع المعلومات لمعرفة أقوى القبائل, وما هي الوسائل النافعة للدخول في بلاد المغرب, وبعد أن أيقن أن أقوى القبائل في المغرب هي الكتامية قرر الذهاب إلى بلدة تسمى «إيكجان» وهي بلدة في جبل وعر, وعرف أنها منازل قبيلة «سكتاتة» التي هي بطن من بطون كتامة[1], ونهج في حياته نهج المعلم المؤدب الورع, وسلك سلوك الزهد والعفاف حتى تملك قلوبهم, واشتهر صيته, وأقبلت عليه القبائل البربرية وتصدى لتعليمهم وتفقيههم المذهب الشيعي, ثم دخل في الأمور السياسية ونظام الحكم ودور الإسلام في الحكم بالشورى, وفضل العلويين وأحقيتهم في الحكم.

وبسبب الظلم الذي مارسته دولة الأغالبة على الناس استجابت بعض القبائل للداعية الشيعي الذي رأوا فيه المخلص وبدأ الصدام مع الأغالبة, وانتقل أبو عبد الله الشيعي إلى حصن منيع في جبال الأوراس في بلدة «تازروت» ومن هناك كان يوجه الضربات المتتالية لدولة الأغالبة, واعتمد في ذلك على فضح الأغالبة ونشر ظلمهم, وبيان أن حكمهم خارج عن الإسلام وشريعة الرحمن, وأثار الأحقاد القديمة بين الدولة الأغلبية وبعض القبائل, وأعطى عهودًا ومواثيق لرجال وزعماء كتامة أن المستقبل والدولة والتمكن لهم, فخضعت له القبائل وتوالت المدن في السقوط, وغنم غنائم عظيمة واشتد حماس أتباعه, وساعده على ذلك انحلال وضعف دولة الأغالبة وانغماسهم في الترف, وتذمر الناس من الأمراء ومن ظلمهم, وأظهر أبو عبد الله من الحزم والشجاعة والمقدرة السياسية والكفاءة العسكرية ما جعله ثقة لمن حوله

(1) موسوعة المغرب العربي (ج56/2).

من القادة والجنود, فأعطاه ذلك شعورًا بأن الوقت حان لكشف دعوته بأن يدعو للرضى من آل البيت النبوي الذي سيظهر عن قريب وتولى أمور الحكم.

واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يستولي على جميع النقط الحربية ما بين حصنه في جبال الأوراس حتى عاصمة الأغالبة.

وفي أوائل جمادى الأولى عام 296هـ/909م سقطت مدينة الأريس في يد قوات أبي عبد الله الشيعي, وهذه المدينة هي مفتاح دخول القيروان العاصمة السياسية للبلاد, فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر في جمادى الآخرة عام 296هـ ودخل أبو عبد الله الشيعي القيروان[1].

وأعلن أبو عبد الله إثر هذا النصر الحاسم على الأغالبة أن الإمام الحقيقي للمسلمين هو عبيد الله المهدي وأنه قريبًا سيصل إلى بلاد المغرب ويظهر العدل والمساواة, فانضم إليه بعض قواد الأغالبة, وأصبح جيشه مائتي ألف مقاتل لكي يدافعوا عن المذهب الشيعي الإسماعيلي والدولة الجديدة, ومعلوم من دراسة التاريخ أن الانتصارات تستحوذ على عوام الناس ويظنون أن المنتصر على الحق, ومع الإشاعة الشيعية القوية والانتصارات الملموسة وإيمان الناس بالمهدي المنتظر, أصبح الناس قادة وجنودًا لا رأي لهم, ولا عقل, بل مثل الآلات في التنفيذ, وحاول أبو عبد الله الشيعي أن يعتمد في نشر مذهبه بالدعاية والمناظرة لإقناع علماء السنة والجماعة من أمثال عثمان بن سعيد الحداد, إلا أنه أسقط في يديه عندما أقاموا الحجة عليه وعلى دعاته, ولذلك اضطر أخو أبي عبد الله الشيعي «أبو العباس» أن يستخدم القوة لقلع مذهب أهل السنة والجماعة من عاصمة الشمال الإفريقي, فمارس مع علماء أهل السنة أصناف العنف والشدة والتعذيب وضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا ألسنة بعضهم, وضربوا الرقاب, وقطعوا أجزاء الجسم إلى عدة أجزاء, وصلبوا

(1) موسوعة المغرب العربي (ج60/2).

الفقهاء, وصادروا الأموال, وبطحوا الناس على ظهورهم وأمروا عبيدهم بأن يدوسوهم بالأقدام. واشتد الصراع المذهبي, وهز الدولة الوليدة فتدخل الداهية أبو عبد اللـه الشيعي ومنع المناظرة والمجادلة حسمًا للصراع وعزل أخاه عن ولاية القيروان.

ونجح أبو عبد اللـه الشيعي في تثبيت دعائم الحكم في القيروان بواسطة زعماء قبيلة كتامة وخصوصًا سيدهم ومطاعهم «غزوية بن يوسف» وأخاه وبقية قومه, وأرسل إلى عبيد اللـه المهدي وابنه القاسم للمجئ إلى القيروان, وشد عبيد اللـه من الشام رحله «من مدينة سلمية» إلى مصر, ثم برقة, ثم طرابلس متخفيًا في ثياب التجار, ولفقت قصص عجيبة في نجاته من ولاة الدولة العباسية, ووقع في أسر بني مدرار أمراء سجلماسة[1].

واستطاع أبو عبد اللـه الشيعي الصنعاني في 297هـ/910م أن يجهز جيشًا ضخمًا حطم به دولة بني مدرار وخلص عبيد اللـه المهدي وابنه من السجن, وفي طريق عودته مر الجيش بتاهرت وأزال دولة بني رستم في عام 297هـ/910م وأصبح المغرب الأوسط إلى تلمسان دولة عبيدية.

وتولى عبيد اللـه المهدي الذي أعلن قيام الدولة الفاطمية التي نسبها إلى فاطمة الزهراء بنت رسول اللـه لخداع الناس وتضليلهم.

وبدأت الدولة الفاطمية المزعومة تسعى للقضاء على الخلافة العباسية خصوصًا بعد أن تمكنوا من القضاء على دولة بني مدرار في سجلماسة, ودولة رستم في تاهرت, ودولة الأغالبة في إفريقية «تونس».

وكانت بيعة عبيد اللـه المهدي في القيروان عام 297هـ/ 910م وانتهت ولاية

(1) موسوعة المغرب العربي (ج65/2).

أبي عبد الـلـه الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين[1].

وكطبيعة الثورات تخلص عبيد الـلـه المهـدي مـن أبي عبـد الـلــه الـشيعي وأخيـه أبي العبـاس وغزوية بن يوسف بمؤامرات متتالية وكل من كان من أنصارهم.

وهذا ملاحظ أيضًا في دراسة التاريخ القديم والحـديث, وهـو أن الأصـدقاء والرفقـاء الـذين لا تقوى لهم, وإنمـا تجمعهـم مـصالح ومبـادئ فاسـدة يـصفُّون بعـضهم بعـضًا, وهـذا حـدث في الثـورة الفرنسية 1879م, والثورة الجزائرية, والثـورة الـسورية, والمـصرية, والليبيـة, والعراقيـة, وهكـذا قـديمًا وحديثًا.

وظهر لي أن ذلك سنة من سنن الـلـه الجاريـة في المجتمعـات «مـن أعـان ظالمًـا سـلطه الـلــه عليه» وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" [الأنعام:129].

وذكر المؤرخون أن الخلاف وقع بين عبيد الـلـه المهدي, وأبي عبد الـلــه الـشيعي عـلى الأمـوال التي استأثر بها النزق الكاذب عبيد الـلـه المهدي, وبعضهم يرى أن أبا عبد الـلـه الشيعي شك في عبيد الـلـه المهدي بأنه ليس المهدي المنتظر.

وصاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح مقلد الغنيمي ذكر السببين[2] ولم يـرجح, ثم إنه دافع عن نسب العبيديين وأنه في رأيه يرجع إلى فاطمة الزهراء, وشن حملة على مـن طعـن في نسب العبيديين ونسبهم إلى اليهود, أو إلى المجوس, واتهمهم أنهم موالون للخلافة العباسـية في بغـداد أو الأموية في الأندلس وأن الخلافتين شنتا حملة شعواء على النسب العبيدي.

وأقول: إن ابن كثير -رحمه الـلـه- الذي نقل أقوال العلماء في البدايـة والنهايـة في الطعـن في النـسب العبيـدي أقـوى حجـة, وأمـتن سـندًا, وأعـرف بحقـائق الـدول ومؤسسيها, وعرف بالصدق والأمانة المتناهية, وكلامه واضح في البداية والنهايـة, وأمـا

(1) المرجع السابق ص (70).

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي ص (70).

ابن الأثير فلم يجزم ومال إلى إثبات النسب بدون تصريح, وذلك في «الكامل في التاريخ»[1] وهو معروف بميوله الشيعية, وابن تيمية في الفتاوى يؤكد ويصرح على عدم ثبات النسب الفاطمي, وإليك شهادة المؤرخ القدير ابن خلكان حيث قال: «والمحققون ينكرون دعواه في النسب, وينصون على أن هؤلاء المنتسبين بالفاطميين أدعياء, وأنهم من أصل يهودي من سلمية بالشام, وأن والده لقب بالقداح, لأنه كان كحالاً يقدح العيون, وقد هلك عبيد الله سنة 322هـ, وتمكن حفيده المعز من الاستيلاء على مصر, واستمر ملك العبيديين نحو قرنين من الزمان إلى أن قضى عليهم بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي في سنة 564هـ, وأزال منها كل آثار العبيديين, وقطع شرورهم عن الناس وأراح الله العباد منهم»[2].

(1) انظر: الكامل في التاريخ (ج11/5) وما بعدها.

(2) فرق معاصرة (ج289/1).

عبيد اللـه المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول

(297- 322هـ/ 910- 934م)

ذكـر الإمـام الـذهبي ترجمـة لعبيـد اللـه المهـدي في سـير أعـلام النـبلاء فقـال: «عبيد اللـه أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام, وأعلنوا بالرفض, وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدعاة يستغوون الجبلية والجهلة»[1].

وذكر ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعي بحيـث إن المعـز مـنهم لما سـأله السيد ابن طباطبا عن نسبه, قال: غدًا أخرجه لك, ثم أصبح وقد ألقى عُرَمَة مـن الـذهب, ثـم جـذب نصف سيفه من غمده, فقال: هذا نسبي, وأمرهم بنهب الذهب, وقـال: وهـذا حـسبي[2]. أمـا مفتـي الديار الليبية -رحمه اللـه- الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد اللـه المهدي: «هـو مؤسـس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها, وهو عراقـي الأصـل, ولـد في الكوفـة سـنة 260هــ, واختبـأ في بلـدة سلمية بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سَلمية كـان يعـرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد اللـه بن ميمون القداح.

وفي منطقة سلمية مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد بن إسـماعيل بـن جعفر الصادق, وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية, وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسـماعيل بـن جعفـر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي[3], ثم قال: «هذا أصل عبيـد اللــه المهـدي, وهـذا أصـل العبيـديين المنسوبين إليه».

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (ج141/15).

(2) المصدر السابق (ج142/15).

(3) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص (253).

وقد خالفهم في نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين في المغرب وفي كل مكان, وفي مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون, وإنما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذين ادعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحي الذي ذكرناه آنفًا.

وبعد أن تخلص عبيد الله المهدي من خصومه أراد أن ينشر مذهبه في القيروان, ومن ثم الشمال الإفريقي, ولكن طلائع علماء أهل السنة والجماعة نابذوه العداء, وأقنعوا الناس بأن دولة العبيديين كفرية بعيدة عن الشريعة الإسلامية, وحدث بين العبيديين وأهل السنة حروب طاحنة فانتقل عبيد الله المهدي إلى المهدية بعد أن بذل في بنائها وتحصينها أموالاً طائلة, إلا أن شعور الاستقرار والاطمئنان جانب العبيديين في الشمال الإفريقي لضراوة المقاومة التي قادها علماء أهل السنة ضدهم, فأخضع المدن بقوة السلاح, وفكر في الانتقال إلى مصر, وأرسل عدة حملات إليها إلا أنها فشلت أمام جيوش العباسيين التي قادها «مؤنس الخادم».

وكانت أشد هذه الحملات خطرًا على مصر الحملة التي كانت في عام 321هـ واستطاع العباسيون صد هذه الحملة بفضل جهود «محمد الإخشيدي»[1].

واستمر عبيد الله في حكمه إلى أن هلك في عام 322هـ وله اثنتان وستون سنة, وكانت دولته خمسًا وعشرين سنة وأشهر[2].

وبهذا نلحظ أن قبائل المصاميد وكتامة التفت حول الدعوة العبيدية لظنهم أنه هو المهدي المنتظر, ونجد في التاريخ الإسلامي كثيرًا من الثورات والدول التي قامت واعتمدت على هذا المعتقد. فرأيت من المناسب والمهم في بناء السياج العقائدي الصحيح على أصول أهل السنة والجماعة في هذه المسألة أن أبين معتقد أهل السنة في

(1) موسوعة تاريخ المغرب (ج76/2).

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (ج151/15).

قضية المهدي المنتظر, حتى يسهل على الناس كشف الدجالين الأفاكين, وسأجعل معتقد أهل السنة في المهدي عقب انتهاء ترجمة العبيدي.

كما نجد أن عبيد الله المهدي اعتمد على ادعائه على هذه الدعوى, حتى بعد أن استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يزعزع ثقة البرابرة فيه ذهب إليه كبير كتامة وقال لعبيد الله المهدي: قد شككنا فيك, فائت بآية, فأجاب بأجوبة قبلها عقله وقال: إنكم تيقنتم, واليقين لا يزول إلا بيقين لا بشك.

وكانت المسائل التشكيكية في المهدي التي طرحها أبو عبد الله الشيعي على زعماء كتامة من أن الإمام يعلم الأمور قبل وقوعها, وهذا قد دخل معه بولدين, ونص أن الأمر في الصغير بعده, ومات الولد بعد عشرين يومًا, فلما سأل كبير زعماء كتامة عبيد الله المهدي عن الطفل قال عبيد الله المهدي: إن الطفل لم يمت, وإنه إمامك, وإنما الأئمة ينتقلون, وقد انتقل لإصلاح جهة أخرى, قال كبير زعماء كتامة: آمنت.

وقال أبو عبد الله الشيعي: إن الإمام لا يلبس الحرير والذهب, وهذا قد لبسهما. وليس له أن يطأ إلا ما تحقق أمره, وهذا قد وطئ نساء زيادة الله التغلبي, يعني عبيد الله المهدي, فلما سأل كبير كتامة عبيد الله المهدي فأجاب: أنا نائب الشرع أحلل لنفسي ما أريد, وكل الأموال, وزيادة الله كان عاصيًا[1].

والمقصود في نقلي هذا اعتماد الدجالين على استخفاف عقول الناس وتغريرهم لجهلهم, واعتمادهم على معتقدات في الأئمة من تعظيم آل البيت والإيمان بالمهدي المنتظر, وغير ذلك, فالمقام مناسب لبيان عقيدة أهل السنة في المهدي المنتظر.

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (ج146/15).

ثورة قبيلة هوارة في طرابلس

بعد أن احتل عبيد اللـه المهدي طرابلس عين ماكنون بن ضبارة اللحياني الكتامي واليًا عليها, وثارت قبيلة هوارة على والي طرابلس لعدم استقرار الأمور, وحاولت أن تستفيد من فرصة العهد الجديد الذي لم تستقر فيه الأحوال في الشمال الإفريقي.

وانضمت قبائل من زناتة ولماية وغيرها من القبائل البربرية إلى قبيلة هوارة, وقاد هذه الثورة ضد العبيديين في طرابلس أبو هارون الهواري, وحاصروا طرابلس واحتمى ماكنون بسور المدينة.

وأنجده عبيد اللـه المهدي بجيش بقيادة تمام بن معارك «أبازاكي- وهو ابن أخي ماكنون».

واستطاعت جيوش العبيديين أن تقضي على هذه الثورة الوليدة في مهدها.

وأوعز عبيد اللـه المهدي إلى ماكنون بن ضبارة للتخلص من تمام بن معارك بزعمه أنه يتآمر عليه, فقتل العم ابن أخيه تمام في غرة ذي الحجة سنة 298هـ وشعر ماكنون بأمان واستقرار, فتطاول في الحكم وسمح لبني قومه من كتامة بالتعدي على أموال الناس والاستهانة بأعراضهم والتدخل في أمورهم, فثار به أهل طرابلس سنة 300 هـ وأخرجوه منها, فلحق بالمهدي برقادة وقتل أهل طرابلس من كان فيها من أنصار ماكنون الكتاميين, وأغلقوا أسوار المدينة, فأرسل عبيد اللـه المهدي أسطولاً بحريًا استطاع الأسطول الطرابلسي أن يحرقه وأن يقتل من فيه, فأرسل عبيد اللـه ابنه أبو القاسم بجيش عرمرم بطريق البر فاعترضت له هوارة, إلا أنه استطاع أن يهزمها ووصل إلى أسوار المدينة وضرب عليها حصارًا أفنى ما بقى من أقوات الناس في المدينة حتى أكلوا الميتة, ولم يستطع ابن إسحاق أن يواصل المقاومة, وتفاوض أعيان طرابلس مع أبي القاسم الشيعي وطلبوا منه الأمان فأمنهم بشرط أن يسلموا محمد بن

إسحاق, ومحمد بن نصر, ورجلاً آخر يقال له: الحوحجة فقبلوا ذلك وسلموهم إليه, ودخل طرابلس وأرهق أهلها بغرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار, وتخلص أبو القاسم الشيعي من الأغالبة الذين كانوا في المدينة مدعيًا أنهم هم الذين حرضوا على الفتنة.

وتولى جباية مال الغرامة رجل يقال له الخليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس.

وجابي مال الغرامة هو الذي أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيديين وبنى منارته, وقد قتل على يد ابن كيداد اليفرني لما استولى على القيروان سنة 322هـ

وبعد أن استقرت الحال في طرابلس قفل أبو القاسم الرافض إلى رقادة, وطاف بالرجال الثلاثة الذين تسلمهم من طرابلس في شوارع القيروان على الجمال تشهيراً بهم ثم قتلهم[1].

ويتضح من هذا الثورة المبكرة ضد العبيديين أن أهل طرابلس غير راغبين في الحكم العبيدي إلا أنهم خضعوا له بقوة السلاح.

وكتب التاريخ تؤكد على دور علماء وفقهاء طرابلس وجهادهم في مواجهة الفكر الشيعي والمد الرافض والمعتقد الباطني الذي تكفلت دولة بني عبيد بنشره في الشمال الإفريقي.

زحف العبيديين على برقة

فلما استقر أمر طرابلس أرسل عبيد الله جيوشه نحو برقة بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي, وكان قاسيًا شديدًا نزعت الرحمة من قلبه, فتوجه في عام 301هـ نحو سرت, لأنها لا زالت تحت حكم الأغالبة فدخلها بدون حرب, وهجرها من كان فيها

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (247،246).

من جنود العباسيين والأغالبة, ثم تقـدم حباسـة إلى أجدابيـة فهجرهـا مـن كـان فيهـا مـن العباسـيين والأغالبة, وطلب أهلها الأمان فأمنهم ودخلها بدون قتال, واحتل مدينة برقة وكانت جيوش العبيـديين تتدافع نحو حباسة بدون انقطاع.

وكان حباسة هذا لا يفي بوعد, وكلما دخل مدينة قتل أهلها وأخـذ أمـوالهم وسـبى نـساءهم, ومن فظاعة أعماله التي ذكرتها كتب التاريخ ما فعله بمجموعة مـن النـاس كـانوا يلعبـون بـالحمام في برقة فأمر بهم فأجلسهم حول النار, وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى, ثم أمر بهـم فـألقوا في النـار. إن هذه الأعمال الوحشية تدل على عداوة العبيديين لكل من له رائحة سُنية, وربما يتقربون بها إلى اللــه على زعمهم الفاسد.

ومن أعماله الشنيعة ما قام بإعلانه في برقة: من أراد العطاء فليأت إلينا, فحضر إليه من الغـد ألف رجل, فأمر بهم فقتلوا جميعًا, ثم وضع جثثهم بعضًا على بعض, وجـيء لـه بكـرسي فوضـع عـلى الجثث وجلس عليه, وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبـسهم وأهـانهم, وقـد مـات مـنهم أناس من هول ما رأوا, وقال لهم: إن لم تأتوني غدًا بمائة ألف مثقال قتلتكم جميعًا, فأحضروها له.

وانتقم من حارث ونزار ابني جمال المزاتي في نفـر مـن أبنـاء عمـومتهم في مدينـة برقـة, وبـاع نساءهم وأخذ جميع أموالهم وخيراتهم, وقد اغتم أهـالي برقـة مـن هـذه الأفعـال الـشنيعة والأعـمال القبيحة فأرسلوا إلى عبيد اللـه المهدي, فاعتذر الملعون وحلف يمينًا كاذبة أنه ما أمر بشيء مـن ذلـك, وكتب إلى حباسة أن يرحل عن برقة فرحل إلى جهة مصر, وأتى أمورى أقبح مما كان يفعله في برقة(1).

وفي سنة 302هـ تقدمت جيوش أبي القاسم الرافـضي إلى الإسـكندرية ولم ينـل مـا أراده ورجـع مهزومًا, ذلك أن أبا القاسم أرسل قصيدة إلى بغداد يفخر فيها ببيته وبما وصل إليـه ملكهـم فـرد عليـه الصولي بقصيدة على وزنها ومنها:

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (247).

فلـو كانـت الدنيـا مثـالاً لطائـر لكان لكم منها بما حـزتم الـذنب

فغضب من هذا البيت وقال: «والـلـه لا أزال حتـى أملـك صـدر الطـائر ورأسـه إن قـدرت أو أهلك دونه»[1].

ثورة أهل برقة على العبيديين:

وفي هذه السنة 302هـ انتقم أهل برقة من العبيديين فقتلوا عاملهم وكثيرًا مـن رجـال كتامـة, فأرسل المهدي جيوشه سنة 303هـ لتأديبهم والانتقام منهم, وقاد هذه الجيوش أبو مديني ابـن فـروخ الـلـهيفي, وحاصر مدينة برقة ثمانية عشر شهرًا ودخلها سنة 304هـ عنوة, فقتـل أكـثر أهلهـا, وأحـرق دورها, وهتك أعراض نساءها وبعث بالأسرى إلى عبيد الـلـه الذي أمر بقتلهم, وبقى أبو مـديني ببرقـة إلى أن مات بها سنة 306هـ[2].

وفي سنة 304هـ حارب العبيديون أهل صقلية وغزوا مصر في ذي القعدة سنة 306هـ واستولوا على الإسكندرية وأكثر الصعيد ولم يستقروا بل رجعوا.

وفي سنة 308هـ تم بناء المهدية وانتقل إليها المهـدي, وفي سـنة 310هــ خرجـت نفوسـة عـلى عبيد الـلـه وقدموا عليهم أبابطة, فقوى شأنه وعظمت شـوكته وكـان مـذهبهم إباضـيًا فأرسـل إلـيهم عبيد الـلـه جيشًا بقيادة علي بن سليمان الداعي فانهزم جـيش العبيـديين وفـر عـلي إلى طـرابلس, ثـم أعاد الكرة على نفوسة وحاصروها.

وعيَّن محمد بن عمر النفطي قاضيًا على طرابلس, واستطاعت الدولة العبيدية أن تفرد نفوذها بقوة السلاح على إفريقية, وطرابلس, وبرقة, وجزيرة صقلية في حكم عبيد الـلـه المهدي.

---

(1), (2) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا, ص (248).

جرائم العبيديين في الشمال الإفريقي

لقد ارتكب الباطنيون الروافض الشيعة في أهالي الشمال الإفريقي من أهل السنة ما تشيب منه الولدان ولا تصدقه العقول, وأنزلوا غضبهم وصبوا سخطهم على العلماء خاصة:

1- فعندما ادعى عبيد الله الرسالة أحضر فقيهين من فقهاء القيروان وهو جالس على كرسي ملكه وأوعز إلى أحد خدمه, فقال للشيخين: «أتشهدان أن هذا رسول الله؟ فقالا بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان: إنه رسول الله, ما قلنا ذلك. فأمر بذبحهما»[1] وهذا الشيخان المغربيان هما: ابن هذيل وابن البردون.

قال الذهبي عن ابن بردون: «هو الإمام الشهيد المفتي, أبو إسحاق, إبراهيم بن البردون الضبي مولاهم الإفريقي المالكي, تلميذ أبي عثمان الحداد»[2].

وطلب منه لما جرد للقتل: أترجع عن مذهبك؟ قال: أعن الإسلام أرجع؟ وقيل: في سنة تسع وتسعين ومائتين[3] إن عبيد الله المهدي الزنديق لم يدع الرسالة فحسب, بل سمح لأتباعه أن يغرقوا في كفرهم حتى ألهوه فقد كانت أيمانهم المغلظة: «وحق عالم الغيب والشهادة, مولانا الذي برقادة». ومن أهم ما ادعى معرفة الغيب, والغيب لا يعلمه إلا الله, وهذا الأمر من خصوصيات الألوهية, فمن ادعاه لغير الله يقع في الشرك والكفر العظيم, قال تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" [الأنعام: 59].

---

(1) سير أعلام النبلاء (ج217/14).

(2) المصدر السابق (ج215/14).

(3) المصدر نفسه (ج215/14).

"قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللــه وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ" [النمل: 65].

كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق, قال رسول اللـه «من كان حالفًا فليحلف باللـه أو ليصمت...» وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء[1].

2- لقد كان شعراء الدولة العبيدية يمدحون خلفاءهم إلى درجة الكفر البواح وينشرونها بين الناس, وقد ظهر ذلك في شعر ابن هانئ الأندلسي في مدحه للمعز وكان أحد شعرائهم, مدح عبيد اللـه فقال:

حـــل برقـــادة المســـيح ... حـــل بهـــا آدم ونـــوح

حـــل بهـــا اللـــه ذو المعـــالي ... فكـــل شيء ســـواه رايـــح [2]

كما شبه شعراؤهم المهدية بمكة المكرمة وقصر المهدي بالكعبة.

هـــي المهديـــة الحـــرم المـــوقى ... كـــما بتهامـــة البلـــد الحـــرام

وإن لـــثم الحجـــيج الـــركن أضـــحى ... لنـــا بعـــراص قـــصركم التثـــام [3]

3- شنوا حربًا نفسية على أهل السنة وذلك بتعليق رؤوس الأكباش والحمير على أبواب الحوانيت والدواب, وكتبوا عليها أسماء الصحابة رضي اللـه عنهم, (لعنهم اللـه أنى يؤفكون), وأظهروا سب الصحابة رضي اللـه عنهم, وطعنوا فيهم وزعموا أنهم ارتدوا بعد النبي صلى اللـه عليه وسلم وخصصوا دعاة للنداء بذلك في الأسواق.

ومن ذكر الصحابة بخير أو فضل بعضهم على علي ﷺ قتل أو سجن[4].

(1) انظر: كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص (90).

(2) مدرسة الحديث في القيروان (ج72/1).

(3) البيان المغرب (ج184/1).

(4) مدرسة الحديث في القيروان (ج73/1).

4- عمل العبيديون على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين؛ ولذلك أصدر عبيد الله أمرًا بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد, وجعل اسمه بديلاً منهم, واستولى هذا الرافضي الخبيث على أموال الأحباس وسلاح الحصون, وطرد العباد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزنًا للسلاح[1].

5- حرص العبيديون على منع التجمعات خوفًا من الثورة والخروج عليهم؛ ولذلك جعلوا بوقًا يضربونه في أول الليل, فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه, كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء[2].

وهذا الفعل لا يزال مستمرًا في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونهامَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ" [غافر: 29].

6- أتلفوا مصنفات أهل السنة, ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التجيبي (ت 346هـ) الذي توفي وترك سبعة قناطير كتب, كلها بخط يده, فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها «ومنع الناس منها كيدًا للإسلام وبغضًا فيه»[3].

7- حرموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك, واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحيانًا, ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي, حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادي عليه: «هذا جزاء من يذهب مذهب مالك», ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم كما فعلوا بالفقيه

---

(1) انظر: رياض النفوس (ج56/2).

(2) المصدر السابق (ج29/2). وجل هذا المبحث من كتاب مدرسة الحديث في القيروان مع تصرف واضح.

(3) المصدر السابق (ج423/2).

المعروف بالهزلي «أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد» المتوفي عام تسع وعشرين وثلاثمائة[1].

8- منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد, ونشر العلم, والاجتماع بالطلاب, فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفًا من بني عبيد, فكان أبو محمد بن أبي زيد, وأبو محمد بن التبان وغيرهما, يأتيان إلى أبي بكر بن اللباد, شيخ السنة بالقيروان في خفية, ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفًا من بني عبيد»[2].

وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليًا, وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

9- أجبروا الناس على الدخول في دعوتهم فمن أجاب تركوه, وربما ولوه بعض المناصب, ومن رفض قُتل, كما فعلوا عقب أول جمعة خطبها عبيد الله بالقيروان, وقعت بين الدولة العبيدية وأهل القيروان مقتلة عظيمة, فأمر الشيعي بالكف عن العوام, وافتعل مناظرات صورية, فدارت على علماء السنة محن عظيمة, وقتل منهم عدة آلاف بسبب تمسكهم بإسلامهم ودفاعهم المستميت عن السنة, قال القابسي: «إن الذين ماتوا في دار البحر -سجن العبيديين- بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب, ما بين عالم وعابد ورجل صالح»[3], هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان, فأثر ذلك على سير الحياة العلمية, وقد خمل ذكر كثير من العلماء

---

(1) المصدر السابق (ج56/2).

(2) انظر: مدرسة الحديث بالقيروان (ج76/1).

(3) المصدر السابق (ج74/1).

الذي آثروا اعتزال الفتنة, مثل أبي محمد الورداني[1], ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهل الشمال الإفريقي إلا عزيمة وصبرًا واحتسابًا وتمسكًا بأصول أهل السنة والجماعة[2].

10- عطلوا الشرائع, وأسقطوا الفرائض عمن تبع دعوتهم حيث يتم إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابسًا فروًا مقلوبًا, دابًا على يديه ورجليه, فيقول لهم: «بَخْ» ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: «فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء, لا وضوء, ولا صلاة, ولا زكاة, ولا أي فرض من الفروض, وسقط جميع ذلك عنكم, وأما لبس الفرو مقلوبًا فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين, وأما قولي لكم بَخْ, فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشراب الخمر....» [3].

ويعجبني في هذا المقام ما قاله شاعر أهل السنة في الشمال الإفريقي أبو القاسم الفزاري في هجاء بني عبيد:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم	نالوا لهم سبب النجاة عمومًا
وتمكن الشيطان من خطواتهم	فأراهم عوج الضلال قويمًا
رغبوا عن الصديق والفاروق	في أحكامهم لا سلموا تسليمًا
واستبدلوا بهما ابن أسود نابحًا	وأبا قدرة واللعين تميمًا
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا	عمن أصارهم الإله نجومًا
ياليت شعري من هم إن جهلوا	دنيا, ومن هم إن عددت صميمًا
أمن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هم	دهرية جعلوا الحديث قديمًا

(1), (4) المصدر السابق (ج75/1).

(3) رياض النفوس (ج504/2).

أم هـــم مـــن الـــصابين أم مـــن عـــصبة	عبـــــدوا النجـــــوم وأكـــــثروا التنجـــــيما
أم هـــــــم زنادقـــــــة معطلـــــــة رأوا	أن لا عـــــــذاب غـــــــدًا ولا تنعـــــــيمًا؟
أم عـــــصبة ثنويـــــة قـــــد عظمـــــوا	النـــــورين عـــــن ظلماتهـــــم تعظـــــيمًا؟
مـــن كـــل مـــذهب فرقـــة معلومـــة	أخـــــذوا بفـــــرع وادعـــــوه أرومـــــا [1]

وستأتي قصيدته الرائية التي هجا فيها بني عبيد وكيف نجاه الـلـه منهم بإذن الـلـه تعالى.

11- زادوا في الأذان: «حي على خير العمل», وأسقطوا من أذان الفجر «الصلاة خير من النوم», ومنعوا الناس من قيام رمضان, وليس شيء أشد على بني عبيد من هذه الصلاة, ومنعوا صلاة الضحى, وقدموا صلاة الظهر لفتنة الناس, أما خطبة الجمعة فقد أظهروا فيها سب الصحابة وضروبًا من الكفر, فتركها الناس, وأقفرت المساجد في زمانهم, وكان بعض أئمتهم يصلون إلى رقادة, فلما انتقل عبيد الـلـه إلى المهدية صلوا إليها[2], وكثيرًا ما كانوا يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال[3] بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه محمد بن الحبلي قاضي مدينة برقة.

قال الذهبي رحمه الـلـه في ترجمته: «الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة, محمد بن الحبلي. أتاه أمير برقة, فقال: غدًا العيد, قال: حتى نرى الهلال, ولا أفطر الناس, وأتقلد إثمهم, فقال: بهذا جاء كتاب المنصور, وكان هذا من رأي العبيدية يفطرون بالحساب, ولا يعتبرون رؤية فلم ير هلال, فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد, فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي, فأمر الأمير رجلاً خطب, وكتب بما جرى

(1) المصدر نفسه (ج494/2،495).

(2), (2) انظر: مدرسة القيروان (ج73/1).

إلى المنصور, فطلب القاضي إليه, فأحضر, فقال له: تنصل, وأعفو عنك, فامتنع, فأمر, فعلق في الشمس إلى أن مات, وكان يستغيث من العطش, فلم يسق, ثم صلبوه على خشبة. فلعنة الله على الظالمين»[1].

12- من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد, فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها طاهرة, لأنها خيل المهدي, فأنكر عليهم قيم المسجد, فذهبوا به إلى المهدي فقتله, يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بعلة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك»[2].

إن أجيال المسلمين الذي يقرؤون تاريخ العبيديين لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة, ذهب فلان وخلفه فلان, وأنها دولة تحب العلم وتنشره, والمقصود نشر كتب الفلاسفة ولكن لا أحد يذكر -عدا الذين ترجموا للعلماء- بطش هؤلاء الأوغاد الظلمة بالعلماء من أهل السنة, بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون معد بن إسماعيل الملقب بالمعز, يذكرونه وكأنه بطل من أبطال التاريخ[3].

وقد سلك العبيديون الفاطميون مسلك العباسيين عند تأسيس دولتهم فمهدوا لدولتهم بالدعوة إلى الفكرة الشيعية في مصر والمغرب واليمن، وأصبح لها أتباع وأنصار بكل من هذه البلاد، بل استطاعوا أن يستميلوا وزراء العهد الأخير للأغالبة، وكان داعي دعاتها في المرحلة الأخيرة قبل قيام دولتهم أبو عبد الله علي بن حوشب

(1) الذهبي, سير أعلام النبلاء (ج374/15).

(2) أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبدة, ص(39).

(3) أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبدة, ص (40).

الشيعي، فعمل على نشر الدعوة للعبيديين الفاطميين في بلاد المغرب منذ سنة 280 هـ ثم شمال إفريقية سنة 289 هـ.

استطاع أبو عبد الله أن يحشد جيشًا من أتباعه ويواجه دولة الأغالبة في حروب امتدت حوالي خمس سنوات حتى سنة 296، والتي استطاع فيها أن يقضي تمامًا على دولة الأغالبة

وامتد نفوذ العبيديين الفاطميين في ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة غرب مدينة القيروان.

عبيد الله المهدي والنشأة

أثناء هذه الحروب أرسل أبو عبد الله إلى عبيد الله يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب، وبالفعل عزم عبيد الله على الرحيل إلى المغرب، ولكنه احتاط واستخفي ومر في طريقه بمصر فرحب به أتباعه ودعاته بمصر، وصادف بعد ذلك بعض المتاعب، حتى وصل إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى وكان يعيش بها آمنًا بسبب إغداقه المال على واليها اليسع ابن مدرار، غير أن معاملة الوالي تبدلت بعد انتصار أبى عبد الله الشيعي على الأغالبة سنة 296، فقبض على عبيد الله وزجه وأتباعه في السجن، فلما امتد نفوذ أبي عبد الله ووصل إلى سجلماسة فر واليها، فأطلق سراح عبيد الله من سجنه في سجلماسة وأُخذت لعبيد الله البيعة ثم سار في جيش كبير من الجند حتى وصل رقادة (عاصمة الأغالبة سابقًا) فتلقاه أهلها بالترحاب واتخذها عاصمة له، وأمر بذكر اسمه في الخطبة على منابر البلاد وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، وبذلك قامت الخلافة العبيدية الفاطمية في شمال إفريقية.

معاناة العبيديين(الفاطميين) من القلاقل والاضطرابات المتتالية ببلاد المغرب

مقتل أبي عبد الله الشيعي

ولأن أبا عبد الله الشيعي هو صاحب الفضل الأول في التمكين لعبيد الله فقد علت مكانته بين أهالي بلاد المغرب وقبيلة كتامة (إحدى القبائل البربرية التي ساعدت عبيد الله مساعدة عظيمة). ومن ثم حنق عليه عبيد الله وخشي أن يضعف نفوذه، فأمر بقتل كل من أبي عبد الله وأخيه العباس فى جمادى الآخرة سنة 298، فثار أهالي المغرب عليه خاصة الكتاميون ولكنه استطاع أن يخمد هذه الثورة.

القضاء على الأدارسة

ازدادت طموحات عبيد الله في إخضاع المغرب كله له واستطاع القضاء على نفوذ الأدارسة سنة 312 هـ على يد موسى بن أبي العافية، الذي بدوره أخذ نفوذه في الازدياد حتى خلع طاعة الفاطميين، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس، فأرسل عبيد الله ابنه وولي عهده أبا القاسم القائم سنة 315 إلى موسى، واستطاع أن يعيد للعبيديين (الفاطميين) نفوذهم..

وأقام عبيد الله مدينة المهدية واتخذها عاصمة لدولته، وكان البحر يحيط بها من ثلاث جهات وبني بها دارا للصناعة تسع أكثر من مائتي مركب ثم بنى بجوارها مدينة زويلة.

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد

وفى سنة 316 ثار أبو يزيد مخلد بن كيداد، وامتدت ثورته إلى زمن القائم الذى تولى بعد وفاة أبيه عبيد الله، وأبو يزيد هذا نشأ في مدينة تورز وتعلم القرآن واعتنق فكر الخوارج الصفرية، وعادي الشيعة واجتمع إليه سائر الخوارج، وبعض قبائل البربر وبايعوه سنة 331 هـ على قتال الشيعة، وكان البربر يرون أنهم فتحوا الأندلس وبذلوا جهدهم لتولية العبيديين (الفاطميين) الخلافة دون أن ينالوا شيئًا، لذلك تزعم أبو يزيد ثورة هؤلاء البربر ليستعيد سلطانهم..

كان أبو القاسم القائم شرًا من أبيه، زنديقًا ملعونًا، أظهر سب الأنبياء، وكان مناديه ينادي: العنوا الغار وما حوي، وقتل خلقًا من العلماء، ومات عام 334 هـ.

أرهق أبو يزيد العبيديين (الفاطميين) حتى قضوا على ثورته سنة 336 هـ ولكن نفوذ العبيديين (الفاطميين) تضاءل في بلاد المغرب وساءت حال البلاد في شمال إفريقية من جراء تلك الثورات.

إخضاع المغرب للسيطرة العبيدية (الفاطمية)

وتولى أمر الخلافة العبيدية (الفاطمية) بعد القائم إسماعيل أبو طاهر المنصور سنة 334هـ وفي سنة 337هـ أسس المنصور مدينة المنصورية واتخذها حاضرة له ولها خمسة أبواب الباب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وباب الفتوح. وكانت جيوش العبيدين (الفاطميين) تخرج من باب الفتوح. وازدهرت بها التجارة..

ثم جاء المعز بن المنصور فعمل على توطيد نفوذه في بلاد المغرب فعهد إلى جوهر الصقلي بإخضاع الأمراء الثائرين في نواحي البلاد ونجح في إقامة الدعوة للعبيديين (الفاطميين) على جميع منابر المغرب عدا سبتة وطنجة.

صعود الفاطميين

الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها

مؤسس الأسرة عبيد الله المهدي (909-934 م) نجح صاحب دعوته في القضاء على دولة الأغالبة و حمله إلى السلطة، معتمدا في ذلك على كثرة جموع قبيلته كتامة الأمازيغية، ثم اختطّ مدينة المهدية بتونس وجعل منها عاصمة له، إلا أن الفاطميين وحلفاءهم بعد ذلك زحفوا إلى المشرق واختطوا القاهرة مع رابع خلفاء الفاطميين المعز لدين الله الفاطمي ، ولم يتبق منهم في المغرب إلا القليل. استولى الفاطميون على شرق الجزائر، ثم تونس، ثم ليبيا ثم صقلية التي بقيت في حكمهم حتى 1061 م. سنة 969 م استولى المعز (953-975 م) على مصر وبنى مدينة القاهرة. بقيادة جوهر الصقلي.

دخل الفاطميون في صراع مع العباسيين للسيطرة على الشام. كما تنازعوا السيطرة على شمال إفريقية مع أمويي الأندلس. كما تمكنوا من إخضاع الحجاز والحرمين مابين سنوات 965-1070 م. ازدهرت التجارة ونما اقتصاد البلاد ونشطت حركة العمران أثناء عهد العزيز بالله الفاطمي (965-996 م) ثم الحاكم بأمر الله الفاطمي (996-1021م). آخر الخلفاء وهو العاضد لدين الله الفاطمي وقع تحت سيطرة القادة العسكريين الأيوبيين. قام صلاح الدين الأيوبي والذي تولى الوزارة منذ 1169 م،وقام بخيانة الدولة ودبر الانقلاب سنة 1171 م. وأعاد ذكر الخليفة العباسي.

الفاطميون في أفريقيا

انقسمت حياة هذه الدولة إلى فترتين: الفترة الأولى هي الفترة الأفريقية والتي تولى الإمامة فيها عبيد الله المهدي (297-322هـ) والقائم (322-334هـ) والمنصور

(334-341هـ) والمعز لدين اللـه (341-365هـ) وفي سني إمامة المعز سيطرت قواته على مصر، فانتقل إليها واتخذها مقراً لدولته.

دخل عبيد اللـه المهدي القيروان في 6 يناير 910م، وسرعان ما باشر أعمالاً يمكن تلخيصها بأنها تنظيم للدولة ومباشرة الحكم فيها بنفسه، وفي سنة 309هـ استقر في العاصمة الجديدة التي بناها والتي أطلق عليها اسم المهدية، وتدل المعطيات الأثرية التي درسها مارسيه على أنها كانت ميناءً حربياً في غاية المنعة، مزوداً بدار للصناعة وفيها مسجد وقصر، إلا أنها بعيدة عن الترف، وتبدو مدينة حربية أكثر منها مقراً ملكياً.

كان الأئمة الفاطميون ينظرون لولاية أفريقيا كنواة لدولة الدعوة التي يجب أن تشمل ديار الإسلام كلها، ويبدو احتلال المشرق بما فيه من المراكز الإسلامية الكبرى والحرمين الشريفين هدفاً له الأولوية، ولكن وقائع الأحداث دلت على عدم زهدهم بالجناح الغربي، لأنه يدخل ضمن إطار الدولة الكبيرة، ولأن الشمال الإفريقي في هذا الجناح يكون قاعدة الانطلاق والإمداد للسيطرة على المشرق، وفي نص الدعاء الرسمي في الخطبة ما يدل على حدود هذه الأهداف إذ يدعى للإمام بأن تفتح له مشارق الأرض ومغاربها، ويمدح أحد الشعراء عبيد اللـه بقوله:

فدولة القائم المهدي قد أزفتْ ... أيامها والذي أنبا به الأثرُ

عن النبي وفيه قطع مدتكم ... يا آل أغلب أهل الغدر فاقتصروا

وقطع أمر بني العباس بعدكم ... وقطع آل بني مروان* إذ بطروا

ويعني ببني مروان أمويي الأندلس.

كانت الحملات الأولى بعد سنوات من إقامة الدولة موجهة نحو الغرب، حيث قام أبو عبد اللـه الشيعي بحملتين قبل اغتياله، قام بالأولى ضد قبائل زناتة عام 298هـ والثانية ضد تاهرت قضي فيها نهائياً على الدولة الرستمية، وفي مدة لا تزيد إلا قليلاً

على عقد واحد من السنين بسط الفاطميون سلطانهم على المغرب كله، لكن هذه السلطة لم تكن مباشرة إلا في إفريقية، أما في المغرب الأوسط، وشمالي المغرب الأقصى وصحرائه، فكان الحكم غير مباشر أو حكم تبعية.

كان جوهر الصقلي مولى المعز لدين الله الفاطمي هو الذي حقق الانتصارات الكبرى للفاطميين في التوسع غرباً، ثم أحرز لسيده نصراً آخر بفتحه مصر سنة 358هـ وبنائه القاهرة التي انتقل إليها المعز سنة 362هـ واتخذها مقراً له، بدلاً من المهدية. كان لهذا الانتقال نتائجه، إذ تحول وضع هذه البلاد من قاعدة للفاطميين إلى ولاية يديرها بالنيابة عنهم أتباعهم من بني زيري الصنهاجيين الذين استمروا في السير على السياسة السابقة نفسها لأسيادهم الفاطميين، في اتخاذ المغرب الأدنى (ولاية أفريقيا) قاعدة لهم ومحاولة ضمان سلطانهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة على المغرب الأوسط والأقصى.

بعد استقرار المعز لدين الله الفاطمي في مصر، تمّ إحكام نظام إداري للدولة يمكن وصفه بالعلمية لرقيه ودقته، كما أحكم نظام الدعوة، ويعدُّ يعقوب بن كلس (ت380هـ) وزير العزيز بالله (365-386هـ) أهم بناة النظام الإداري والدَعَوي للدولة الفاطمية، واستطاع هذا النظام أن يبقي الدولة الفاطمية حيَّة مدة تفوق القرنين، على الرغم من أن الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش القاهرة لم يتسموا بالمقدرة والكفاءة السياسية والإدارية التي اتسم بها من سبقهم من الخلفاء.

وبعد أن توطد سلطان الفاطميين في مصر، صار تحدي [الإسماعيلية] للنظام العباسي والفكر السني أكثر قرباً وأشد خطراً، وصار للفاطميين دولة واسعة الأرجاء، شملت وهي في ذروة قوتها، مصر وسورية وشمالي إفريقيا وصقلية والحجاز واليمن بما في ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة، وسيطر الفاطميون على جيش من الدعاة، وعلى ولاء عدد لا يحصى من الأتباع في الأراضي التي كانت خاضعة للحكم العباسي فعلياً أو اسمياً.

إفريقية والمغرب الأوسط (ضمن دولة الأغالبة) حيثُ وجد المذهب الإسماعيليّ موطأ قدمٍ بين بعض قبائل البربر.

كانت شمال أفريقيا أرضًا صالحةً لنصرة المذهب الإسماعيلي، ذلك أنَّ التشيُّع العَلَويّ تركَّز مُنذ نشأته في المشرق، وظهر في بيئة الكوفة مُتعددة الأجناس والقوميَّات، وانتشر بين الموالي، ثُمَّ انتقل غربًا بعد المُلاحقات التي تعرَّض لها الشيعة من قبل العبَّاسيين، وكانوا جميعًا من فرع الحسن بن عليّ بن أبي طالب، وتمركزوا في شمال أفريقيا حيثُ ضعُفت السيطرة العبَّاسيَّة لبُعد المسافة عن مركز اتخاذ القرار في بغداد، ولصُعوبة المُواصلات، ونشروا التعاليم المُشتركة للمذهب الشيعيّ ومآثر العَلَويين ممَّا أدّى إلى انتشار هذا المذهب بين الأمازيغ البربر الذين أدّوا دور الموالي من الفُرس في المشرق، على الرُّغم من وجود فوارق كُبرى بين الفئتين في طبيعة دعمها للعَلويين بعامَّة، وفي مؤسساتهما ومُنظماتهما، وفي أهدافهما وعقائدهما. ورُبَّما كان العطف على آل بيت الرسول مُحمَّد، والاعتقادُ بفضائلهم، كبيرًا في المغرب من أيِّ مكانٍ آخر، وقد أتاح للأدارسة السَّيطرة على المغرب الأقصى بدون مشقَّة وتأسيس دولتهم المُستقلَّة. كما اشتمل المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، باستثناء الأراضي التابعة لإمام تاهرت، على إماراتٍ شيعيَّةٍ بلغ عددها تسعُ إماراتٍ، ممَّا هيَّأ الأرضيَّة الخصبة لزرع وتنمية الدعوة الشيعيَّة. لكنَّ المذهب الإسماعيلي دخل إلى إفريقية بصورةٍ أكثر تنظيمًا وسريَّةً قبل نحو مائةٍ وخمسةٍ وثلاثين سنة من قُدوم أبي عبدِ الله الدَّاعي،وذلك في أواسط القرن الثاني الهجري المُوافق للقرن الثامن الميلادي، وتركَّز في ديار القبيلة الأمازيغيَّة كتامة في المغرب الأوسط، التي عُرفت بأنَّها أكثرُ القبائل عددًا وأصعبها مُراسًا، إذ كانت تسكُن جبال الأوراس الوعرة في جنوب إفريقية، وهي البلادُ المُمتدَّة من طرابلس الغرب إلى طنجة.

خارطة مُقرَّبة لناحيةٍ من بلاد البربر، تظهرُ فيها مدينة الناظور حيثُ انتشر التشيُّع العلوي على يد عبدُ الله بن عليّ بن أحمد الحلواني.

مرَّت الدعوة الإسماعيليَّة في بداية انطلاقتها، بمرحلتين: مرحلة الإعداد العقائدي النظري، وتولَّاها إثنان هُما أبو سُفيان الحسن بن القاسم وعبدُ الله بن عليّ بن أحمد، المشهور بالحلواني، ومرحلة الدور العمليّ، وقامت على أكتاف الدَّاعي أبي عبد الله المُحتسب المشهور بالشيعي الصنعاني. ففيما يتعلَّق بالمرحلة الأولى، فقد بعثت القيادة في المشرق أبا سُفيان والحلواني إلى شمال أفريقيا سنة 145هـ المُوافقة لِسنة 762م، وأمرتهما بأن يُبسطا ظاهر علم الأئمَّة وينشُرا فضلهم، وأن يتجاوزا إفريقية إلى حُدود بلاد البربر، وأن لا يعملا في منطقةٍ واحدة.

وقد رجَّح البعض أن يكون الإمام جعفر الصَّادق نفسه هو من أرسلهما وزوَّدهما بهذه التعليمات.

استقرَّ أبو سُفيان في قريةٍ زراعيَّةٍ يُقال لها «تالة» وهي من ضواحي قرية مرماجنَّة الهواريَّة الأمازيغيَّة، وتقع إلى الشمال من مدينة تونس المُعاصرة، وتشغلُ مركزًا تجاريًّا هامًّا، فابتنى فيها مسجدًا وتزوَّج بامرأةٍ من أهلها واشترى عبدًا وأمة، وعاش حياةً مثاليَّة زاهدة، واشتهر بالفضل والعِبادة والذِكر، ممَّا لفت إليه الأنظار، فهرع إليه سُكَّانُ المناطق المُجاورة يسمعون فضائل أهل البيت منه، ويأخذونها عنه. ودعا إلى الإمام عليّ بن موسى الرضا من آل البيت، وبشَّر بقرب ظُهوره ونعتهُ بالمهدي المُنتظر، وأضحت مرماجنَّة، بتأثيره، دار هجرةٍ للشيعة. وبفضل موقع المدينة التجاري، استقطب أبو سُفيان التُجَّار وأدخلهم في دعوته التي انتقلت بعد ذلك إلى مدينة نفطة، وكثُر فيها التشيُّع حتّى غدت تُعرفُ باسم «الكوفة الصُغرى»، ثُمَّ انتشر المذهب الشيعي في الأربس شمالًا.

بالمُقابل، توغَّل الحلواني في بلاد البربر الأمازيغ، واستقرَّ في الناظور على مشارف أرض قبيلة كتامة البربريَّة، أقوى قبائل تلك الناحية. وسلك نهج زميله أبا

سُفيان، فاشتهر ذكره، وأقبل النَّاسُ عليه، وتشيَّع كثيرٌ منهم على يديه وبخاصَّةٍ من قبائل كتامة ونفـزة وسماتة، وكان يقولُ لهم: «بُعِثْتُ أنَا وَأَبُو سُفْيَانَ، فَقِيْلَ لَنَا: «إذْهَبَا إلَى المَغْرِبِ، فَإنَّكُمَا تَأْتِيَانِ أَرْضًا بُـوْرًا فَاحْرِثَاهَا وَأَكْرِبَاهَا وَذَلِّلَاهَا إلَى أن يَأْتِيْهَا صَاحِبُ البّذْرِ فَيَجِدُهَا مُذَلَّلَةٌ، فَيَبْذِرُ حَبَّهُ فِيْهَا»».

وتوفي أبو سُفيان قبل وصول الدَّاعي أبي عبد الـلـه الشيعي4، أمَّا الحلواني فعاش دهـرًا طـويلًا ومات في الناظور تاركًا ابنة وعددًا من المعارف، عاش بعضهم طـويلًا وأدركـوا وصـول الـدَّاعي أبي عبـد الـلـه.

خلال تلك الفترة، كانت القيادة الإسماعيليَّة في سلميَّة قد أرسلت الداعي أبو عبد الـلـه سـالِف الذِكر إلى اليمن ليتدرَّب على يد الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان، أبرزُ دُعاة تلك البلاد، فاسـتقبله وقرَّبه منه، وكان قد تعرَّف عليه في الكوفة. ولم تمضِ أكثر من سنة، حتَّى انضمَّ أبو عبد الـلـه إلى قافلة الحُجَّاج اليمنيين وخرج معهم إلى مكَّة في سنة 279هـ المُوافقة لِسنة 893م.

ذلك أنَّ رؤساء الدعوة الإسماعيليَّة اتفقوا بعد مُشاوراتٍ مُستفيـضةٍ عـلى إرسـاله إلى المغـرب لمُتابعة العمل بعد وفاة أبي سُفيان والحلواني، والاستيلاء على الحُكم بمُساعدة قبيلـة كتامـة. وصـل أبـو عبد الـلـه إلى مكَّة، واجتمع بحُجَّاج كتامة في مِنى، وكانت الجماعة الكتاميَّة تضم شخصين ينتميـان إلى بطنٍ كبيرٍ من بطون كتامة، هما حُريث الجميلي وموسى بن مكـارم، اللـذين اعتنقـا المـذهب الـشيعي بتأثير الحلواني، ودار حديثٌ مُطوَّلٌ بين الطـرفين حـول فـضائل الإمـام عـليّ وبنيـه، وتكـرَّرت اللقـاءات وتزايد إعجاب الكتاميين بصديقهم الجديد. ولمَّا انتهى موسم الحج، واستعدّوا للرحيل، غـادر أبـو عبـد الـلـه مع الكتاميين مُتظاهرًا بالتوجه إلى مصر، وخلال الرحلة استقى منهم بعـض المعلومـات المُتعلِّقـة بوضعهم السياسي والاجتماعي، وكُل ما من شأنه أن يُفيد مُهمَّته، ولم يكشف لهم عن نوايـاه ودوافعـه الحقيقيَّة.

ولمَّا وصلوا إلى مصر، تظاهر بأنَّهُ يُريد الإقامة فيها لتعاطي مهنة التعليم، فاقترحوا عليه أن يسير معهم إلى بلادهم ليُعلِّم أبناءهم، ووعدوه بمُساندته ومنحه مزايا أكثر مُلائمةً، فاعتذر ببُعد المسافة، ووعدهم باقتفاء أثرهم إن خابت آماله في الحُصول على عملٍ كمؤدبٍ في الكُتَّاب، فغاب عنهم بعض الوقت ثُمَّ عاد وقال لهم أنَّه لم يجد في تلك البلاد ما يُريد، وأنَّه قرر السير معهم إلى المغرب.

مكث أبو عبد الله الشيعي في قلعةٍ صغيرةٍ يُقالُ لها «إيكجان» تقعُ في فج الأخيار قُرب قسنطينة وتُقيمُ بها قبيلة سكتان البربريَّة،وأخذ يعمل على دعوة الناس إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي، فأحرز نجاحًا كبيراً وتخطَّت شهرته حدود إيكجان، رُغم مُعارضة بعض زُعماء القبائل الذين خشوا على سُلطانهم ونُفوذهم.

ومع اتساع نطاق الدعوة وتكاثر عدد المُنضوين إليها، كان من الطبيعي أن تتولَّد ردود فعلٍ عنيفة لدى بعض أصحاب السُلطان في بلاد البربر ولدى صاحب إفريقية. وعند هذه المرحلة بلغت مُهمَّة الداعي أبي عبد الله الروحيَّة ذُروة الحسم، وأصبحت مقرونة بمُهمَّة دُنيويَّة خالصة، ذلك أنَّهُ لم يعد فحسب الزعيم الديني للمجموعة التي اجتهد في تكوينها في إيكجان، بل أصبح على أهبة التحوّل إلى زعيمٍ سياسيٍّ يسعى إلى بعث حركةٍ ثوريَّةٍ في إفريقية ضدَّ السُلطة الأغلبيَّة

قيام الدولة مرة اخرى

المستنصر يحكم لمدة ستين عاماً

تولي الخليفة المستنصر حكم مصر سنة 1035 م / 427 هج بعد وفاة ابيه الظاهر ، و كان يبلغ من العمر سبعة اعوام و استمر في حكم مصر حتي 1094 م ، أي ظل يحكم مصر حوالي 60 عاماً.

كانت الفترة الأولي من حكم المستنصر و التي استمرت حوالي 20 عاماً فترة من الرخاء و الازدهار و الاستقرار، و كانت القاهرة فيها من أهم مراكز القوة في

العالم الإسلامي. و امتد سلطان الفاطميين علي بلاد الشام و فلسطين و الحجاز و اليمن و شمال افريقية بجانب مصر.

انكماش سلطان الفاطميين و الشدة المستنصرية

في الفترة الثانية لحكم المستنصر لم يستطع أن يحتفظ بحدود دولته مترامية الأطراف فخسر بلاد المغرب الأقصي سنة 443 هج لدولة المرابطين الفتية، و المغرب الأوسط سنة 475 هج لدولة المعز بن باديس.

وأخيراً خسر الفاطميون سلطانهم في فلسطين و الشام لصالح دولة السلاجقة الذين استولوا من الفاطميين علي القدس سنة 1072 م / 464 هج وعلي دمشق و حلب و شرق فلسطين سنة 1075 م / 468 هج.

ولكن في عام 1089 م / 481 هج انتهز الفاطميون فرصة انشغال السلاجقة بالحملات الصليبية القادمة من آسيا الصغري و استعادوا القدس مرة أخري.

ويرجع الضعف الذي دب في الخلافة الفاطمية في مصر إلي سببين : أولهما استخدام الخليفة المستنصر للعناصر المغاربية و التركية كجند له، فاستأثروا بشئون الحكم دونه، و كثرت بينهم الصراعات التي دفع الناس ثمناً باهظاً لها. كما استعانت أم الخليفة المستنصر التي كانت جارية حبشية، بعناصر من الجند السود من جنسها لتواجه بهم استفحال سطوة الجنود المغاربة و الأتراك. فكثرت الصراعات بين المغاربة و الأتراك و السود، و سادت حالة من الفوضي و الفساد باتت تنذر بسقوط مبكر للخلافة الفاطمية.

السبب الثاني لضعف الخلافة الفاطمية هو انخفاض منسوب مياه النيل، فعمت المجاعة في أرجاء مصر بصورة لم يسبق لها مثيل و ذلك في عام 446 هج، و استمرت سبع سنوات اتت فيها علي الأخضر و اليابس، و انتشرت الجثث في كل مكان و ظهر

وباء الطاعون الذي قضي علي ثلث سكان مصر و استمر حتي سنة 1064 م / 454 هج.

الوزير بدر الجمالي

الوزير بدر الجمالي هو من أشهر وزراء مصر في التاريخ الإسلامي ، تولي شؤون البلاد في فترة عصيبة سنة 1075 م / 465 هج بعد أن هلك الناس و الزرع في سنوات الجفاف و المجاعة التي سميت بالشدة المستنصرية و التي استمرت سبع سنوات، أكلت الأخضر و اليابس حتي أكل الناس الدواب و الجيف.

كان بدر الجمالي والياً علي عكا، فاستنجد به الخليفة المستنصر ليقضي علي العناصر التركية و الحبشية المتمردة، التي عاثت في الأرض فساداً ، و زادت من بؤس الناس الذين عانوا من الأمرين، مر الجوع و المرض بسبب المجاعة، ومر الظلم و القتل علي يد أمراء الجند المرتزقة.

فجاء بدر إلى مصر ومعه جند الأرمن، ونجح في وضع حداً للفوضي والجرائم والفتن، فتخلص من كل رؤوس الفساد و الفتن في مذبحة الجمالية، و أعاد السيطرة علي الحكومة و أعاد سلطة القانون للبلاد، و صار لقبه أمير الجيوش بدر الجمالي، وإليه ينسب حي الجمالية بالقاهرة.

بعد أن أصبح للوزرير بدر الجمالي اليد الطولي في حكم مصر، عمل علي أن يرث ابنه الوزارة من بعده، فأخذ عهداً من الخليفة المستنصر علي تولية ابنه الأفضل وزارة مصر من بعده. و يعتبر عهد بدر الجمالي هو بداية عهد سطوع نجم الوزراء واستأثارهم بالحكم و توريث الوزارة في نفس العائلة.

ولم يكتف بدر الجمالي بالسيطرة علي كرسي الوزارة، و إنما سعي إلي السيطرة علي بيت الخليفة أيضاً ، فبدأ في نسج خيوطه حول الخليفة المستنصر، و استخدم في ذلك ابنته ست الملك التي كانت رائعة الجمال، فلم يكد الخليفة المستنصر يراها حتي

عزم علي الزواج منها. و بالفعل تزوج الخليفة المستنصر من ست الملك، ابنة وزيره بدر الجـمالي، و و لدت له ابنه أحمد، الذي لقب بالمستعلي بعد ذلك.

توفي بدر الجمالي في جمادي الأول سنة 487 هج، و خلفه في الوزارة ابنه الأفضل.

كما توفي الخليفة المستنصر سنة 1094 م / 487 هج بعـد أن حكـم مـصر قرابـة الـستين عامـاً، فقام صراع بين ابن ست الملك أحمد و الابـن الأكـبر للخليفـة المستنـصر نـزار لتـولي الخلافـة. و وقـف الأفضل بن بدر الجمالي إلي جانب ابن اخته أحمد ضد نزار. و انتهي الصراع بهزيمة نزار و قتله و تـولي أحمد الخلافة و لقب بالخليفة المستعلي. و ينسب إلي نزار طائفة الشيعة النزارية.

أعمال بدر الجمالي في مصر

بقي لبدر الجمالي آثار كثيرة بناها في قاهرة المعز، أهمها الجامع المعروف باسم جامع الجيوشي الذي شيده سنة 1085 م / 478 هج علي جبل المقطم، و هو أول بناء اشـتمل عـلي جـامع و مقـبرة في نفس الوقت و هو أول جامع في القاهرة بني من حجر.

كما قام بتجديد سور القاهرة لتأمينها سنة 1087 م / 480 هـج، و هـو مـا يعـرف بـسور بـدر الجمالي، وأعاد تجديد أبواب زويلة والفتوح والنصر التي بناها جوهر الصقلي قبله بأكثر من مائة عام. لذلك عرفت المنطقة الواقعة بيت سور جوهر وسور بدر الجمالي باسم بين السورين.

وبوفاة الخليفة المستنصر و الوزير بدر الجمالي انتهي العصر الذهبي للخلافة الفاطمية، و بـدأ مؤشر الحضارة يتجه للإنخفاض. و يعد العصر الفطمي الثاني هو عصر إضمحلال الخلافة الفاطمية.

جانب من مدينة القيروان، عاصمة الأغالبة التي فتحها الفاطميّون سنة 296هـ الموافقة لِسنة 908م وأنهوا الولاية الأغلبيَّة على إفريقية.

انفجر الصراع بين الأغالبة والدَّاعي أبي عبد اللـه بسبب موقف حاكم مدينة ميلة من الدعوة الإسماعيليَّة في أرض كتامة. وكانت ميلة تحت حُكم موسى بن عيَّاش الذي اشتهر بعدائه لأبي عبد اللـه الشيعي، خشيةً على مركزه، وشارك في جميع المؤامرات التي حاكها الأغالبة للتخلُّص منه. وكانت ميلة المذكورة تُشكِّلُ مركزًا عربيًّا في قلب بلاد كتامة البربريَّة، وكانت الأُسر الحاكمة العربيَّة في المغرب تُوالي السُلطة المركزيَّة في بغداد، لذلك كانت أوَّل عائق أمام انطلاق الدعوة إلى الخارج، ولا بُدَّ من تذليلها، فشنَّ عليها الداعي حربًا وانتصر على حاميتها العسكريَّة، ودخلها خلال شهر ذي القعدة من سنة 289هـ المُوافق فيه شهر تشرين الأوَّل (أكتوبر) سنة 902م، وولّى عليها أبا يُوسُف ماكنون بن ضُبارة الأجاني. وهكذا سقطت أوَّل مدينة أغلبيَّة مُحصَّنة في يد الدَّاعي. لكن سُرعان ما استعادها الأغالبة مُجددًا، بعد أن هزموا جيش الدَّاعي في بلدة «ملوسة».

وخلال شهر رجب سنة 290هـ المُوافق فيه شهر حُزيران (يونيو) 903م، اشتبك الأغالبة مع الإسماعيليين في معركةٍ قاسية حالف النصر فيها أبا عبدُ اللـه، وتراجع الجيش الأغلبيّ بعد الهزيمة إلى سطيف، وفي أوائل سنة 291هـ المُوافقة لأواخر سنة 903م، استأنف الدَّاعي عمليَّاته العسكريَّة، فاستولى على سطيف، وهي أقرب مدينة مُحصَّنة من إيكجان بعد ميلة، وكانت مدينةً مُعرقلةً لتحرُّكاته العسكريَّة، وتُمثِّلُ قاعدةً لقوَّات العدو. وفي آخر شهر ذي الحجَّة سنة 293هـ المُوافق فيه شهر تشرين الأوَّل (أكتوبر) سنة 906م، استولى أبو عبد اللـه على مدينة «طُبنة» في طرف إفريقية، وهي قاعدة نهر الزَّاب الكبير، وإحدى أكبر وأغنى المُدن الأغلبيَّة بعد القيروان، وعيَّن عليها عاملًا شيعيًّا هو يحيى بن سُليمان، كما فتح بلزمة. وبسقوط هاتين المدينتين، نجح الإسماعيليّون في فتح ثغرة في الحُصون الغربيَّة التي تحمي إفريقية،

ولم يبقَ منها سوى حصن باغاية في أقصى إفريقية بين مجَّانة وقسنطينة، الذي يؤدي إلى داخل البلاد، ولا بُدَّ من مُهاجمته. وفي سنة 296هـ المُوافقة لِسنة 908م، هاجم الدَّاعي وجُنوده وأتباعه الحصن المذكور واستولوا عليه، ثُمَّ تحرَّكوا قاصدين الأربس وهزموا الجيش الأغلبيّ هزيمةً قاصمة ودخلوا المدينة عنوةً، فاستولى الهلع على أمير إفريقية أبو مُضر زيادة الله الثالث وكِبار رجال دولته وأصحاب الدواوين والموالي والعبيد، فانسحبوا إلى القيروان وسوسة وبعض المُدن الأُخرى. ولمَّا وصلت أخبار هروب زيادة الله الثالث، وما حصل في دولته من الفوضى، إلى مسامع أبي عبد الله الشيعي، تحرَّك بسُرعةٍ باتجاه القيروان ورقَّادة واستولى عليهما، وأبطل ذِكر إسم الخليفة العبَّاسي في خِطبة الجُمعة. وبهذا زالت الدولة الأغلبيَّة وبالتالي سُلطة العبَّاسيين الإسميَّة والفعليَّة عن هذه البلاد، ودخلت إفريقية في مرحلةٍ جديدةٍ من تاريخها.

خارطة توضح التحرُّكات الإسماعيليَّة في شمال أفريقيا، والمناطق التي أُقيمت بها الدولة الفاطميَّة لاحقًا في إفريقية والمغرب.

نجح الدَّاعي أبو عبد الله بالقضاء على دولة الأغالبة في إفريقية سنة 296هـ الموافقة لِسنة 908م، بعد حربٍ شديدة دامت خمس سنوات ثُمَّ التفت بعد هذا النجاح إلى العمل على إصلاح النظام السياسي في إفريقية بعد الفوضى التي نجمت عن إنهيار الدولة الأغلبيَّة، فحرص على إقامة نظامٍ جديدٍ وإضفاء الصبغة الشيعيَّة على مؤسسات الدولة الجديدة، وتركيز السُلطة في يده. فأمَّن الناس على حياتهم وأرزاقهم ومُمتلكاتهم، وأقرَّ عدَّة إجراءات لتهدئة وتأمين كُل خائفٍ كان يتولّى منصبًا في الدولة الأغلبيَّة، فاطمأنَّ إليه الكثير من الرجال ودخلوا في خدمته، وأوصى دُعاته الكتاميين أن لا يُكرهون أهل السُنَّة على التشيُّع، وأن يستعملوا معهم الإقناع عوض ذلك، وكان يُردد قولهُ المعروف: «إنَّ دَوْلَتُنَا دَوْلَةُ حُجَّةٍ وَبَيَانٍ، وَلَيْسَتْ دَوْلَةَ قَهْرٍ واستِطَالَةٍ، فَاتْرُكُوا النَّاسَ عَلَى مَذَاهِبِهِم، وَلَا تُلْزِمُوْهُم بِاتِّبَاعِ الدَّعْوَةِ الهَادِيَةِ

المَهْدِيَّة».وعاش حياةً مُتواضعةً بعيدةً عن أُبَّهة المُلك، فشعر النَّاسُ أنه قريبٌ منهم، وأضاف عدَّة علامات عقائديَّة شيعيَّة على نمط الحياة اليوميَّة، فأمر بأن تتضمَّن خِطبة الجُمعة الصَّلاة على الرسول مُحمَّد وعلى آله وعلى أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب وولداه الحسن والحُسين، وزوجته فاطمة الزهراء، وأن يُزاد في الآذان عِبارة «حيَّ على خيرِ العمل». وأنفذ أبو عبد الله الدَّاعي الرُسل إلى سلميَّة، يُخبرُ الإمام المستور (عُبيد الله المهدي) بما فُتح من المُدن والأقاليم، ويدعوه للحُضور إلى إفريقية. وفي الأساس، حدثت عدَّة تطوُّراتٍ سياسيَّةٍ خِلال تلك الفترة دفعت الإمام عُبيد الله المهدي إلى مُغادرة مركز الدعوة في سلميَّة5، فخرج في شهر رجب سنة 289هـ المُوافق فيه شهر حُزيران (يونيو) سنة 902م مُصطحبًا معه القائم وعددٌ من أتباعه، ويمَّم وجهه صوب المغرب. ولمَّا وصلت هذه الجماعة إلى سجلماسة أقامت في ضيافة واليها حينًا من الزمن قبل أن يُلقي القبض عليها بعد أن اكتشف أمرها. وفي يوم الخميس 15 رمضان سنة 296هـ المُوافق فيه 7 حُزيران (يونيو) سنة 909م، خرج الدَّاعي أبو عبد الله على رأس جيشٍ كبيرٍ لاستقدام عُبيد الله المهدي وتنصيبه على العرش، ففتح بطريقه تاهرت وقضى على الإمارة الرُستميَّة، ثُمَّ تابع زحفه ووصل إلى سجلماسة يوم السبت في 6 ذو الحجَّة المُوافق فيه 6 آب (أغسطس) من السنة سالِفة الذِكر. اشتبك الجيش الإسماعيلي مع قوَّات والي سجلماسة وأنزل بها هزيمةً فادحة، وفي اليوم التالي دخل الدَّاعي المدينة وأطلق سراح المهدي ورجاله. مكث عُبيد الله المهدي مُدَّة أربعين يومًا في سجلماسة، توجَّه بعدها إلى إيكجان وأقام فيها. ثُمَّ خرج من إيكجان إلى رقَّادة فوصلها يوم الخميس 20 ربيع الآخر سنة 297هـ المُوافق فيه 6 كانون الثاني (يناير) سنة 910م، واستقرَّ في قصر الصحن الذي كان الدَّاعي قد أقام به من قبل، وذُكر اسمه على المنابر يوم الجُمعة، وتلقَّب «بالمهدي أمير المؤمنين»، وأبطل ذِكر اسم الخليفة العبَّاسي في الخِطبة. وهكذا نجح الشيعة الإسماعيليّون في إقامة دولتهم في شمالي أفريقيا بأقسامها الثلاثة: طرابلس الغرب وإفريقية والزَّاب.

ملامح الدولة الفاطمية

كان للفاطميين أثر كبير في التاريخ الإسلامي بشكل العام والمصري بشكل خاص، حيث تقدمت العلوم والفنون في عهدهم وكانت القاهرة حاضرة زمانها يفدها الطلاب من أنحاء العالم للتزود بالعلم والمعرفة وبنيت بها دار الحكمة والأزهر وانتشرت الكتب وجعل المال من أجل الشعراء والأدباء، وارتبطت الكثير من العادات والتقاليد والطقوس بالدولة الفاطمية في مصر حيث مازال التاثير الفاطمي يظهر في مصر أثناء شهر رمضان والأعياد.

ويقول ول ديورانت في قصة الحضارة أن مصر بدأت نهضتها الحقيقة منذ العهد الفاطمي حيث بدأت الشخصية المصرية تستقل وتبدأ بالظهور من جديد بروح جديدة إسلامية.

بل إن بعض مؤرخي تاريخ المسرح العربي يرون ان بذور المسرح كانت بدأت في الظهور في العصر الفاطمي من خلال ما يسمى بالمهرج والحاوي اثناء الإحتفالات في العصر الفاطمي.

وتميز العصر الفاطمي بالفخامة في كل شيء والإهتمام بالأعياد والإحتفالات ونرى المقريزي يمعن في وصف الإحتفالات والمواكب الخاصة بالخلفاء. ومازل المصريون يتذكرون موكب حصان الخليفة المهيب الذي كان يخرج يوم المولد النبوي فيصنعون حلوى تشبه هذا الحصان.

وفي العصر الفاطمي يعود أقباط ويهود مصر في الظهور على مسرح الأحداث من جديد فإذا استثنينا السنوات الاخيرة من عهد الحاكم بأمر الله نجد أن باقي العهد الفاطمي كان عهد حريات للأقباط واليهود وبعضهم وصل إلى أرقى مناصب البلاط الفاطمي.

الأدب والعلوم في العصر الفاطمي

اهتم الفاطميون منذ أن استقر سلطانهم في مصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية، فضلاً عن الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية، كالفقه والتفسير، وكان للجامع الأزهر أثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية في مصر، وفاقت شهرته جميع المساجد الجامعة في مصر منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس سنة 378هـ على الخليفة العزيز بتحويله إلى معهد للدراسة بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية، فاستأذنه في أن يُعيّن بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر، فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء أرزاقاً شهرية ثابتة وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر، وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمي إلى أن بنى الحاكم بأمر الله جامعه، فانتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم.

العلماء والأدباء

وكان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتّاب أثره في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر، فاشتهر من المؤرخين في العصر الفاطمي، أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي (ت 388هـ) صاحب كتاب الديارات الذي اتصل بخدمة الخليفة العزيز فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه، كما نبغ من المؤرخين الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحي (ت420هـ) وكان من جلساء الحاكم بأمر الله وخاصته وشغف بكتابة التاريخ، وألّف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير «تاريخ مصر» ومن أعلام المؤرخين أبو عبد الله القضاعي (ت 454هـ) وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي، له كتاب «مناقب الإمام الشافعي وأخباره» أوفده الخليفة المستنصر بالله سفيراً إلى تيودورا إمبراطورة الدولة البيزنطية سنة 447هـ ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر. ومن الكتاب المؤرخين الذين ظهروا في أواخر العصر الفاطمي، أبو القاسم علي بن منجب الصيرفي (ت 542هـ) الذي اشتهر ذكره وعلا شأنه في البلاغة والشعر كما

برع في الخط، كذلك نبغ في العصر الفاطمي بعض العلماء من أمثال محمد بن الحسن بن الهيثم الذي أتى مصر من العراق بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية مهمة في توزيع مياه النيل، واشتهر من الأطباء والفلاسفة علي بن رضوان (ت 460هـ) الذي أصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء في البلاط الفاطمي.

الشعر

ولما كان يدرّه الخلفاء الفاطميون من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق على رجال الأدب، أكثر هؤلاء قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين ودفعت الرغبة في الحصول على هذه الجوائز والهبات الشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين في مدحهم للخلفاء.

من أشهر شعراء الشيعة محمد بن هانئ الأندلسي الذي ولد في إشبيلية ببلاد الأندلس حيث قضى أيام صباه، ثم اتصل بالخليفة الفاطمي المعز الفاطمي الذي بالغ في الإنعام عليه، فلما توجه المعز إلى مصر، تبعه ابن هانئ ثم رجع إلى المغرب لأخذ أولاده واللحاق بمولاه، وأعدّ العدة للرحيل وسار في طريقه إلى مصر، فلما بلغ برقة توفي سنة 362هـ فلما بلغت المعز وفاته وهو بمصر قال: «هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يقدّر لنا ذلك»، ولاشك في أن المعز أصاب فيما قاله، فالمتصفح لديوان ابن هانئ يرى أكثر شعره قد نظم في مدح المعز وأسرته، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبه إلى نفسه، وبالغ في مدحه للخليفة المعز حتى جعله في منزلة عيسى ومحمد، بل ونسب إليه بعض صفات الألوهية، كقوله فيه:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار

احكم فأنت الواحد القهّار

ومن أشهر الشعراء الفاطميين أبو حامد أحمد الأنطاكي، عاصر المعز والعزيز والحاكم بأمر الله وأشاد بذكر جوهر الصقلي ويعقوب بن كلس وغيرهما، ومن قوله يمدح يعقوب بن كلس:

لم يدعْ للعزيز في سائر الأر ض عدواً إلا وأخمد ناره

فلهذا اجتباه دون سواه واصطفاه لنفسه واختاره

ذو يدٍ شأنها الفرار من البخل وفي حومة الوغى كرّاره

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر وأفادوا من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم، أبو الحسن علي بن جعفر بن البُوَين، وهو من أهل معرّة النعمان صار ثقة الوزير الفضل بن بدر الجمالي الذي قربه وأدرّ عليه صلاته، وكذلك أمدّنا عماد الدين الأصفهاني (ت 597هـ) بمعلومات عن الشاعر أبي الحسن علي بن محمد الأخفش وهو من أشراف المغاربة، مدح الخليفتين الآمر (495-521هـ) والحافظ (521-544هـ). ولعل من أشهر الشعراء الذين عاشوا في العصر الفاطمي المتأخر عمارة اليمني السني الشافعي المذهب الذي أصبح من أنصار الفاطميين ومن مشاهير شعراء البلاط الفاطمي في عهد الخليفة الفائز (549-555هـ) والعاضد (555-567هـ) ولكنه أبى أن يعتنق عقائد الفاطميين وأشار إلى ذلك في ديوانه ببضعة أبيات خاطب بها الوزير ابن رزيك الذي ألح عليه في التحول إلى المذهب الشيعي ومنحه 3000 دينار، ووعد أن يزيد في إغداقه عليه إن هو أجابه إلى ما طلبه منه، ولكن عمارة اعتذر بلباقة وهو يشير إلى هذا الاختلاف في العقيدة في هذا البيت:

مذهبهم في الجود مَذهبُ سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع

ظل عمارة على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم ولكن تحيزه للفاطميين جلب عليه نقمة الأيوبيين، وانتهت حياته الحافلة بالصلب لأنه اتهم بالاشتراك بالتآمر لإعادة سلطان الفاطميين.

الفقهاء

وقد أدى مجيء الفاطميين إلى مصر بمذهب شيعي إلى ظهور فريقين من العلماء يعمل أولهما على تأييده، ويُفندُ الآخر آراءهم، واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية في تأليف الكتب وكان لابن حيون (ت 363هـ) النعمان بن محمد بن منصور أبي حنيفة التميمي وأبنائه، وهم جميعاً من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الكبير في نشر الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية، ويُعدُّ النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية، وله في الفقه الإسماعيلي مؤلفات عدة، منها «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام»، وكان دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب دعائم الإسلام في أحكامهم ونهج الوزير يعقوب بن كلس في كتابه «مصنف الوزير» منهج كتاب الدعائم، وأشاد بذكره حميد الدين الكرماني داعي الحاكم بأمر الله في فارس في كتابه «راحة العقل» حتى جعله في المرتبة التي تلي القرآن والحديث.

ومع أن الفاطميين كانوا متعصبين للمذهب الإسماعيلي ويشجعون فقهاءه فقد ظهر في عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنبلية، منهم أبو بكر محمد النعماني المالكي (ت 380هـ) وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها. وفي سنة 405هـ ولّى الحاكم بأمر الله أحمد بن محمد العوّام الفقيه الحنبلي منصب قاضي القضاة، فلما قيل للحاكم إنه ليس على مذهبك ولا على مذهب من سلف من آبائك أجابهم بأنه ثقة مأمون، مصري عارف بالقضاء وبأهل البلد وليس بين المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره، وأضيف إليه أحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمين ماعدا فلسطين، وجعل له النظر في العيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع، ولم يزل على وظيفة القضاء إلى أن مات سنة 418هـ فصلى عليه الخليفة الظاهر بن الحاكم، كما أن الباحث إذا تتبع أسماء قضاة دمشق وجد عدداً منهم لم يكونوا على مذهب الخلفاء الفاطميين، ففي

سنة 369هـ كان قاضي دمشق عبد الله بن أحمد بن راشد الفقيه الظاهري، وفي سنة 375هـ ناب القاضي أبو بكر يوسف بن القاسم الشافعي المحدث عن قاضي قضاة مصر أبي الحسن علي بن النعمان.

المكتبات في عصر الدولة الفاطمية

كانت المساجد مراكز ثقافية و عمل العزيز بالله علي تحويل الجامع الازهر الي جامعة يدرس فيها الفقه الشيعي إلى جانب فقه المذاهب الأخرى والعلوم من لغة وطب ورياضة ووفر الفاطميون للطلاب الوافدين من جميع اناء العالم الاسلامي المسكن والملبس وانشاوا بالازهر مكتبه ضخمه بها مخطوطات في جميع العلوم. اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافه الشيعية بصفه خاصة وألحقو بها مكتبات تحتوي الالوف من الكتب مثل مكتبة القصر الشرقي التي انشاها الخليفة المعز لدين الله. ويذكر المؤرخون أن الآلاف من الكتب تعرضت للحرق والنهب إبان انقضاء حكم الفاطميين على يد الأيوبيين، ومن الشواهد المتصلة أن ما يعرف في مصر الآن بتلال الكتب إنما هو في الأصل المكان الذي جمعت فيه كتب ومخطوطات الفاطميين فأُحرق معظمها وتُرك الباقي لتغطيه الرمال وتدفنه. يذكر المقريزي أن عبيد الايوبيين عندما سطوا على القصور الفاطمية ونهبوها كانوا ينزعون الجلود التي تغلّف المخطوطات ويتخذون منها نعالاً.

العمارة

الجامع الأزهر، من أشهر معالم القاهرة الإسلامية.

امتدت مرحلة العصر الفاطمي نحو مائتي عام، وسادت روح الترف في هذه الفترة في كل شئ. وفي خطط المقريزي ما يعكس صورة هذه الحياة بأبهى مظاهرها. وكان مذهب الحاكمين هو المذهب الشيعي، بينما كان أغلب الشعب يتبع مذهب أهل السنة.

وكل ما لدينا عن قصور الفاطميين إنما استقيناه من أقوال المؤرخين. وهي "في تونس" إلا فكـرة خيالية عن فخامتها، فكان لهم في القاهرة قصران متقابلان أحدهما الشرقي ولـه تـسعة أبـواب ويبلـغ طول واجهته 345 مترا.

وترتبط المساجد الفاطمية في القاهرة تارة بـابن طولـون في اسـتعمال الأكتـاف، وتـارة بـسيدي عقبة في استعمال المجاز المرتفع الذي يقطع رواق القبلة. وقد اقترن هذا العصر بعدة ظواهر معمارية منها اسـتخدام الحجـر المنحـوت لأول مـرة في واجهـات المـساجد بـدلا مـن الطـوب، ثـم تـزيين هـذه الواجهات بالزخارف المنوعة المحفورة على الحجر. بعد أن كنا نـشاهدها في جـامع عمـرو وجـامع ابـن طولون عارية من الزخارف. ومن أمثلة هذه الواجهات واجهة مسجد الحـاكم والأقمـر. حيـث نـرى في واجهة الأخير وردة بديعة محفورة ومفرغة تذكرنا بالتفوق الفني على نظيرها في طراز قرطبة.

وكانت القباب في ذلك العصر صغيرة وبسيطة. سواء من الداخل أم من الخارج. وظهر تضليعها أول مرة في قبة السيدة عاتكة ق 12م. وتطور أركان القبة نحو المقرنـصات المتعـددة الحطـات. حيـث بدأ بطاقة واحدة. كما في جامع الحاكم ثم بحطتين في قبة الشيخ يونس والجعفري وعاتكة.

أما الزخـارف المعماريـة فقـد بلغـت الغايـة في الجـمال سـواء أكانـت في الجـص أم في الكتابـة الكوفية المزهرة التي كانت تحتل الصدارة في المحاريـب وطـارات العقـود والنوافـذ. وكـذلك الزخـارف المحفورة في الخشب سواء في الأبواب أم المنابر أم المحاريب المنقولة أو في الروابط الخشبية التي تـربط العقود.

آثار الدولة الفاطمية

المغرب العربي

عني الفاطميون بالعمارة عناية فائقة، وقد ذكرنا أن عبيد الـلـه المهـدي أسـس مدينة المهدية بتونس وجعلها حاضرة لدولته الفاطمية، كما أنشأ مدينة أخرى سماها

المحمدية، وعوّل القائم بأمر الله على إنشاء مدينة كان يريد أن يسميها القائمية، لكن الحروب والثورات حالت دون ذلك، أما المنصور بالله فقد أسس مدينة المنصورية ونقل إليها الدولة والدواوين.

الفلك والمراصد الفلكية في مصر الفاطمية الإسلامية

شهدت مصر في عصر الحكم الفاطمي الإسلامي نهضة علمية كبيرة بداية ببناء أعرق جامعة عربية إسلامية (الأزهر الشريف) منذ ألف عام في قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، مروراً ببناء المراصد الفلكية كمرص الجيوشي فوق سطح جامع الجيوشي بجبل المقطم شرق القاهرة ومرصد المأمون بباب النصر حيث سميت هذه المراصد بأسماء الوزراء الذين شيدوها.

وفي 30 إبريل 1006م رصد الفلكي العربي المسلم علي بن رضوان ظاهرة حدوث أعظم سوبر نوفا (نجم متفجر) في مدينة الفسطاط (مصر القديمة) جنوب القاهرة حيث قام بتسجيل هذه الظاهرة بتفصيل عال وتحديد موقعها بدقة بالغة في كتابه المسمى (بالأرباع) والذي تُرجم إلى اللاتينية في العصور الوسطى حيث اعتبر كواحد من أهم المراجع الفلكية في أوروبا في ذلك الوقت، ثم تم رصد سوبر نوفا علي بن رضوان بالتلسكوب الفضائي هابل وبالأقمار الصناعية بأشعة إكس وجاما وبالمناظير الراديوية من على سطح الأرض ويعتبر أقوى وأعظم انفجار لنجم في تاريخ البشرية.

كذلك قام ابن يونس المصري بأخذ أرصاد دقيقة للشمس والقمر والكواكب بمرصده فوق المقطم وعليه فقد قام بوضع "الزيج الحاكمي" نسبة إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي في ذلك الوقت وكان هذا الزيج يعتبر أكثر دقة من نظيرتها البطلمية بمدرسة الإسكندرية. كما عمل ابن يونس في علم اللوغريتمات وأبدع فيه. وعمل الحسن بن الهيثم كراصد وعالم فلك في أثناء إقامته بمصر بجانب عمله في مجال البصريات حيث يعتبره الكثيرون من مؤرخي تاريخ العلوم أنه المؤسس الحقيقي لعلم

البصريات الحديث... وكان لعدم وفاء النيل في عهد المستنصر بالله حدوث مجاعة كبيرة في مصر عرفت في كتب التاريخ بالشدة المستنصرية.. وكانت هي بداية النهاية للحكم الفاطمي في مصر وما حولها.

لا مراء في أن أثر العرب في النضهة الأوربية واضح لا يجحده إلا مكابر، فقد كانت للعرب عقيدة وفلسفة، وكان لهم نظام حكم، أشاع روح العدل والإنصاف والتسامح، فتعايش الناس ذوي العقائد المختلفة والأجناس المتباينة متجاورين، يودهم الأمن والسلام. فتجاور المسجد والكنيسة والمعبد في كل قطر، بل في كل مدينة، وظل هذا التقليد زماناً طويلاً، حتى بعد انحسار حكمهم عن البلاد التي فتحوها، وما ذلك إلا لأنهم أوجدوا البيئة التي تسمح بنمو روح الإخاء والتسامح، فقد ربوا النفوس التي تؤمن بهذا التعايش والامتزاج، ووجدت مساجد إسلامية، يدرس فيها الرهبان واليهود جنباً إلى جنب، وبعد أن أغلقت أوروبا في العصور الوسطى أكاديمية أفلاطون في أثينا سنة 529هـ وقد قامت مساجد أسبانيا وجامعات فرنسا وصقلية بفضل العرب وعلمهم، بحمل مشعل الابتكار في العلم والفن والفلسفة، وظل العرب قروناً متطاولة، يحملون رسالة العلماء والخبراء والصناع على أرض جنوب فرنسا وأسبانيا وجنوب إيطاليا وصقلية. فقد كان للعرب أسلوب تجريبي، الأمر الذي كان يحرمه رجال الكنيسة، ويدعو إلى الدقة العلمية في إجراء التجارب، وعدم التسرع في الاستنتاج، إلى جانب ملكة التصنيف والتبويب والتفسير.

تقول الدكتورة سيجريد هونكه في مقدمة كتابها شمس الله تشرق على الغرب ـ فضل العرب على أوروبا (أنها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوروبيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل، وأن هذه النهضة فاقت كثيراً ما تركه اليونان أو الرومان ولا يقررون هذا. إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم علماً وفناً وأوربا وأدباً وحضارة، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا لواء المدنية أينما ذهبوا في أقاصي البلاد

ودانيها سواء في آسيا وإفريقيا أو أوروبا، ثم تنكر أوروبا على العرب الاعتراف بهذا الفضل).

وعلى سبيل المثال فإن ابـن رشـد (1126 ـ 1198م) أعظـم وآخـر فلاسـفة العـرب، لقـد قـال بأفكاره لكي يكتب لها الدوام والخلود، إنها أفكار عقلانية تنويرية في أساسها وفي أهـدافها، وعـار علينـا نحن أبناء الأمة العربية إذا نحت أهملنا فكر هذا الفيلسوف العملاق، عميد الفلسفة والتنوير في أمتنا العربية من مشرقها إلى مغربها.. وإذا كان هذا الفيلسوف الذي اهتمت به أوروبـا التـي تقـدمت عـن طريق أفكاره إلى الأمام، وأهمله أبناء أمتنا العربيـة التـي رجعـت إلى الـوراء لأنهـا ظلـت محـصورة في الفكر التقليدي، وفكر الغزالي عدو الفلسفة والتفلسف، وأراء ابن التيمية، فإذا الوقت قد حان لدراسة أراء هرم ثقافتنا العربية في الماضي، وهو ابن رشد الفيلسوف والعالم المفكر العربي الأندلسي.

قام العلماء العرب برصدات فلكية على أعظم جانب من الأهمية، درسوا مجسطس بطليموس، عملوا أرصادا وأزياجا، وقالوا بالدوران الظاهري للشمس والنجوم حول الأرض، وأن القمر أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض، وقاسوا مواقع أجـرام الـشمس والقمـر والكواكـب، ورصـدوا الأعتـداليين، وقاسـوا محيط الأرض، ورسموا صور الكوكبات. وأنشأوا المراصد وربطوا بين القمر والمد والجـزر، ونـسبوا زرقـة السماء إلى انعكاسات الضوء على ذرات الغبـار العـالق بـالجو، ويعـزى لبنـي مـوسى القـول بالجاذبيـة العمومية بين الأجرام السماوية مما يربطها بعضها ببعض. وأن الجاذبيـة الأرضـية عقـل الأجـسام تقـع على الأرض، ويعد سارتون كتاب الصوفي في الكواكـب الثابتـة أحـد الكتـب الرئيـسية التـي اشـتهرت في الفلك عند المسلمين.

وقد وضع عبد الرحمن الصوفي مؤلف عن النجوم الثوابت بـه خـرائط مـصورة جمع فيها أكثر من ألف نجـم، ورسـمها كوكبـات في صـورة الأنـاسى والحيـوان، ولازال

أسماء بعضها مستعملاً حتى الوقت الحاضر مثل الدب الأكبر، والدب الأصفر، والحوت، والعقرب.

وكان هناك من المفكرين العرب من لم يكونوا من المؤمنين بالتنجيم، كالكندي والفارابي وابن سينا، فيذهب ابن سينا إلى أن قول المنجمين بأثر الكواكب على الناس من خير وشر، إنما هو قول هراء، وقد أخذوه تقليداً من غير برهان ولا قياس.

ويقول ابن طفيل بوحدة القوانين والأنظمة الكونية، وشمولها فيما يسيطر على النبات والماء والهواء والجماد، يسيطر على الحيوان والإنسان، وعلى سائر الموجودات، وإن العالم بجملته كشئ واحد، يتحرك في دائرة من القوانين والأنظمة.

والخلاصة إن العلماء العرب، كانوا يرون في الفلك علماً رياضياً مبنياً على الرصد والحساب، وعلى فروض تفرض لتعليم ما يرى من الحركات والظواهر الفلكية، وكان أساس تقدم علم الفلك عند العرب ما أقاموه من مراصد، وما ابتكروه من أجهزة وآلات وأدوات، وما قدموه من أزياج وجداول فلكية.

وقد قسم المستشرقون تاريخ العلوم العربية على النحو التالي :

أ ـ المرحلة الأولى : 750م.

ب ـ مرحلة النقل : 750 ـ 900م.

جـ ـ العصر الذهبي : 900 ـ 1200م.

د ـ عصر الانحطاط : 1200م وما بعدها.

وقد أوحى هذا التقسيم المعروف بأن العرب، بحلول العصر الذهبي 900ـ 1200م تقريباً، أخذوا يعتمدون مصادرهم ومنابع علومهم الخاصة ويتقدمون بأنفسهم، والواقع أنهم كانوا يعتمدون مصادرهم منذ كانوا يترجمون، لأنهم ما كانوا يترجمون من أجل الترجمة إنما كانوا يترجمون وفقاً للمقتضيات البحثية الأصلية.

وتقع فترة الحكم الفاطمي لمصر (969ـ1171م). (358 ـ 567هـ) في مرحلة العصر الذهبي لتاريخ العلوم العربية.

وسنتناول في هذا البحث أعمال ثلاثة من أعظم الفلكيين العرب خلال الحكم الفاطمي وهم (ابن يونس المصري ـ حسن بن الهيثم ـ علي بن رضوان) حسب الترتيب الزمني لهم. كذلك سنتناول المراصد الفلكية الثلاث التي أقامها الفاطميون في القاهرة (مرصد مسجد فيله ـ مرصد مسجد الجيوشي ـ مرصد الوزير المأمون بباب النصر).

الوزارة

مسجد زاوية الجيوشي أو الجامع الجيوشي على متن جبل المُقطَّم بالقاهرة. بناه الوزير بدرُ الدين الجماليّ عندما تولّى شؤون الوزارة بمصر.[120]

كانت الوزارة في العهد الفاطميّ الأوَّل وزارة تنفيذ لأنَّ السُلطات كُلَّها كانت بيد الخليفة. ولم يكن الوُزراء إلَّا مُعاونين للخليفة يُنفذون سياسته وأوامره. أمَّا في العهد الفاطميّ المُتأخر، فقد زاد نُفوذُ الوُزراء وأصبحت لهم كلمةٌ في تسيير الأمور واتخاذ القرارات. ولعلَّ أهم ما يُمَيز منصب الوزارة في العصر الفاطميّ هو أن الكثير من وزراء الفاطميين كانوا من النصارى واليهود، مثل : عيسى بن نسطورس، ويعقوب بن كلس، وعسلوج بن الحسن. وخِلال النصف الثاني من العصر الفاطميّ تغلَّب الوُزراء وسيطروا على شؤون الدولة كُلَّها، وسلبوا الخُلفاء كُلَّ سُلطانٍ ونُفوذٍ، حتَّى أطلق البعض على هذا العصر اسم «عصر الوزراء العظام».وبلغ من نُفوذ الوزراء في ذلك العصر أن غلب سُلطانهم على سُلطان الخُلفاء بشكلٍ عام، وزاد نُفوذ الوُزراء حتَّى أنَّهم كانوا يُعينون بعض الخُلفاء ويعزلونهم، بل ويتآمرون عليهم، كما إتخذوا ألقابًا كلقب «الملك» وألقاباً أُخرى تفيد مزيدًا من التفضيل مثل «الأكمل» و«الأفضل» و«الأشرف»، وأصبحت الوزارة أهم وظائف الدولة وأكبرها، حيثُ تضاءلت إلى جانبها وظيفة الخليفة. وأوَّل هؤلاء الوُزراء كان بدرُ الدين الجمالي،

الذي جمع بين إمارة الجيش والوزارة، وكان الآمر الناهي في الدولة ما عدا في الشؤون الدينيَّة.

القضاء في الحكم الفاطمي

أدى تأسيس الدولـة الفاطميَّـة إلى ظهـور خلافـةٍ جديـدة في العـالم الإسـلامي، تتبـع المـذهب الشيعيّ عوضًا عن المذهب السنُّي الذي كانت تتبعه الدولة العباسية، وبالتالي فقد ظهر منصب قـاضي قضاةٍ جديدٍ بين المسلمين يوازي قاضي بغداد، إلا أنَّه يتبع المذهب الإسماعيلي ويستند إليه في أحكامـه عوضًا عن الحنفيّ. وكان يستقرُّ قاضي القضاة عادةً في الجامع الأزهر الذي بناه الفاطميُّون بعد فتحهم لمصر مباشرة. كان أول قاضي قضاةٍ فاطمي هو الـنعمان بـن محمَّـد الـذي عيَّنـه الخليفـة المعـز لـدين الـلـه، وقد كان أول من يؤسِّس نظامًا قضائيًّا بالدولة الفاطمية. عندما كانت لدى المواطنين مظالم على أمرٍ ما، فإنَّهم كانوا يتجهون إلى حاجب الخليفة، فينظر الحاجـب في المظـالم، فـإذا كانـت صـغيرةً فإنَّـه يحولها إلى قضاة أو ولاة الدولة، أما إن كانت غير ذلك فإنَّه يجمعها ويعرضها على الخليفة. أما الأحكام الشرعيَّة فإنها تؤول إلى قاضي القضاة ليحكم فيها، والذي كان يمثِّل أعلى سلطةٍ قضائيَّة في الدولـة. كـما كان يوجد منصبٌ يلي قاضي القضاة مباشرة في أهميَّته وقوته، هو داعي الدُّعاة.[126] انـدثر المـذهب الإسماعيليُّ في مصر مع زوال الدولة الفاطمية، وزال معه منصب قاضي القضاة بمـصر وسـائر المؤسَّـسة القضائية الفاطمية.

النظام العسكري

كان الدَّاعي أبو عبد الـلـه الـشيعي أوَّل مـن نظَّـم الإسـماعيليَّة تنظـيمًا عـسكريًّا دقيقًا ضمن قيادةٍ مُوحَّدةٍ، إذ كان الإسماعيليّون من كتامة وغيرهم مُتنـاثرين مُتباعـدين مكانيًّا، يقومُ على إدارتهم مجموعةٌ من المُتنفذين، ممَّا جعلهم غير قـادرين عـلى التحـرُّك الفعَّال ضدَّ القوى المحليَّة، فأخرج أبو عبد الـلـه الـشيعي هـذا التـشتُت ليُـشكِّلَ وحـدةً

عسكريَّةً ذات قيادة مُوحدة، وانطلق بهم من فج الأخيار قوَّة مُوحَّدة فعَّالة.[128] أقام أبو عبد الله الشيعي مراكز تدريبٍ عسكريَّةٍ بعد التنظيم الذي أحدثهُ في فرز قياداتٍ تدريبيَّةٍ وتسليحٍ قويٍّ، مُستمدًّا ذلك من أموال الزكاة وتلك المفروضة على المُنتمين للدعوة، وهكذا بدت القوَّة العسكريَّة المُعدَّة ذات فاعليَّة أرعبت الحُكَّام المُجاورين.[128]

شكلت كتامة العنصر الأساسي في الجيش الفاطمي في مرحلة قيام الدولة، ثم انضمت إليه عناصر من عرب إفريقية وزويلة والمصامدة والبرقية، وهي العناصر التي دخل بها جوهر الصقلي مصر بالإضافة إلى بعض الروم والصقالبة. وفي عهد العزيز بالله، أدخل العزيز الترك والديلم في جيشه، وأكثر من الاعتماد عليهم. وزاد عليهم الحاكم بأمر الله طائفة من العبيد وبالأخص السود،ثم تضاعف عدد هؤلاء العبيد حتى بلغ عددهم 50,000 في عهد المستنصر بالله. ومع تولّي بدر الدين الجمالي الوزارة، أدخل الأرمن في خدمة الجيش الفاطمي. وقد بلغ قوام الجيش الفاطمي في آخر أيام الدولة 40,000 فارس، و 36,000 رجل وعشرة سفن محملة بعشرة آلاف مقاتل. وقد انقسم الجيش الفاطمي إلى ثلاث طبقات. الأمراء وهم قادة الألوف والمئات والعشرات، فخواص الخليفة وحرسه الخاص، ثم الجنود.

أما الأسطول، فبدأ الفاطميون الاهتمام به منذ بداية دولتهم، فأسسوا دار للصناعة في المهدية للسيطرة على غرب حوض المتوسط. وبعد أن انتقلوا إلى مصر، ابتنوا دارين أخريين في القاهرة، وثالثة في دمياط ورابعة في الإسكندرية، كانوا يصنعون فيهم المراكب الحربية من مختلف الأحجام تولت تلك السفن حماية الثغور الفاطمية في البحرين المتوسط والأحمر، وكانت تتمركز في قواعد رئيسية في الإسكندرية ودمياط وعيذاب.

وكان يتولى إدارة الجيش والأسطول ديوان عُرف بديوان الجيش يتولى حصر الجند من حيث الأحياء والأموات والمرض، بالإضافة إلى تنظيم الرواتب وتوزيعها.

العلاقات مع دُول الجوار

مع الدولة الحمدانيَّة

كان الحمدانيّون، وهُم سُلالة عربيّة شيعيَّة اثنا عشريَّة،يحكُمون الجزيرة الفُراتيَّة وشمال الشَّام بحُلول زمن الفتح الفاطمي لِمصر، واتخذوا من حلب عاصمةً لهم. ولمَّا سقطت الدولة الإخشيديَّة بمصر وبسط الفاطميّون حُكمهم على القسم الجنوبي من الشَّام بما فيه فلسطين ودمشق ولُبنان، توجَّس الحمدانيّون خوفًا من التمدد الفاطميّ شمالًا، رُغم أنَّ أُمراء بني حمدان كانوا يُقيمون الخِطبة للخليفة الفاطميّ في حِمص وحلب، ويرفعون الأذان «بحيَّ على خير العمل مُحمَّد وعليّ خيرُ البشر»، إلَّا أنَّهم عارضوا الوُجود الفاطميّ في بلادهم، لذلك كثيرًا ما ساعدوا القرامطة في حربهم ضدَّ الفاطميين، كما ساعدوا أفتكين التُركي، أحد موالي مُعزّ الدولة أحمد بن بويه، الذي حالف الخُلفاء العبَّاسيين لاحقًا، في حربه ضدَّ الفاطميين، لمَّا تغلَّب عليهم وبسط نُفوذه على الشَّام سنة 364هـ المُوافقة لِسنة 975م. ولمَّا حاول الفاطميّون مدَّ حُكمهم إلى شمال الشَّام، وقف أميرُ حلب «سعدُ الدولة أبو المعالي شريف الحمداني» في وجههم، فلم يخسر سوى حِمص التي انضمَّ واليها الحمداني إلى الفاطميين. ولمَّا توفي سعد الدولة، خلفه ابنه «أبو الفضائل سعيد الدولة»، فرأى الفاطميّون أنَّ الوقت قد حان لضمٍّ بقيَّة الدولة الحمدانيَّة إلى دولتهم، فأرسلوا جيشًا كبيرًا لتحقيق هدفهم. فلم يكن من سعيد الدولة إلَّا أن استنجد بالبيزنطيين الذين كانوا يُعاملونه على أساس مُعاهدة صُلح عُقدت بينهما. وقد لبّى قيصر الروم الإمبراطور يوحنَّا الأوَّل زمسكيس، الشهير «بابن الشمشقيق» طلبه وأرسل إليه نجدة كبيرة، مُغتنمًا الفُرصة أيضًا ليُحقق سياسة سلفه الإمبراطور نقفور الثاني فوقاس القاضية باسترجاع الأراضي المُقدَّسة من أيدي المُسلمين.[141] وقد بقيت حلب عصيَّةً على الفاطميين حتّى توفي سعيد الدولة يوم 15 صَفَر 392هـ المُوافق فيه 3 كانون الثاني (يناير) 1002م، فخلفهُ مولاه لؤلؤ الخادم السيفي، ولمَّا توفي هذا الأخير في آخر ذي الحجَّة

سنة 399هـ المُوافق فيه 27 تمّوز (يوليو) 1009م، اعترف ابنه وخليفته منصور بسُلطان الخليفة الفاطميّ، فأقام الدَّعوة له في حلب. وفي وقتٍ لاحق، عيَّن الحاكم بأمر الله عزيز الدولة فاتك أميرًا على حلب، ولقَّبهُ بأمير الأُمراء، ليكون بذلك أوَّل حاكمٍ فاطميٍّ على المدينة. لكنَّ الأخير سُرعان ما أخذ يسيرُ بإمارته نحو الاستقلال، وما لبث أن خرج عن طاعة الحاكم بأمر الله سنة 409هـ المُوافقة لِسنة 1018م، واستقلَّ بحُكم حلب وضرب النُقود باسمه ودعا لنفسهِ على المنابر. ولم يتمكَّن الحاكم بأمر الله من التفرُّغ لحلب بفعل ثورة الأهالي عليه في مصر والشَّام، غير أنَّه أمر بإعداد الجُيوش إلى المدينة، لكن حصل اختفائه بعد ذلك بوقتٍ قصير، فلم تُسيَّر العساكر الفاطميَّة إلى الشَّام. وبعد مقتل عزيز الدولة فاتك، استعاد الفاطميّون مدينة حلب وأخضعوها لحُكمهم طيلة ثماني سنوات، إلى أن سقطت بيد المرداسيين يوم السبت في 13 ذي القعدة 415هـ المُوافق فيه 18 كانون الثاني (يناير) 1025م. وبقيت حلب طيلة فترةٍ من الزمن تتأرجح بين الحُكم الفاطمي وحُكم أُمراء محليين إلى أن سقطت بيد السلاجقة في نهاية المطاف.

مع الدولة الأُمويَّة الأندلسيَّة

في إطار سياسة الفاطميين التوسعية، حرص الفاطميُّون على إرسال بعض عيونهم للتمهيد لدعوتهم ونشر المذهب الإسماعيلي في الأندلس كأبي جعفر أحمد بن محمد بن هٰرون البغدادي الذي دخل الأندلس واعظًا وداعيًا، والذي زعم المؤرخ ابن الفرضي أنه دخل الأندلس متجسسًا. غير أن ترسّخ المذهب المالكي بين أهل الأندلس، ومحاربة الدولة للمذهب الشيعي حال دون انتشار هذا المذهب. استفاد الفاطميون أيضًا من مشاهدات الرحالة ابن حوقل الذي وصف وضع الأندلس السياسي والاقتصادي والعسكري خلال رحلته، في تحديد الوضع الداخلي للأندلس في تلك الفترة.

كما لجأ الفاطميون إلى أساليب أخرى لزعزعة الداخل الأندلسي، عن طريق مُساندة الثائرين على سلطة الأمويين في الأندلس ودعمهم ماديًا كعمر بن حفصون الذي نجح الأمير عبد الرحمٰن بن محمد في ضبط عدد من السفن المحملة بالمؤن التي أمدّ الفاطميُّون بها ابن حفصون، وأحرقها.

جاءت ردة الفعل الأموية لهذه المحاولات الفاطمية للتدخل في الشأن الداخلي الأندلسي، بأن أعلن الأمير عبد الرحمٰن بن محمد الخلافة الأموية في الأندلس سنة 316هـ[149] ليُثبت أن دولته ليست أقل من الخلافة العبَّاسيَّة أو الخلافة الفاطميَّة،[150] ومساندة دول قبائل بني يفرن ومغراوة الزناتيَّة في المغرب الأقصى ماديًّا وعسكريًّا لمُجابهة قبائل صنهاجة وكتامة البرنسيتين الموالين للفاطميين، ولتقف كحاجز أمام التوسع الفاطمي غربًا، بالإضافة إلى الاستيلاء على مرفأ مليلة سنة 314هـ وسبتة سنة 319هـ ثم طنجة وهي الموانيء المُقابلة لأرض الأندلس، لتكون خط دفاع أوّليٍّ أمام أيِّ مُحاولة عبورٍ للفاطميين. ومن ناحيةٍ أُخرى، تحالف عبد الرحمٰن مع بعض أُمراء البربر ومنهم موسى بن أبي العافية أمير مكناسة، وأمدّهم بالمال والسلاح، في معاركهم أمام هجمات الفاطميين. كما كان لدخول الأدارسة حُلفاء الفاطميين في طاعة الخليفة عبد الرحمٰن الناصر لدين الله سنة 332هـ ضربة قاصمة لأطماع الفاطميين في الاستيلاء على تلك المنطقة

لم تتوقف محاولات الفاطميين عند هذا الحدّ ففي سنة 344هـ هاجمت بعض سُفن الفاطميين شواطئ ألمرية، وردّ الأسطول الأندلسي على ذلك بالإغارة على شواطئ إفريقية. وفي سنة 347هـ هاجم الأسطول الأندلسي مجددًا شواطئ إفريقية، فردّ الفاطميّون الهُجوم بتسيير جيشٍ ضخمٍ بقيادة جوهر الصقلي مدعومًا من قبائل صنهاجة، زحف به جوهر إلى المغرب، فبلغ بجيشه المحيط، إلا أن هذا الجيش عاد أدراجه دون الاحتفاظ بما اكتسبه من أراضٍ. وفي سنة 373هـ أمر الخليفة الفاطمي أبو منصور نزار العزيز بالله نائبه بلقين بن زيري بدعم الحسن بن كنون زعيم

الأدارسة لاستعادة ما فقده من أراضٍ على أيدي الأمويين وحلفائهم من زناتة، فسيّر له الحاجب المنصور جيشًا كثيفًا، انهار أمامه جيش ابن كنون سنة 375هـ الذي استسلم لهذا الجيش، إلا أنَّ المنصور أمر قائد جيشه بقتل ابن كنون، وطرد الأدارسة من المغرب.

وفي سنة 387هـ دعّم الحاجب المنصور حملة زيري بن عطية المغراوي للتوسّع شرقًا في أراضي قبائل صنهاجة الموالية للفاطميين باسم الخليفة هشام المؤيد بالله.

إلَّا أنَّه مع انتقال عاصمة الفاطميين إلى مصر في أواخر القرن الرابع الهجري، خفَّت حدة الاهتمام الفاطمي في التوسع غربًا على حساب دولة الأمويين في الأندلس وحلفائهم.

مع الدولة العبَّاسيَّة

شهدت العلاقة بين الدولتين الفاطمية والعبَّاسيَّة تباينًا واضحًا. اعتمدت قوة وضعف تلك العلاقة بين البلدين على مدى قوة تأثير البويهيين وسيطرتهم على الخلافة العبَّاسيَّة. ففي بداية عصر الدولة الفاطميَّة، كان البويهيون في أوج قوتهم وتحكّمهم في دولة الخلافة العبَّاسيَّة. وكان انتماء البويهيين للمذهب الشيعي الزيدي سببًا في التقارب بين الفاطميين والبويهيين، حيث سمح البويهيون لدُعاة الفاطميين بنشر عقائد الإسماعيليَّة في أماكن نفوذهم،بل واتجه تفكير معز الدولة البويهي لاستبدال الخلافة العبَّاسيَّة بالفاطميَّة، غير أنه تراجع عن تلك الفكرة خشية غدر الفاطميين به متى تمكنوا من الأمر.

غير أنه ومع ضعف دولة بني بويه، وتمكّن الخُلفاء العباسيُّون من التدخل في السياسة مُجددًا، ساءت العلاقات بين الفاطميين والعبَّاسيين. ففي سنة 382هـ أوقف الخليفة العبَّاسي القادر بالله النواح والبكاء في بغداد في يوم عاشوراء ومن تعليق المسوح. وفي سنة 398هـ قمع القادر بالله تمردًا مسلحًا للشيعة في بغداد دعوا فيه لخلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي.[163] وفي سنة 401هـ خلع حاكم الموصل

طاعة الخليفة العباسي، ودعا للفاطميين، فأرسل القادر بالله جيشًا نجح في إعادة الموصل إلى طاعة العبَّاسيين. كما أصدر القادر بالله سنة 402هـ مرسومًا يطعن في نسب الفاطميين، ويحمل توقيع كبار الفقهاء ونقيبي الطالبيين الأشراف الشريف الرضي والشريف المرتضى.[165] ظل ذلك العداء مستدامًا حتى نهاية دولة بني بويه بدخول طُغرل بك السُلجوقي بغداد سنة 447هـ.

مع الدولة القُرمطيَّة:

رسمٌ قديمٌ لمكَّة. هاجمها القرامطة وفتكوا بالحُجَّاج الوافدين إليها وانتزعوا من الكعبة الحجر الأسود، مما أثار غضب الفاطميين عليهم.

القرامطة طائفةٌ سياسيَّةٌ - دينيَّةٌ عُرفت بذلك نسبةً إلى أحد دُعاتها: حمدان بن الأشعث المُلقَّب «بقُرمط»7. كانت العلاقة بين القرامطة والفاطميين علاقةً وثيقةً بادئ الأمر، لكنَّها انقلبت وأصبحت دمويَّةً لاحقًا، وقد نشبت بين الطرفين عدَّة مواجهات مُسلَّحة لأسبابٍ مذهبيَّةٍ وسياسيَّة، نظرًا لأنَّ القرامطة انشقوا عن الحركة الإسماعيليَّة الأُم واعتقدوا بعودة الإمام مُحمَّد بن إسماعيل بصورة المهدي المُنتظر، وظنّوا بأنَّ الإمام عُبيد الله المهدي خدعهم، فأوقفوا الدعوة له، وعارضوه في مسألة العِصمة، إذ لم تكن عِصمة الأئمَّة معروفة لأحد عند القرامطة. وكان القرامطة يُبيحون سفك دماء خُصومهم، فأثاروا الرُعب والإرهاب في البصرة والأحواز خلال ثورة الزُنج، وفي سنة 286هـ المُوافقة لِسنة 899م تمكَّن القرامطة برئاسة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنَّابي من تأسيس دولةً مُستقلَّةً في البحرين. وأخد أبو سعيد يعمل بشكلٍ شبه مُستقل عن الإمام عُبيد الله المهدي مُستوحيًا مصلحتهُ الخاصَّة، وكان ذلك يتعارض مع سياسة الفاطميين وزعامتهم. والرَّاجح أنَّ أبا سعيد لم يكن راضيًا عن زعامة عُبيد الله المهدي للحركة الإسماعيليَّة وإن كان قد اعترف بسُلطته بوصفه الرئيس الأعلى للطائفة. وشعر عُبيد الله بهذا الفُتور من جانب أبي سعيد، فشكَّ في إخلاصه له، وعمل على التخلُّص منه، كما حاول في الوقت نفسه إلغاء مبدأ الوراثة في الحُكم بين

القرامطة كما أرادها زُعماؤهم، تجنُبًا لاستبداد هؤلاء بالأُمور دون الفاطميين. وفي سنة 301هـ المُوافقة لِسنة 914م، اغتيل أبو سعيد في الأحساء، ووُجِّهت أصابع الاتهام إلى الفاطميين نظرًا لأنَّ القاتل كان خادمًا صقلبيًّا، والغلمان الصقالبة كانوا غير مُنتشرين في المشرق، بل في المغرب والأندلس، على أنَّهُ يُحتمل أيضًا أن يكون المُحرِّض هو الخليفة العبَّاسي.

وأشار بعضُ المُؤرخين أنَّ القرامطة حافظوا، رُغم كُلِّ شيءٍ على علاقةٍ شبه طبيعيَّة مع الفاطميين نظرًا لأنَّ الهدف الأسمى لكُلٍّ منهما يبقى الإطاحة بالعبَّاسيين، وقد توافقت مصالحهما من هذه الناحية، فقيل أنَّ اتفاقًا سريًّا عُقد بين زعيم القرامطة أبو طاهر سُليمان والإمام عُبيد الله المهدي، بأن يُهاجم الأوَّل البصرة ليصرف نظر العبَّاسيين عن الحملات الفاطميَّة على مصر، ويُثير إرباكُهم ويشغُلهم عمَّا يجري في المغرب. لكنَّ أبا طاهر بالغ في حملاته العسكريَّة، وأثبت أنَّهُ كان يعمل لمصلحته الخاصَّة من دون التنسيق مع الفاطميين عندما أغار في شهر ذي الحجَّة سنة 317هـ المُوافق فيه شهر كانون الثاني (يناير) سنة 930م، على مكَّة، فعبث بالحجَّاج وقتلهم في المسجد الحرام، ونهب أموالهم، واقتلع الحجر الأسود من الكعبة وحملهُ إلى هجر بالأحساء. فأثار ذلك العمل الخليفة الفاطميّ الذي كتب إلى زعيم القرامطة مُستنكرًا ومُحذرًا، وأمرهُ بردِّ الحجر الأسود فورًا وإعادة كسوة الكعبة ورد الأموال التي أخذها من الحُجَّاج،فلم تلقى رسالتهُ آذانًا صاغية. وفي سنة 332هـ المُوافقة لِسنة 944م، شهدت الحركة القُرمطيَّة انقسامًا حادًّا، فنادى قسمٌ من القرامطة بإمامة الخليفة الفاطميّ، بينما نادى قسمٌ آخرٌ بالتقارب مع العبَّاسيين، وبالتحديد مع بني بويه المُسيطرين على مُقتدرات الخلافة العبَّاسيَّة. فانتصرت النزعة المُناهضة للفاطميين وسادت، ودخل القرامطة في نزاعٍ سافرٍ معهم، رُغم أنَّهم أعادوا الحجر الأسود إلى مكَّة سنة 339هـ المُوافقة لِسنة 951م. وفي أيَّام العزيز بالله تفاقم خطر القرامطة بالشَّام، وكان قد استعصى أمرهما على أبيه المُعز لدين الله من قبل، ولم يكد العزيز

يوطد سُلطته في مصر حتى وجّه عنايته لاسترداد الشَّام وفلسطين بعد سيطرة القرامطة عليهما، فوجّه جوهرًا الصقليّ إلى القرامطة، لكنّه هزُم ولم يستطع استرداد الشَّام وفلسطين، ثم أشار جوهر على العزيز بحرب القرامطة بنفسه، فالتقى بجيوشهما في الرملة فهزمهم وذلك في مُحرَّم سنة 368هـ وأراح الدولة من شُرورهم.

مع الدولة السُلجوقيَّة:

بعد أن أسقط السلاجقة السنيون دولة بني بويه الشيعية، سادت حالة من الاستياء في مصر الفاطمية، واتجهت سياسة الفاطميين لدعم ثورة أبي الحارث أرسلان البساسيري ماديًا، فتمكن من هزيمة جيش العباسيين في سنجار عام 449 هـ ثم دخل بغداد عام 450 هـ مستغلاً خروج طغرل بك إلى الموصل لإنهاء تمرد أخيه إبراهيم ينال. حينئذ، أجبر البساسيري الخليفة العباسي القائم بأمر الله على كتابة عهد يقر بأحقية الفاطميين في الخلافة دون العباسيين، وخُطب للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في بغداد. لم يطل الأمر كثيراً، فبمجرد عودة طغرل بك من قتال أخيه، حتى هزم البساسيري وقتله وأعاد للخليفة العباسي مكانته.

وفي عام 463 هـ قرر السلطان ألب أرسلان غزو حلب، فرأى أميرها الشيعي محمود بن مرداس الموالي للفاطميين خلع طاعة الفاطميين، وأقام الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان. غير أن ألب أرسلان أصر على أن يكون الأذان على مذهب أهل السنة، فامتنع ابن مرداس عن ذلك، فضرب ألب أرسلان الحصار على حلب، إلى أن يأس ابن مرداس وسلّم لألب أرسلان، ليخسر بذلك الفاطميون ظهيراً شيعيًا حال بينهم وبين السلاجقة.

وفي العام نفسه، استطاع أتسز بن أوق الخوارزمي ضم الرملة وبيت المقدس من أيدي الفاطميين، بينما صمدت دمشق أمام حصار السلاجقة.

وفي عام 468 هـ استطاع أتسز الخوارزمي دخول دمشق، وعيّن السلطان ملكشاه أخاه تتش حاكمًا عليها لتتأسس دولة سلاجقة الشام، وتدخل المواجهة المباشرة مع الفاطميين.

وفي عام 491 هـ نجح الأفضل شاهنشاه في استعادة بيت المقدس إلى مُلك الفاطميين، غير أن لم يدم طويلاً، ففي العام التالي سقطت المدينة في أيدي الصليبيين لتنتقل المواجهة المباشرة مع الفاطميين هذه المرة إلى عدوهم الجديد الصليبيين.

مع الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة:

البعثة الدبلوماسيَّة البلغاريَّة من الإمبراطور شمعون الأوَّل، إلى الخليفة الفاطميّ عُبيد الله المهدي، والتي كانت تهدف إلى توحيد الجُهود في مواجهة الروم البيزنطيين.

دخلت العلاقات البيزنطيَّة - الفاطميَّة مرحلة التأزُّم مُنذ أن فتح الفاطميّون جزيرة صقلية، وتمكنوا من دحر الروم وبسط سيطرتهم على البحر المُتوسِّط، فانزوى الروم في موقفٍ دفاعيٍّ ضد الفاطميين. وحاول الخليفة عُبيد الله المهدي أن يدعم موقفه في مُواجهة البيزنطيين عبر عقد تحالفٍ مع البلغار، خُصوم بيزنطة، فزارت بعثة دبلوماسيَّة بِلاط الخليفة في مدينة المهديَّة، ولكن سفينتهم، وبرفقتها السُفراء الفاطميّون، وقعت في أسر الروم أثناء رجوعها إلى بلادها، فأُجهض مشروع التحالف.

وفي منتصف القرن الرابع الهجري، تزامنت توسعات البيزنطيين على حساب الحمدانيين جنوبًا مع توسعات الفاطميين في الشام شمالاً والتي بلغت دمشق. وفي سنة 384هـ حاصرت قوات العزيز بالله الفاطميّ عاصمة الحمدانيين حلب لمُدَّة 13 شهرًا، فلجأ أميرها أبو الفضائل بن سعد الدولة الحمداني للاستنجاد بالإمبراطور باسيل الثاني البيزنطي فأمده بجيش، إلا أنه هُزم أمام جيش الفاطميين،

فأثار ذلك باسيل، فتوجه بنفسه للشام لقتال الفاطميين. كان جيش الفاطميين قد انسحب قبل ذلك إلى دمشق لنقص المؤن، فاكتسح البيزنطيون الأراضي حتى بلغوا طرابلس ثم قفلوا عائدين إلى القُسطنطينيَّة. غضب العزيز وخرج بجيشه يريد قتال البيزنطيين، إلا أنه توفي في الطريق سنة 386هـ..

وفي عهد الحاكم بأمر الله، دارت معركتان بين الفاطميين والبيزنطيين، الأولى بحرية في صور سنة 388هـ والثانية برية بالقرب من أنطاكية، انتهتا بانتصار الفاطميين، مما دفع البيزنطيين إلى طلب الصلح، وعقدت هدنة لعشر سنين بين الدولتين.

وفي عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، دبت الفوضى في الشَّام، فأغار البيزنطيون على الشَّام، فلجأ الظاهر إلى إبرام هدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثامن يعيد الظاهر بموجبها بناء كنيسة القيامة التي هدمها الحاكم بأمر الله الفاطمي، ويُجدد قسطنطين الثامن بناء جامع القسطنطينية الذي كان مُسلمة بن عبدُ الملك قد بناه سنة 96هـ المُوافقة لِسنة 714م بعد حصاره للقُسطنطينيَّة، وأن تقام الخِطبة في الجامع للخليفة الفاطمي.

وفي سنة 446هـ أثناء الشدة المستنصرية، أرسل المُستنصر الفاطمي إلى ثيودورا الثالثة إمبراطورة بيزنطة يدعوها إلى إسعاف مصر بالغلال، فاشترطت أن يكون مُقابل ذلك أن يدعمها المُستنصر بالجند في حالة تعرضت لثورة داخلية، وهو ما رفضه المُستنصر، ولم يتم الاتفاق. غضب المُستنصر وجرّد جيشًا أغار على أعمال أنطاكية، فبعثت بيزنطة بثمانين سفينة هزمت الفاطميين، وأُسر قائد جيشهم، فطلب المُستنصر الهدنة. ومع بدأ الحروب الصليبية، انقطعت الصلات المباشرة بين الدولتين، بعد أن تباعدت مناطق نفوذ الدولتين بعد تكوّن الإمارات الصليبية.

مع مملكة بيت المقدس:

وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى إلى مدينة القدس عام 492 هـ (1099م) في وقتٍ كانت المدينة فيه تحتَ سلطان الدولة الفاطميَّة، وقد خاضت جيوش الفاطميين معركةً قويَّة للدّفاع عن المدينة، إلا أنَّ المعركة انتهت بهزيمة ساحقة ومذبحة راح ضحيَّتها عشرات الآلاف من المقاتلين وسكان المدينة المسلمين على حدّ سواء. وفقد الفاطميون بعد سقوط بيت المقدس آخر أملاكهم في بلاد الشام، ممَّا جعل سلطانهم ينحصر في مصر وحدها تقريبًا لمعظم ما تبقَّى من عصرهم.[94] بعد سقوط القدس بشهور، خاض الفاطميُّون معركةً أخرى للدّفاع عن مدينة عسقلان، وقاد الجيش الفاطمي وزير الدولة الفاطمي الملك الأفضل بنفسه، إلا أنَّه خسر المعركة خسارةً ساحقة. عادت عسقلان فيما بعد إلى سلطان الفاطميِّين لمدة قصيرة، دامت حتى عام 548 هـ (1153م)، عندما تمكَّن الصليبيون من انتزاعها مرَّة أخرى.[190] رغم أنَّ فلسطين ظلَّت تحت سيطرة مملكة بيت المقدس خلال معظم ما تبقَّى من العصر الفاطمي، إلا أنَّ الخلفاء الفاطميِّين كانوا يحاولون باستمرارٍ استرداد بعض المدن منها، واستمرُّوا بتسيير الحملات العسكريَّة إلى فلسطين مرارًا وتكرارًا، مع أنَّ الصليبيين كانوا ينجحون بصدِّها.

مع مرور الوقت، أخذت الدولة الفاطميَّة تضعف وتنهار من الداخل، أما على الجانب الآخر من الأملاك الصليبيَّة في الشام، فقد انبثقت دولة الزنكيين التي نجحت بتوحيد المنطقة تحت سلطةٍ قويَّة ومتماسكة، وبدأت بإضعاف النفوذ الصليبيّ في المشرق باستمرار. توجَّهت أنظار ين نتيجة هذه التغيرات إلى مصر، لأنَّها أصبحت الحلقة الأضعف بالمشرق، وكانت من نتائج ذلك سقوط عسقلان سنة 1153م، إلا أنَّ أمد الدولة الفاطمية لم يطل بعد ذلك، فتابع صلاح الدين الأيوبي الحرب مع مملكة بيت المقدس حتى زوالها.

مصر الفاطمية الإسلامية :

أحوال مصر عند الفتح الفاطمي

كانت مصر تتبع الدولة العباسية تبعية أسمية حيث بلغت الخلافة العباسية في بغداد درجة كبيرة من الضعف بحيث لم يعد للخليفة أية سلطة عليها بعد أن أستقل حكام الولايات بولاياتهم مع بقاء اعترافهم بالسيادة الدينية للخلفاء العباسيين ممثلة في ذكر اسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة و نقش اسمه علي السكة (العملة).

فاستقلت مصر أيام الدولة الطولونية ثم الإخشيدية ، كما استقل السامانيين بخراسان و بلاد ما وراء النهر، و أنشأ عبد الرحمن الثالث الخلافة الأموية في الأندلس.

و بلغت الخلافة العباسية ضعفاً كبيراً حتي في عقر دارها فأصبح الخليفة العباسي تحت سيطرة قواده من الفرس و الأتراك الذين جاء بهم ليكونوا جنوداً له بدلاً من العرب، فتحول الأمر أن أصبحوا هم القوة الحقيقية المسيطرة، فقامت الدولة البوبهية في العراق و بعض مدن فارس، و الدولة الحمدانية في الموصل و ديار بكر، و الدولة الغزنوية في أفغانستان أولاً ثم ما لبثت أن استولت علي بعض أملاك الدولة السامانية و الدولة البويهية.

علي الرغم أن هذه الدويلات المستقلة كانت تمثل تفتيتاً للخلافة العباسية الجامعة و أدت إلي نزاعات كثيرة فيما بينها، إلا أنها في الوقت نفسه أفرزت قادة أقوياء استطاعوا أن يصدوا هجمات البيزنطينيين و أن يوسعوا حدود الأمة الإسلامية بفتح دولاً جديداً ما كانت الخلافة العباسية تستطيع أن تصلها بعد ما حل بها من ضعف و ميل إلي الترف و البذخ ، منها علي سبيل المثال بلاد الهند التي فتحتها الدولة الغزنوية و كانت سبباً في دخول الإسلام لشبه القارة الهندية (الهند و باكستان و بنجلادش الآن).

وكثرة الدويلات الإسلامية المنفصلة عن الخلافة العباسية قد أدي أيضاً إلي ظهور مراكز حضارية بجانب بغداد هي عواصم تلك الدويلات مثل القاهرة و قرطبة و طشقند و غيرها مما وسع الزخم الحضاري للحضارة الإسلامية.

الفتح الفاطمي لمصر

حاول الفاطميون فتح مصر ثلاث مرات سابقة حتي تولي الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة 341 هج ، و بدأ في تجهيز جيش ضخم ليفتح به مصر وصل عدده إلي 100 ألف جندي ، وولي علي قيادته جوهر الصقلي .

خرجت الحملة في 14 ربيع ثاني سنة 358 هج / فبراير 969 م من مدينة القيروان بقيادة جوهر الصقلي و دخل الاسكندرية فسلمها أهلها بدون قتال. و أدرك أهل الفسطاط أنه لا قبل لهم بصد جيوش الفاطميين فأرسل الوزير جعفر بن الفرات رسولاً من العلويين إلي جوهر الصقلي يطلب منه الأمان ، ووافق جوهر وكتب عهداً بنشر العدل و بث الطمأنينة و ترك الحرية للمصريين في إقامة شعائرهم الدينية.

وفي 17 شعبان دخل جوهر مصر (الفسطاط) وخرج الوزير جعفر بن الفرات و سائر الأشراف و العلماء في استقباله و رحبوا به ، و عسكر جوهر في الموضع الذي بنا فيه مدينة القاهرة.

و هكذا زال سلطان الخلافة العباسية و الحكم الإخشيدي في مصر بدون قتال ولا ضربة سيف واحدة و أصبحت مصر ولاية فاطمية في دولة تمتد من المحيط الأطلنطي غرباً إلي البحر الأحمر شرقاً و استمرت كذلك لمدة 200 عام.

أعمال جوهرالصقلي في مصر

حكم جوهر الصقلي مصر حوالي ثلاث سنوات من 969 م / 358 هـج إلي 972 م / 362 هـج كإحدي الولايات الفاطمية نائباً عن الخليفة الفاطمي المعز الله الفاطمي .

كان جوهر الصقلي حاكماً عادلاً يجلس للمظالم بنفسه ويرد الحقوق لأصحابها و يضرب علي أيدي المفسدين و مثيري الإضطرابات. ، كما كان يمنع الجند المغاربة من الإعتداء علي الأهالي.

أسس جوهر الصقلي القاهرة ، رابع عواصم مصر الإسلامية ، لتكون مقراً لحكم الخليفة الفاطمي في مصر. و كان مساحتها الأولية 340 فداناً علي شكل مربع طول ضلعه 1200 متر تقريباً ، و كانت تمتد من منارة جامع الحاكم شمالاً إلي باب زويلة جنوباً و يحد من المدينة شرقاً تلال المقطم و من الغرب الخليج الكبير و من الجنوب مدينة القطائع ، كما قام ببناء سور يحيط بمدينة الجديدة من الطوب اللبن له ثمانية أبواب هي : باب زويلة و باب الفرج من الجنوب و باب الفتوح و باب النصر من الشمال و باب القراطين (باب المحروق) و باب البرقية من الشرق و باب القنطرة في الغرب.

اختط جوهر الصقلي قصراً كبيراً لإقامة الخليفة الفاطمي و كان يقع بالقرب من السور الشرقي لذلك سمي بالقصر الشرقي. و كان يمتد من الموضع الذي يوجد به المشهد الحسيني الآن إلي الجامع الأقمر تقريباً و كانت له تسعة أبواب: ففي الناحية الشرقية كانت توجد أبواب العيد و الزمرد و قصر الشوك و الناحية الغربية كانت توجد أبواب البحر و الذهب و الزهومة ، و الناحية الجنوبية كانت توجد أبواب تربة الزعفران و الديلم و في الناحية الشمالية باب واحد هو باب الريح.

نشر المذهب الشيعي

عمل الفاطميون منذ أول يوم لهم علي تحويل أهل مصر إلي المذهب الشيعي، و لكن بدون إجبار. فأمر جوهر الصقلي المؤذنين في المساجد بأن يؤذنوا بحي علي خير العمل بدلاً من حي علي الفلاح - و هو مذهب الشيعة في الآذان.

كما أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً يتلقي الناس فيه عقائد المذهب الشيعي، و الذي سعي إلي نشره بالطرق السلمية و الترغيب. فكان يقوم بتعيين معتنقي المذهب الشيعي من المصريين في مناصب الدولة المهمة.

بدأ جوهر بناءه للمسجد الجامع ، الذي سمي بعد ذلك جامع الأزهر ، في أبريل سنة 970 م / جمادي الآخر 359 هج، و اتمه في يونية سنة 972 م / 361 هـج. و كانت مساحة الأزهر عند بنائه نصف مساحته الحالية التي تبلغ الآن 12000 متراً مربعاً.

الجامع الأزهر بالقاهرة

أقيمت في الجامع الأزهر أول صلاة جمعة يوم 6 رمضان سنة 361 هـج، ولاحظ الناس أن الخطيب لم يدع للخليفة العباسي كما كان من قبل، و إنما دعي للخليفة الفاطمي المعز لدين الله.

كما أمر جوهر بأن يقال في الخطبة :" اللهم صل علي محمد المصطفي، و علي عليٌ المرتضي، و علي فاطمة البتول، و علي الحسن و الحسين سبطي الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً، و صل علي الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله ".

أتبع الفاطميون وسائل مبتكرة في الترويج لمذهبهم الشيعي، فإلي جانب تعيين معتنقي المذهب في مناصب الدولة، لجأ الفاطميون إلي استحداث احتفالات دينية لم تكن موجودة من قبل، و ربطها بمظاهر فرح و طقوس يغلب عليها البهجة و

الاستمتاع، و ذلك لتحبيب الناس في المذهب الجديد. من تلك الاحتفالات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف و ليلة النصف من شعبان و عاشوراء و احتفالات شهر رمضان، و ابتداع أكلات و أغاني مخصوصة لهذه الأعياد منها أكلات الكنافة و القطائف في شهر رمضان، و طبق العاشوراء في مولد عاشوراء، و أغنية وحوي يا وحوي التي يغنيها الأطفال و هم يخرجون بالفوانيس في ليالي رمضان.

ضم الشام و فلسطين لسلطان الفاطميين

كان طموح الفاطميين هو التوسع شرقاً علي حساب الخلافة العباسية ،فكلف جوهر الصقلي لذلك جعفر بن فلاح و هو قائد مغربي من قبيلة كتامة بضم فلسطين و الشام لسلطان الفاطميين ، و كانت فلسطين و الشام في ذلك الوقت تحت حكم بقايا الإخشيديين. و دارت معركة فاصلة بين الجيش الفاطمي و جيش الإخشيد بقيادة الحسن بن عبد الله بن طغج، و انتصر فيها الفاطميون و تمكنوا من بسط نفوذهم علي دمشق و فلسطين سنة 969 م / 359 هـ و أصبحت الخطبة في بلاد الشام للخليفة الفاطمي.

و لكن الفاطميون لم يهنأوا طويلاً ، فقد انقلب عليهم القرامطة في الجزيرة ، علي الرغم أنهم شيعيون أيضاً ، و زحفوا علي دمشق و استولوا عليها و هزموا الفاطميين الذين ارتدوا إلي مصر فتبعهم القرامطة داخل مصر و تقابل الجيشان شرق القاهرة ، ودارت معركة قاسية استطاع فيها الفاطميون صد القرامطة و ردهم إلي الشام

خرج القائد جوهر الصقلي من قبل المعز لدين الله الفاطمي من شمال أفريقيا في فبراير سنة 969م، على رأس جيش يربو على مائة ألف، وسرعان ما وصل الإسكندرية التي دخلها دون عناء يذكر، ثم احتل الفسطاط في يوليو 969م. وخطط مدينة القاهرة، لتكون مقراً لملك الفاطميين، وسرعان ما بنى جوهر الجامع الأزهر بالقاهرة، ولم يكن الغرض من إنشائه أول الأمر إقامة الصلاة فقط، بل استهدف

كذلك نشر الدعوة السياسية وتعليم اللغة العربية والدين، وتربية النشء. وسمي الأزهر، نسبة إلى فاطمة الزهراء التي ينتسب إليها الفاطميون وهو أول مسجد أسس بقاهرة المعز لدين الله الفاطمي.

ويعتبر الخليفة العزيز الفاطمي، أول من أوقف الجامع الأزهر على العلم وأول من أقام الدرس به عام 378هـ فتحول من جامع إلى جامعة إذ ما كاد يتولى الخلافة حتى قام ومعه وزيره أبو الفرج يعقوب بن كلس، وكان من فحول العلماء بتعيين خمس وثلاثين عالماً لتدريس الفقه على مذهب الفاطميين، ودراسة الأدب وعقائد الدين بالأزهر، وأسماهم المجاورين، إذ ابتنى لهم المنازل المجاورة للجامع، وأسكنهم فيها، وأجرى عليهم الأرزاق والمنح والعطايا. وقد رغب الفاطميون أن يجعلوا الأزهر عظيم الشأن، بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الإسلامية، فكانوا يقدمون إليهم المأكل والمشرب والملبس دون أجر.

وقد جدد بناء الأزهر وزاد فيه الحاكم بأمر الله، وأوقف عليه أوقاف ثابتة، كذلك جدد فيه العزيز بالله والمستنصر بالله وغيرهم من الخلفاء الفاطميين وظل الأزهر كعبة للراغبين في المعرفة، ويقف إلى جانب جامع القرويين في فاس، وجامع الزيتونة في تونس. وزاد إقبال الناس عليه، إذ قضت غزوات المغول على معاهد العلم في الشرق العربي، كما قضى الانحلال والتفكك على معاهده في المغرب العربي كذلك.

كانت القاهرة في العصر الفاطمي عاصمة الشرق ومقر نصف الخلافة الإسلامية التي تقاسمتها مع الخلافة العباسية، وقلب العالم الإسلامي، وكانت قبلها ولاية تابعة، وأصبحت الرأس والعاصمة، تضم كلا من شمال أفريقيا غربا والشام شرقاً واليمن جنوباً.

وكان سادس الخلفاء الفاطميين هو الحاكم بأمر الله (996ـ1021م) والذي يصفه المستشرق الألماني ميللر (ما زال الحاكم بأمر الله لغزاً .. فهو من أعجب وأعمق

الشخصيات التي عرفها التاريخ).. أما من يرونه أحد الشخصيات التاريخية البارزة فلأنه انشأ "دار الحكمة" دار العلم الشهيرة، وتجديد الجامع الأزهر. وكان في عهده بداية بناء المراصد الفلكية في مصر وازدهار العلوم ومنها علم الفلك.

ابن يونس المصري :

هو أبا الحسن علي بن عبد الرحمن بن يونس، بن عبد الرحمن يونس، بن عبد الأعلى الصدفي المصري، ولد بمصر عام 341هـ وتوفي بها سنة 399هـ (1009م) وهو سليل بيت اشتهر بالعلم فأبوه عبد الرحمن ابن يونس، كان محدث مصر ومؤرخها، وأحد العلماء المشهورين فيها، وجده يونس بن عبد الأعلى صاحب الإمام الشافعي ومن المتخصصين بعلم النجوم. وقد قدر الفاطميون علمه وفضله فأجزلوا له العطاء وشجعوه على متابعة بحوثه في الهيئة (علم الفلك) والرياضيات وبنوا له مرصدا على جبل المقطم قرب الفسطاط، وجهزوه بكل ما يلزم من الآلات والأدوات، أمره العزيز الفاطمي أبو الحاكم بأمر الله بأن يصنع زيجا، فبدأ به في أواخر القرن العشر الميلادي، وأتمه في عهد الحاكم بأمر الله وسماه الزيج الحاكمي، يقول عنه ابن خلطان بأنه زيج كبير يقع في أربعة مجلدات، لم أرى في الأزياج على كثرتها أطول منه. ويقول سيديو عن هذا الزيج (أنه يقوم مقام المجسطي والرسائل التي ألفها علماء بغداد سابقاً، ويشتمل على مقدمة طويلة و 81 فصلاً وقد ترجمه كوسان إلى الفرنسية).

وقد رصد ابن يونس كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة سنة 978م، وقد وصف في زيجه الحاكمي الطريقة التي أتبعها فلكيو العرب في عصر الخليفة المأمون العباسي في قياس محيط الأرض. وهو الذي اخترع البندول، وبذلك يكون قد سبق جاليليو بعده بقرون، وكان يستعمل لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد. كما استعمل في الساعات الدقاقة.

وقد برع ابن يونس في حساب المثلثات وأجاد فيها، وفاقت بحوثه فيها بحوث كثير من الرياضيين، وقد حل مسائل صعبة في المثلثات الكروية، واستعان في حلها، بالمسقط العمودي للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقي ومستوى الزوال. وابتدع قوانين ومعادلات، كان لها قيمة كبرى قبل اكتشاف اللوغريتمات، إذ يمكن بواسطتها تحويل عمليات الضرب إلى عمليات جمع وفي هذا بعض التسهيل لحلول كثير من المسائل الطويلة المعقدة. ولذلك فإنه يعتبر بحق ممن مهدوا لاكتشاف اللوغاريتمات. وحتى عام 1800م نجد الفرنسي (لابلاس) يستفيد من كتب ابن يونس المصري في دراساته وأبحاثه.

حسن بن الهيثم في مصر الفاطمية :

حسن بن الهيثم (354ـ430هـ / 965ـ1038م). أحد علماء ثلاثة يزدهي بهم تاريخ العلم العربي والإسلامي وهم: ابن سيناء ، وابن الهيثم، والبيروني. بلغت الحضارة العلمية الإسلامية في عهدهم الذروة، وذلك من منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي أو منتصف الرابع إلى منتصف الخامس الهجري، وهو كأحد علماء الطبيعة الإسلاميين، يعتبر الأرفع شأناً والأعلى كعبا والأرسخ قدماً. ولعله في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور والأحقاب. وقد عرفته أوروبا باسم الهازن، وهو تحريف الحسن، وهو الحسن بن الهيثم ولد في منتصف القرن الرابع الهجري (حوالي 354ـ965م) وعاش أول أمره في البصرة، ثم انتقل إلى القاهرة بدعوة من الخليفة الحاكم بأمر الله، وفيها عاش أغلب عمره وألف معظم كتبه، وظلت كتبه المرجع الذي يعتمد عليه أهل الصناعة في علم الضوء، حتى القرن السابع عشر الميلادي، وكان يسمى علم المناظير.

وكان لدى الحاكم بأمر الله ميل إلى الحكمة والفلسفة، وكانت له رغبة في تشجيع العلم والعلماء آوى كثير من أطباء عصره وأسس في القاهرة دار الحكمة. وعندما بلغه قول ابن الهيثم: لو كنت بمصر لعملت بنيلها عملا يحفظ ماءه ويحصل به

النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغني أنه ينحدر من موقع عال، وهـو في طـرف الإقليم المصري فاشتاق الحاكم بأمر اللـه إلى رؤيته، ولعله أراد أيضاً أن يأويـه إليـه، ويـشمله بعطفـه لكي يستأثر بفخر استظلاله برعايته وانتسابه إليه، فأرسل إليه مرغبا إياه في الحـضور إلى مـصر، وخـرج الحاكم بأمر اللـه بنفسه لاستقباله خارج مدينة القاهرة، وأكرم وفادته، وأمر بإكرام مثواه، ولما أرسـل ابن الهيثم على رأس بعثة هندسية بأدق المعاني الحديثة لهذه العبارة، وتتبع مجرى النيل من القـاهرة إلى جنوب أسوان يدرسه ويعاينه، إلا أنه لم يجد الأمر متفقاً وفكرته الهندسية التي خطـرت لـه، لـذلك عاد إلى القاهرة وهو في أشد حالات الخجل واعتذر للحاكم بأمر اللـه. أثار فشله هـذا سـخط الحـاكم بأمر اللـه وسخريته، فعين ابن الهيثم في وظيفة إدارية لم تدخل إلى نفسه شيئاً من السرور وشاء سـوء طالعه أن يرتكب خطأ، وخشي غضب الحاكم بأمر اللـه وتنكيله به فتظاهر بـالجنون ونجحـت هـذه الحيلة فحدد الخليفـة إقامتـه في داره وضربـت الحراسـة عليـه وعـلى بيتـه واسـتولت الحكومـة عـلى ممتلكاته. عندما أصبح الخليفة الفاطمي الحاكم بـأمر اللــه خطـراً عـلى مـستقبل البيـت الفـاطمي، تصدت له أخته سيدة الملك، وأمرت بقتله، عندما أمتطى دابته وصعد إلى جبل المقطم ليتأمـل الـسماء والكون في الليل عام 1021م، حيث خرج الحاكم بأمر اللـه على دابته ولا يعلم بخروجه أحـد وعنـدما بلغ أبواب القاهرة أختفى ولم يعرف له أثر فكان اختفاؤه لغزاً من الألغاز.

وبذلك استطاع ابن الهيثم أن يتحـرر مـن تحديـد إقامتـه وفـرض الحراسـة عليـه وتأميم ممتلكاته فترك سكنه واتجه إلى حي الأزهر حيث أقام هناك واضـطر أن يكتـسب قوته عن طرق النسخ، وهكذا قضى هـذا الرجـل الـتعس حياتـه حتـى تـوفي. وقـد كلفـه بعضهم مرة أن ينسخ له مبادئ أويقليد والماجسطي لبطليمـوس فنـسخهما بـدون خطـأ وفي غاية الدقة ليستطيع أن يتغلب على متاعب الحياة ويحصل على قوته اليـومي. ومـن الجدير بالملاحظة أن ابن الهثيم أدرك الأخطاء التى تردى فيها هذان العالمـان فعارضـهما

وانتقدهما وبين أخطاءهما، فقد قال كل من أويقليد وبطليموس أن العين ترسل أشعة بشرية على الأشياء المراد رؤيتها، فأعلن ابن الهثيم خطأ هذا الرأي، وقال: أن العين لا ترسل شعاعاً، وإن هذا الشعاع ليس هو الذي يسبب الرؤية والعكس هو الصحيح فإن الجسم المرئي هو الذي يرسل أشعة إلى العين وإن عدسة العين هي التي تحوله.

وكان هذا الرأي لابن الهيثم كشفا جديدا قفز بالعالم العربي بخواص الحواس قفزة بعيدة جداً وصحح الخطأ الذي وقع فيه العالم القديم، وفسر لنا ابن الهثيم الضوء ومظاهره، كما أوجده بذلك قانوناً جديداً أثبت صحته وأيده بتجارب كثيرة مختلفة فكان ابن الهثيم هو صاحب النظريات العلمية المعتمدة على التجارب، وابن الهثيم هو وأمثاله من العلماء العرب هم مؤسسوا الأبحاث التجريبية وليس (روجر بيكون) أو (جليلي)، أو (ليوناردو ديفنشي) أو (باكوفون فرولام)، فالعرب سبقوهم وبلغوا بأبحاثهم التجريبية المستوى الرفيع وأصبح اسم الحسن بن الهيثم هو همزة الوصل وهو النجم الذي أضاء الطريق ومهد لقيام الأبحاث الحديثة بعد أن سبق أوروبا إليها.

فإبن الهيثم هو الذي استغل الزمن الذي مضاه مختاراً في سجنه، كما استغل أيضاً الأعوام التي تلت خروجه وقام بأبحاثه العلمية وتجاربه الخاصة بالبصريات الهندسية فخلق بذلك علماً مستقلاً.

تقول الدكتورة سيجريد هونكه في كتابها (شمس الله تشرق على الغرب ـ فضل العرب على أوروبا) الحسن بن الهيثم (965ـ1039م) هو الذي أثر في أوروبا تأثيراً بعيداً وعرفته تحت مسمى (الحسن) وكان أشهر الأساتذة العرب الذين أخذوا بيدها في هذا المضمار من البحوث، فقد وضع نظرية حول حركات الأفلاك على أطباق غير شفافة وقد شغلت هذه النظرية العصور الوسطى كثيراً كما خلقت لنا أثراً في المكان الخاص بـ "شتمه" بالقرب من مدينة (إينزبروك) حيث توجد إلى اليوم مائدة من خشب القرو ترجع إلى عام 1428م، وقد صنعت في أوجسبرج، وهي تبين حركات الأفلاك الستة حسب نظريته وفي صورة نموذجية.

لكن شهرة هذا العالم العربي لم تقم على هذه النظرية فقط، ففضله على علم الفلك يتجلى في اكتشافه أن جميع الأجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها، عدا القمر الذي يستمد نوره من الشمس. وهذه النتيجة التي انتهى إليها ابن الهيثم نقلته إلى فكرة أخرى جديدة أدت إلى ثورة عارمة في علم الفلك فقد عارض ابن الهيثم العالمين الاسكندريين (أويقليد) و (بطليموس) فأثبت خطأ نظريتهما، وبذلك نجح في فرض أرائه الجديدة. وكيف يقع خسوف القمر إذا كان القمر جسماً غير مضئ؟ وأنه يستقبل ضوءه من الشمس؟ فمثل هذا السؤال الفلكي دفع ابن الهيثم إلى خلق نظرية خاصة بتكوين الظل عن طريق أجسام نورانية.

قدسية ثبات الكون في فكر العصور الوسطى :

بعد أن انتشرت نظرية أرسطو بشأن كمال السماوات، كان من نتائجها إن أوجدت حائلا للتعرف علي أي نجم جديد . فلما كانت الفكرة القائلة بعدم وجود تغير في السماوات قد ثبتت لدي علماء الفلك باتوا يستنكفون الإبلاغ عن أي تغيير إذا كانوا في أوروبا يخشون أن ينال ذلك من مصداقيتهم و من سمعتهم . ولربما كانوا يغمغمون لأنفسهم بأن الوهن بدأ ينال من بصرهم و بأنهم يعانون خداع النظر . فبهذه الطريقة يتحاشون مغبة الإعلان عن أمر يلقي استهجانا من العامة.

بل أن مسألة الإعلان عن أي تغيير قد تصل إلى حد المساس بالمقدسات فلقد كان علماء الفلك المسيحيون في أوروبا في العصور الوسطى يرون في كمال السموات، لا سيما الشمس، رمزا لكمال الإله. ولما كان السعي إلى اكتشاف خلل في هذا الكمال يحمل تشكيكاً في صنيع الله. فهو إذاً من الكبائر. بل أن اعتقادهم بعدم كمال الأرض إنما كانوا يعزونه إلى معصية آدم وحواء حيث أكلا من الشجرة المحرمة في جنة عدن، وأن لم يكونا قد فعلا ذلك ربما اكتسبت الأرض صفة الكمال مثل بقية السماوات. ومن ثم فربما يكون تاريخ الفلك القديم قد شهد ظهور نجوم جديدة بين حين وآخر

ولكن إما لم يرصدها أحد من الفلكيين أولم يصدقوا أعينهم أو أنهم لاذوا بالصمت لمجرد إيثار السلامة.

في عام 1006م رصد نجم جديد في برج لوبوس المجاور لبرج قنطورس غير أنه ظهر أيضا في السماء الجنوبية. كان العرب في ذلك الوقت في قمة تفوقهم العلمي وكانوا أفضل من يمارسون علم الفلك في ذلك الحين. فقد ورد أيضا ذكر ذلك النجم ثلاث مرات على الأقل في مدوناتهم. وكان أفضل من رصده وسجله هو علي بن رضوان العالم العربي المصري والفلكي المسلم الذي رصده من مدينة الفسطاط في 30 إبريل 1006م.

ولا غرابة فيما حظي به النجم الجديد من اتساع مجال رؤيته. فقد أجمعت كل التقارير على شدة بريقه. ويقدر بعض علماء الفلك من العصر الحديث بريقه بأنه ينهاز مائتي مثل بريق كوكب الزهرة في ذروته، أي حوالي عشر بريق القمر وهو بدر. وقد ظل في مرمى البصر لحوالي ثلاث سنوات وإن لم تزد الفترة التي كان فيها أكثر بريقا من الزهرة عن بضعة أسابيع.

وكان النجم الجديد على ارتفاع كاف من خط الأفق يتيح رصده من الجنوب الأوروبي. ولعلنا نتصور علامة الدهشة والرهبة التي ترتسم على وجوه الناس في إيطاليا وأسبانيا وجنوب فرنسا لو أنهم تطلعوا ليلا إلى السماء الجنوبية ورأوا ذلك النجم. لكنهم لم يفعلوا، أو على الأقل ليس هناك ما يدل على ذلك. وقد ورد في السجلات المحفوظة في اثنين من الأديرة، واحد في سويسرا والثاني في إيطاليا، ما يوحي بأن شيئا ظهر في السماء في ذلك العام، مما قد يفسر بأنه نجم ساطع.

ولما كان البعض آنذاك في أوروبا يتوقع أن تحل نهاية العالم بعد نحو ألف عام من مولد المسيح، وبما أن النجم الجديد ظهر عام 1006م، فقد يتبادر إلى الذهن أنه كان أحرى بالأوروبيين أن يعتبروه علامة على هذه النهاية، ولكن حتى هذا الاحتمال المرعب لم يبعث فيما يبدو أحدا على مجرد الإشارة إلى ذلك الحدث.

وبعكس الفكر الأوروبي في العصور الوسطى فإن العقيدة الإسلامية كانت تجيز التأمل والتدبر في خلق الكون وكان الهدف من ذلك هو تقرير حقيقة الألوهية الحقة للذي خلق هذا الكون الموجودة مما يؤدي إلى العبرة والعظة (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) سورة فصلت : 52.

وقد أدى ذلك إلى انطلاق العقلية العربية والإسلامية من عقال الجاهلية إلى رحاب الفكر العلمي والمنهج التجريبي وقيام الحضارة العربية الإسلامية والتي وصلت إلى أوجه مجدها وتقدمها وتفوقها في العصور الوسطى بينما كانت أوروبا مازالت ترسف في غياهب الظلام والجهل تحت الإرهاب الفكري للكنيسة الكاثوليكية في روما. ولذلك لم يتردد الفلكيون المسلمون والذي اعترف العالم بعبقريتهم من أمثال أبو الريحان البيروني وابن البثاني وابن الشاطر وابن يونس المصري في رصد السماء وتدوين ما يرونه ومحاولة تفسيره علميا بعقلية علمية متحررة من الخزعبلات والإرهاب الديني.

سوبر نوفا علي بن رضوان :

ولد علي بن رضوان بالقرب من القاهرة وعاش خلال الفترة من 998 حتى 1061 ميلادية وكان يعمل بالدرجة الأولى كطبيب وكان له اهتمامات كبيرة بالفلك وألف مجلد هام أسماه (التعليقات على الكتب الأربع لفلك البطالمة) وكان لهذا المجلد تأثير كبير على عالم القرون الوسطى وكان علي بن رضوان قد شاهد النجم المتفجر سوبر نوفا عام 1006 ميلادية عندما كان عمره ثمان سنوات ومع ذلك اعتمد في تسجيل هذه الظاهرة في مجلده على وصف الأكبر سنا منه الذين شاهدوها عام 1006 ميلادي. ويقول في مجلده .

سوف أوصف الآن المشهد الذي رأيته عند بداية تعلمي. هذا المشهد ظهر في برج العقرب في الاتجاه المعاكس للشمس. كانت الشمس في ذلك اليوم على بعد 15 درجة في برج الثور (أي على بعد 15 درجة من بداية برج الثور على الدائرة

الكسوفية) وكان المشهد على بعد 15 درجة من برج العقرب. هذا المشهد كان جسم دائري كبير قطره ما بين 2.5 إلى 3 مرات قطر كوكب الزهرة. وكانت السماء تشع بسبب ضوءه العالي. حيث كان ضوءه يزيد قليلا عن ربع إضاءة القمر. وقد ظل في مكانه إلى أن أصبحت الشمس على بعد ستين درجة منه في برج العذراء (السنبلة) فاختفى. كل ما ذكرته من تجربتي الشخصية وهناك من المهتمين كانوا يتابعون المشهد وقد توصلوا إلى نفس المعتقد (المستخلص) العلمي. وكان مواقع الكواكب كالتالي : الشمس والقمر تقابلا عند 15 درجة من برج الثور، وكان زحل يبعد 11′ 12° من برج السرطان، وكان المريخ على بعد 19′ 21° من برج العقرب. والزهرة على بعد 28′ 12° من برج الجوزاء، وعطارد كان على بعد 11′ 5° من الثور، وعقدة القمر The moon's node على بعد 28′ 23° من برج القوس. والمشهد حدث عند الدرجة 15° من برج العقرب. وكان مطلع الاقتران عندما ظهر المشهد في سماء مدينة الفسطاط على بعد 2′ 4° من برج الأسد. وأيضا العشر (المنزل) لبرج الثور كان يبدأ من 27′ 26° من برج الحمل.

وقد ذكر علي بن رضوان الحروب والمجاعات والكوارث الأخرى التي حدثت بعد ظهور هذا المشهد من برج العقرب. حيث اعتبر أن هذا نذير شؤم للمسلمين. وقد حسبت إحداثيات الأجرام السماوية والكواكب بواسطة علي بن رضوان باستخدام جداول المجسط البطلمي. وكانت عاصمة المسلمين في مصر في ذاك الوقت هي الفسطاط ذات الإحداثيات (خط عرض 30° وخط طول 31.3°) وهي تقع الآن جنوب شرق القاهرة وتعرف باسم "مصر القديمة". في اتجاه الجنوب الغربي ـ جنوب وجنوب شرق القاهرة ـ فإن المنطقة لها مستوى مقبول، لذلك أمكن رؤية النجم المتفجر.

والتعبيرات "Ascendant of Conjunction" و "Beginning of the Tenth House" تحتاج للتوضيح. حيث أن الاثنان لهما لحظة معينة. فمطلع الاقتران هي

النقطة على دائرة البروج التي تشرق عند زمن مختار، بينما بداية المنزل العاشر هي اللحظة الخاطفة للصعود الأعلى لدائرة البروج.

وبالرغم من أن يوم الأرصاد غير معلوم، إلا أنه يمكن اشتقاقه من مقارنة حسابات على بن رضوان. فوضع الشمس والقمر والكواكب التي ذكرت بواسطة علي بن رضوان تدل على أن وقت الأرصاد كان يوم 30 إبريل عام 1006 ميلادي. والمواقع التي حسبت بواسطة على بن رضوان قد تمت مقارنتها بتلك التي تم حسابها بالنظريات الحديثة. وقد تمت الحسابات الحديثة على أساس أن الوقت المحلي لمدينة الفسطاط كان 10.83 ساعة في 30 إبريل 1006. والوقت المحلي هنا يعني الوقت المحلي الظاهري حيث أن هذا النظام كان هو المتبع بكثرة في عالم العصور الوسطى حيث تكون الشمس على دائرة الزوال للرصد في الساعة الثانية وعشر تماماً في الظهر. وقد تم هذا بناء على ما دونه علي بن رضوان حول طالع الاقتران "The Ascendant of the Conjuction" وبداية المنزل العاشر. و "Beginning of the Tenth House" وتأخذ طالع الاقتران ومقداره 2' 4° في برج الأسد (أي خط الطول 124.03° على الدائرة الكسوفية) فإنه يعطي وقت محلي مقداره 10.84 ساعة يوم 30 إبريل 1006.

وكذلك فإن الوقت المحلي المستنتج من بداية المنزل العاشر كان خط طوله على دائرة الكسوف 27' 26° في برج الحمل (أي خط طول مقداره 26.45° على دائرة الكسوف) هو 10.82 ساعة. ولكن لماذا اختيار هذا الوقت في الصباح الباكر ليوم 30 إبريل 1006. وهناك تفسير محتمل وهو أن النجم لم يرى في الليلة السابقة ليلة (30/29 إبريل) ولكن تمت رؤيته في ليلة (30 إبريل / مايو). ولأسباب تنجمية فإن ابن رضوان حدد هذا الوقت لأول ظهور لهذا النجم المنفجر (سوبر نوفا). والجدول التالي يوضح الأرقام المسجلة في كتاب ابن رضوان وتلك التي تم حسابها بفيلم الفلك الحديث يوم 30 إبريل 1006م عند الوقت المحلي 10.83 ساعة.

خطوط الطول على دائرة الكسوف للقمر والكواكب في الساعة 10.83 في

صباح 30 إبريل 1006 ميلادية

الجرم السماوي	المسجل في كتاب علي بن رضوان	المحسوب بالفلك الحديث
1ـ القمر	44.5°	44.36°
2ـ الشمس	44.5	44.62
3ـ عطارد	35.22	34.73
4ـ الزهرة	72.47	72.20
5ـ المريخ	231.32	228.02
6ـ المشترى	101.35	100.62
7ـ زحل	132.22	131.95
8ـ عقدة القمر	263.57	263.47

وعلي بن رضوان قد يكون قد أخطأ عندما ذكر أن النجم المنفجر (الجديد) كان في الاتجاه المعاكس للشمس على دائرة الكسوف أي من منتصف برج العقرب أي بين 224 و225° على الدائرة الكسوفية. حيث لا بد أن يأخذ هذا الرقم ببعض من الحذر. ولكن أهم ملاحظة موجبة هو وصف ابن رضوان للنجم الجديد بأنه ذو طبيعة ثابتة فيقول: " لقد ظل النجم في مكانه ويتحرك يوميا مع برجه على دائرة الكسوف" بمعنى أنه ثابت في موقعه على دائرة الكسوف رغم حركته اليومية الظاهرية فوق الأفق من الشرق إلى الغرب كسائر باقي النجوم.

ويمكن تحديد اليوم الذي اختفى فيه النجم وذلك من معرفة الحركة الظاهرية للشمس على دائرة الكسوف على مدار العام عندما يكون الفرق ما بين خط طول النجم وخط طول الشمس على الدائرة الكسوفية 60 درجة. ويأخذ أن خط طول

النجم الجديد هو 224.5° على دائرة الكسوف عندما ظهر لأول مرة فإن الشمس ستكون على خط طول 164.5° على دائرة الكسوف عند اختفاء النجم أي عندما تكون الشمس في دائرة العذراء أي ما بين خطي طول 150° و 180 ° على دائرة الكسوف، كما ذكر علي بن رضوان. وهو يقابل تاريخ 2 سبتمبر 1006 ميلادية عند اختفاء النجم الجديد. ويحتمل أن يكون يوم اختفاء النجم الحقيقي هو حول 2 سبتمبر 1006 بأيام قليلة.

ولقد وصف ابن رضوان بأن النجم كان باهر ومتألق وأن السماء كانت مضاءة من شدة لمعانه والتي كانت تقترب من ربع إضاءة القمر.

الظاهرة في ضوء علم الفلك الحديث :

ويشير خط العرض المجري العالي للنجم المتفجر في عام 1006 ميلادية وشدته العالية في الإضاءة بأنه كان سوبر نوفا Super nova وبالتالي فإن الاتساع الزاوي لبقاياه سوف تكون أكبر من أي مثيل له في العمر.

وفي عام 1965 تم اكتشاف مصدر لموجات الراديو في برج الذئبة وصف بأنه من مخلفات الانفجار السوبر نوفا الضخم الذي وقع عام 1006 على مسافة لا تزيد على ألف فرسخ فلكي (بارسك) من الأرض وتم ترقيمه وتصنيفه بالكود SN 1006.

ولقد قام الفلكي د. روجر من مرصد الدومنيون للفيزياء الفلكية الراديوية بكندا عام 1988 برصد مخلفات سوبر نوفا علي بن رضوان على التردد 843 ميجا هرتز مما أدى إلى دراستها بطريقة مفصلة بقوة تفريق مقدارها دقيقة قوسية. وفي عام 1993 أعيد رصده بعلماء آخرين وبقوة تفريق أكبر. كما تم رصده للمرة الثالثة عام 1997 بواسطة أشعة الراديو وخط الطيف هـ ـ ألف. ثم تم رصده بالأقمار الصناعية في الثمانينات من القرن العشرين ومنها القمر الصناعي ROSAT بالأشعة السينية. وقد وضحت صور هذا القمر الصناعي أيضا تطابقاً مع صور أشعة الراديو فالغطاء

مضئ عند الحافة وأكثر إضاءة عند الشمال الغربي والجنوب الشرقي للغطاء المستدير. كما تم رصد خطوط طيف سينية مضيئة والتي تعزى إلى إشعاع حراري من صدمة بلازما عالية الحرارة Shock-heated plasma وفي تفسير آخر فإن الأشعة السينية من المستعر SN1006 وهو مخلف سوبر نوفا علي بن رضوان تشير إلى أن هناك إشعاع غير حراري Synchrotron emission مشابه للأشعة السينية الصادرة من السديم The Crab Nebula. وفي عام 1995 قام العالم الفلكي Koyama وآخرين معه والذي رصد مخلفات سوبر نوفا علي بن رضوان بآشعة سينية ذات طاقة عالية تصل إلى 8 كيلو إلكترون فولت. وقد اتضح أن الآشعة الصادرة من المستعر هي أشعة غير حرارية Synchroton Radiation عن الحافة بينما في مركز المستعر هي آشعة حرارية وهذا يعني أن الجسيمات الدقيقة حدث لها عملية تعجيل حتى أصبحت جسيمات ذات طاقة عالية أثناء انفجار النجم وانتقالها من المركز إلى الحافة، وقد أيد هذا الرأي العالم Tanimori مع آخرين من أرصاد لمخلفات النجم المتفجر بأشعة جاما بالأقمار الصناعية عام 1998.

وقد دلت الأرصاد على أن قطر الانفجار 25 سنة ضوئية، ومعنى ذلك أن هذا النجم المنفجر كانت له سرعة انفجار تساوي 6500 كيلو متر في الثانية منذ عام 1006م، وهي سرعة الجسيمات الدقيقة في الفضاء بعد الانفجار والناجمة على انفجار سوبر نوفا على بن رضوان.

وهذا يعني أنه إضاءة هذا النجم المتفجر عند انفجاره كان لها القدر ـ 19 على المقياس المطلق وعلى المقياس الظاهري ـ10 بمعنى أنه أكثر لمعانا من كوكب الزهرة بمقدار مائتي مرة أو ربع إضاءة القمر عندما يكون بدراً كاملاً.

المراصد الفلكية في مصر الفاطمية الإسلامية :

إن المرصد وهو أكثر المؤسسات التي يمكن اعتبارها قريبة إلى العلوم غير الدينية كان يواجه مشكلات كبيرة إلى أن أصبح جزءا متكاملاً من الحضارة الإسلامية، لذلك

نجد أنه خلال التاريخ الإسلامي وفي بقاع مختلفة من الامبراطورية الإسلامية هدمت مراصد كثيرة بعد بناؤها وأعدم الوزراء الذين كانوا قائمين عليها وأعدم الفلكيون العاملين بها، إذ تسرب للحاكم أن هـذه المراصد تمارس التنجيم، حيث أن العقيـدة الإسـلامية ضـد التنجـيم وإدعـاء معرفـة الغيـب. وكـان أول مرصد بني في العـصر الفـاطمي هـو ذلـك المرصـد الـذي شـيده الفـاطميون عـلى جيـل المقطـم قـرب الفسطاط لابن يونس المصري في أواخر القرن العاشر الميلادي. ومع قرب نهاية القرن الخـامس الهجـري وبداية القرن الثاني عشر الميلادي أراد الوزير الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيـوش (الجيـوشي) بدر الجمالي الاحتفال بالذكرى الخمسمائة للهجرة حيث أحضر من بلاد الشام تقاويم لما يـستأنف مـن السنين لاستقبال سنة خمسمائة من سنى الهجرة وقيل مائة تقويم أو نحوها، وكـانوا منجمـوا الحـضرة يومئذ: ابن الحلبي وابن الهيثم وسهلون وغيرهم كما ورد في ذكر المراصـد في كتـاب المـواعظ والاعتبـار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية تأليف تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي المتوفي سنة 845هـ

وكان أول مسجد بناه الأفضل أبا القاسم شاهنـشاه الجيـوشي بـدر الجـمالي لاسـتخدام سـطحه كمرصد هو مسجد فيله في جبل الجـرف الواقـع إلى الـشمال مـن بركـة الحـبش بالقـاهرة وكـان الآلـة المستخدمة للرصد هي ذات الحلق وكان قطرها خمسة أمتار. وذات الحلـق كانـت هـي أرفـع وأرقـى أدوات الرصد الفلكي في العصر الإسلامي في كل البقاع وكان الـوزير الأفـضل أبـا القاسـم الجيـوشي بـدر الجمالي يشرف على تصنيع هذه الحلقة بنفسه وبأموال طائلة من خزائن الدولة.

ذات الحلق :

Armillar آلة من خمس حلقات ودوائر من نحاس، ويمثل أولها دائرة نصف النهار وهـو مركـز على الأرض ودائرة منطقة البروج ودائرة العرض ودائرة الميل وكذلك الدائرة الشمسية التي يعـرف بهـا سمت الكواكب.

لقد طور المسلمون من صناعة هذه الآلة حتى بلغ قطر حلقاتها النحاسية 3 أمتار ونصف المتر حتى أنه في عام 515هـ في القاهرة صنع ابن قرقه حلقة ذات 5 أمتار وعبر عن ذلك بقوله للأفضل: (وحق نعمتك لو أمكنني أن أعمل حلقة تكون رجلها الواحدة على الأهرام والأخرى على مسجد التنور عبر النيل فعلت فكلما كبرت الآلة صح التحرير، وأين هذا في العالم العلوي). بمعنى كلما كبر حجم الآلة ازدادت دقتها وبالصغر آلاتنا بالنسبة إلى رحابة الكون العظيم، وبذلك نجد أن المسلمين لم يطورو الآلة فقط وإنما زادوا عليها في حلقات مكنتهم من عمل قياسات أفقية.

الجيب المجيب Sennero Quadrant يتكون من ربع دائرة يطلق عليه الربع المقطوع والربع المقنطر ويعمل من الخشب الجيد أو من البرونز أو الذهب أو الفضة ومعرفة البروج وعلم المزولة .. وغيرها.

بعد اكتمال الحلقة وتركيبها فوق سطح فيله وجدوا أن جبل المقطم يحول رصد الشمس عند شروقها وبالتالي قرروا نقل ذات الحلق إلى سطح مسجد الجيوشي فوق جبل المقطم والذي كان الوزير الأفضل أبا القاسم الجيوشي قد بناه أيضاً. ثم تم سبك حلقة جديدة قطرها 3.5 أمتار تحت إشراف الوزير الأفضل بأموال أقل من خزانة الدولة وتم بها رصد الشمس من فوق سطح مسجد الجيوشي وتم عمل تقاويم عام 513هـ.

وطبقاً للخطط المقريزية (وفي ليلة عيد الفطر عام 515هـ تم اغتيال وقتل الوزير الأفضل الجيوشي. حيث تولى الوزارة بعده القائد أبو عبد الله ودعي بالمأمون بن البطائحي الذي أمر بنقل ذات الحلق إلى باب النصر ورفعها إلى أعلى السطح حيث تمكنوا من رصد الشمس عند شروقها ثم تم سبك حلقة ثالثة قطرها 2.5 أمتار وقد سمى الوزير المرصد الجديد بباب النصر بأسمه فسماه مرصد المأمون ... مما أثار حفيظة الخليفة الآمر بأحكام الله ... لذلك قبض على الوزير المأمون ليلة السبت

ثالث شهر رمضان سنة تسع عشر وخمسمائة هجرية (519هـ) وكان من جملة ما عدد ذنوبه عمل المرصد المذكور والاجتهاد فيه وقيل أطمعته نفسه في الخلافة بكونه سماه المرصد المأموني ونسبه إلى نفسه ولم ينسبه إلى الخليفة الآمر بأحكام الله، وأما العامة والغوغاء فكانوا يقولون أرادوا أن يخاطبوا زحل وأرادوا أن يعلموا الغيب وقال آخرون منهم عمل هذا للسحر ونحو ذلك من الشناعات، فلما قبض على المأمون بطل وأنكر الخليفة على عمله فلم يجسر أحد أن يذكره وأمر فكسر وحمل إلى المناخات وهرب المستخدمون ومن كان فيه من الخاص وكان فيه من المهندسين رسم خدمته وملازمته في كل يوم بحيث لا يتأخر منه أحد الشيخ أبو جعفر بن حسنداي والقاضي بن ابن العيش والخطيب أبو الحسن علي بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتي الإسكندراني المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلي المهندس وغيرهم من الحساب والمنجمين كابن الحلبي وابن الهيثم وابن نصر تلميذ سهلون وابن دياب وجماعة يحضرون كل يوم إلى ضحوه النهار).

وهكذا أعدم الوزير المأمون .. وهدم مرصد باب النصر ـ وفر العاملين به .. وهكذا بدأ عصر الانحطاط في تاريخ العلوم في الحضارة العربية والإسلامية .. والذي استمر لمدة ستة قرون .. حتى بدأ عصر التنوير في عهد محمد علي مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي في مصر .. وغيرها من الحركات التنويرية في عدد من البلاد العربية والإسلامية.

المُجتمع والثقافة

الحياة الاجتماعيَّة

منحوتة من العصر الفاطميّ تعكسُ الرخاء الذي عاش فيه الحُكَّام والطبقة العُليا من الشعب: رجلٌ يحتسي الشراب وآخرٌ ينقرُ على الدف.

قسّم المقريزي المجتمع الفاطمي اجتماعيًا إلى طبقة الأغنياء وتضم رجال الدولة وكبار التجار، وطبقة متوسطة وتضم متوسطي الحال من التجار وأصحاب المحال والمزارعين، وطبقة الفقراء وتشمل الفقهاء وطلاب العلم والأجراء والحرفيين وذوي الحاجات من المساكين.

أما عرقيًا فقد كان المجتمع المصري قبل وصول الفاطميين يتكون من الأقباط واليهود وأهل السُنَّة، ثم دخل البربر والروم والصقالبة مع دخول المُعز لدين الله إلى مصر، ثم التُرك والديلم في عهد العزيز بالله، فالسود والأرمن في عهد المُستنصر بالله.

فانوس رمضان. أحد أبرز المعالم الثقافيَّة الفاطميَّة التي ما تزال حيَّة في مصر والعديد من أنحاء العالم الإسلامي.

شهد العصر الفاطمي عددًا من مظاهر العظمة والأبهة في أوساط الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة كأماكن الاستجمام التي كانوا ينتقلون إليها وقت الفيضان ومواكب الاحتفالات التي كان لها مواعيد محددة من كل عام.

وقد استحدث الفاطميون عددًا من الأعياد كرأس السنة الهجرية ومولد النبي والاحتفال بقافلة الحج،إضافة إلى المناسبات الشيعية كعاشوراء ومولد الحُسين ومولد السيدة فاطمة ومولد الإمام علي ومولد الحسن ومولد الإمام الحاضر وعيد غدير خم، كما كانوا يحتفلون بالاحتفالات المصريَّة كرأس السنة القبطية،وأعيادٌ أُخرى كعيد النيروز.

وسنَّ الفاطميّون عدَّة سُنن أصبحت جُزءًا لا يتجزّأ من الثقافة الإسلاميَّة عمومًا والمصريَّة خصوصًا، وما زال المُسلمون المصريّون تحديدًا وغيرهم من المُسلمين في الدُول والأقاليم المُجاورة يُحيون هذه السُنن، ولعلَّ أبرزها هو فانوس رمضان، فقد أعطى الفاطميّون هذا الشهر اهتمامًا خاصًّا، فإلى جانب المغزى الديني الكبير، حصل أن وقعت خلاله عدَّة أحداث بارزة في التاريخ الفاطمي، كفتح مصر قُبيل حلوله بأيَّام، ووضع حجر الأساس للجامع الأزهر (14 رمضان 359هـ) وإقامة الصلاة فيه لأوَّل مرَّة (7 رمضان 361هـ)، ووُصول الخليفة المُعز لدين الله للفسطاط مساء يوم 7 رمضان سنة 362هـ حيثُ تجمَّع الناس وهم يحملون الفوانيس لكي يُنيروا له الطريق. ونقل العامَّة عن الخاصَّة وأهل الحُكم الاهتمام برمضان، ولمَّا كان السهر يحلو خلال ذلك الشهر، كان لابد من الفوانيس.

وكانت الفوانيس سالِفة الذِكر أيضًا تُنير المساجد في الليالي، وتُغلَّف بالزُجاج المُلوَّن لتُعطي تأثيرًا بهيجًا للناظر، وكان الاهتمام بتزين المساجد يصل أقصى درجاته خلال شهر رمضان. كما كانت الفوانيس والقناديل تُضيئ الشوارع الرئيسيَّة المسقوفة، وإلى جانبها البيوت المؤلَّفة من عدَّة طبقات. وكان يُفرض على أصحاب الحوانيت أسعار مُحددة للبيع، فإذا غشَّ أحد الباعة عوقب على الشكل الآتي: يُطاف به على جمل أو على حمارٍ أو بغلٍ في الأسواق ويُجبر على أن يُنادي هو بذنبه، وعُرفت هذه العُقوبة لاحقًا باسم «الجُرصة».

وكان الأمنُ سائدًا في أكثر الأحيان، إلى حدٍّ أنَّ الحوانيت كانت تُترك مفتوحة ليلًا.

الحياة الفكريَّة والعلميَّة:

رسمٌ لأبي زيد الهلالي، أحد القادة العسكريين الفاطميين، والذي أوحت سيرته بكتابة ملحمة تغريبة بني هلال التي ذُكر فيها أنَّ أبا زيد قُتل على يد غريمه ذيب بن غانم.

شهدت الحياة الفكرية في العصر الفاطمي تنوعًا في الإسهامات، فشملت عددًا من الرسائل الأدبية النثرية كرسالة الغفران التي كتبها أبو العلاء المعري في إطار خيالي خصب ردًا على رسالةٍ لابن القارح تخيّل فيها المعري رحلة للرجلين في الجنة والجحيم، إضافة إلى الرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت الداني الذي تناولت مصر والمصريين، ذكر فيها محنته في سجن الأفضل شاهنشاه.

واهتموا بلون آخر من الكتابة، وهو كتابة السير الذاتية. من أمثلة هذه السير، سير كافور الإخشيدي والعزيز بالله الفاطمي لأحمد بن عبد الله الفرغاني، وسير أحمد بن طولون وابنه خمارويه ومحمد بن طغج الإخشيدي وسيبويه وكافور الإخشيدي وجوهر الصقلي والمعز لدين الله الفاطمي والعزيز بالله لابن زولاق وسيرة المعز لدين الله للقاضي النعمان والاعتبار لأسامة بن منقذ وهو سيرة ذاتية لكاتبه.

وقد برز من أدباء وكُتّاب ذاك العصر الوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي الذي اختصر كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت وأسماه «المنخّل»، وكتاب «أدب الخواص» الذي احتوى على قديم الشعر وأخبار القدماء وأنسابهم وبعض المواضيع في علوم اللغة، وأبي سعد محمد بن أحمد العميدي الذي ألّف عدد من الكتب في البلاغة والعروض والقوافي

وابن الصيرفي الذي صنّف بعض الكتب مثل «منائح القرائح» الذي كتبه مدحًا في الخلفاء الفاطميين و«الإشارة إلى من نال الوزارة» الذي ذكر فيه من تولى الوزارة في مصر إلى عصره والرُقيّق القيرواني الذي صنّف كتابًا في تاريخ إفريقية والمغرب منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن الخامس الهجري.

وقد أرخ للدولة الفاطمية الكثيرون كالمسبحي الذي كان له تاريخ يدون به الأحداث والمشاهدات اليومية، إضافة إلى وصف لمصر وأبنيتها وعجائبها وأطعمتها ونيلها وأشعار الشعراء وأخبار المغنين ومجالس القضاة والحكام والأدباء. إضافة إلى غيره من المؤرخين كابن زولاق وأبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي. أما اللغويين،

فبرز منهم علي بن أحمد المهلبي و ابن بابشاذ وأبو عبد الله محمد بن جعفر القيرواني وابن القطاع الصقلي وأبي بكر الإدفوي.

العلَّامة أبو عليّ الحسن بن الحسن بن الهيثم البصريّ، أبرز عُلماء العصر الفاطميّ ومُبتكر علم المناظر.

لعب الشعر أيضًا دورًا هامًا في الحياة الفكرية عند الفاطميين، حيث كان الشعر أحد أدوات دعوتهم السياسية، فخصصوا لهم ديوانًا يتولى أمورهم،واستخدموهم في مدح مذهبهم الديني وعقائدهم وأصولهم وحقهم السياسي في الخلافة، كما اتخذهم الخلفاء والوزراء أداه للمباهاة بالسلطان. وقد تنوعت موضوعات الشعر عند الفاطميين بين مديح للخلفاء والقادة، والتركيز على الأمور السياسية كإبراز أفضلية الفاطميين على العباسيين وأحقيتهم بالخلافة، والدينية كالحديث عن وصاية علي وفضل يوم الغدير.

ومن أشهر شعرائهم الرسّيون وهم من الأشراف العلويين وينتسبون إلى الشريف الرسيّ الذي دخل مصر في عهد كافور الإخشيدي، وابن وكيع التنيسي والشريف العقيلي وابن أبي الجوع وابن مكنسة. وقد شجعت عطايا الفاطميين للشعراء الكثيرين على الوفود على بلاطهم طمعًا في عطاياهم كابن هانيء الأندلسي وابن الرقعمق الأنطاكي والرقيق القيرواني وعبد المحسن الصوري وصريع الدلاء البغدادي وأبي الفتيان بن حيوس وأمية بن أبي الصلت وابن القطاع الصقلي وعمارة اليمني.

ولم يقتصر قرض الشعر على الطامعين في الهبات، بل برز من الفاطميين ووزرائهم من يحسن قرض الشعر كتميم بن المعز والوزير طلائع بن رزيك.

الجامع الأزهر، أبرز مراكز نشر الدعوة الدينيَّة والعلوم المُختلفة خلال العصر الفاطميّ.

وفي إطار سعي الفاطميين لنشر المذهب الإسماعيلي، أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة في 10 جمادى الآخرة 395 هـ وأجلس فيه الفقهاء والقرّاء والمنجمين وعلماء اللغة والنحو والأطباء، وخصص للدار قائمين عليها وخدم وفرّاشين، كما نُقلت لها الكتب من خزائن القصور. ظلت الدار مفتوحة للعوام حتى أغلقها الأفضل شاهنشاه في ذي الحجة 516 هـ خوفًا من فتنة دينية، إلى أن أمر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون البطائحي بإعادة فتحها بعد وفاة الأفضل.

لم يكن ذلك هو الاهتمام الفكري الوحيد من جانب الحكام الفاطميين، فقد استهواهم جمع الكتب، فكانت لهم خزانة كتب في القصر الشرقي الكبير احتلت أربعين غرفة منه، واحتوت على مليون وستمائة ألف مجلد منها 2,400 نسخة مزخرفة وملونة من القرآن ومنها بضع وثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد منها نسخة بخط الفراهيدي، وعشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطه، ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد. وقد احتوت المكتبة على الآف الكتب في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتواريخ وسير الملوك والتنجيم والروحانيات والكيمياء.

رغم ذلك، لم تسلم محتويات المكتبة من السلب والنهب، فتعرضت لنهب جنود الدولة نفسها في فترات الفوضى وضعف هيبة الخلفاء، فيحملون منها ما أمكنهم ويبيعونه في السوق، بل واستخدموا جلودها أحيانًا لصنع خفافًا لأحذيتهم.

لعب الأزهر والمساجد في العصر الفاطمي دورًا هامًا في الحركة العلمية الدينية، حيث اتخذها الفاطميون قواعد لنشر المذهب الشيعي الإسماعيلي، فأجلسوا فيه دعاة مذهبهم لشرح قواعد الفقه الإسماعيلي للحاضرين. لم يقتصر دور الأزهر الفاطمي على نشر المذهب الإسماعيلي، بل ضم حلقات علمية للمذاهب الأخرى، فكانت به خمس عشرة حلقة للمالكية ومثلها للشافعية وثلاث حلقات لأصحاب أبي حنيفة.

لم يقتصر نشر العلوم على المساجد فقط، بل وكانت قصور بعض الوزراء كيعقوب بن كلس الذي كان محبًا للعلم، فكان يجمع العلماء يكتبون القرآن والحديث والأدب والطب، ويُشكّلون المصاحف ويُنقّطونها. بل وألّف ابن كلس بنفسه كتبًا في القراءات والأديان وآداب الرسول والطب.

وفي مجال العلوم، فبرز عددًا من الأسماء كابن رضوان الذي برز اسمه في الطب والفلك، وابن يونس الذي برع في الرياضيات والفلك ، ووضع زيجًا فلكيًا أسماه الزيج الحاكمي وابن الهيثم رائد علم البصريات وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وعلي بن عيسى الكحال صاحب كتاب تذكرة الكحالين وابن المقشر وماسويه المارديني وابن بطلان وهم من الأطباء البارزين.

أمَّا بالنسبة للمُسلمين من غير الشيعة، ولِغير المُسلمين، فلا يُمكن الحديث عن ملامح عامَّة لأوضاعهم، وذلك لتبايُن أُسلوب التعاطي معهم من خليفةٍ إلى آخر، فبعضُ الخُلفاء كان مُتسامحًا لأبعد الحُدود مع أهل السُنَّة ومع النصارى واليهود، فأطلق لهم الحُريَّة الدينيَّة والمذهبيَّة، واستوزر منهم ورفع شأنهم، وبعضهم الآخر اضطهدهم اضطهادًا شديدًا. فعلى سبيل المِثال، اشتهر الخليفة المنصور ومن بعده المُعز لدين الله بتسامُحه الكبير مع أقباط مصر، وباستمالتهم إليه ومُولاتهم له بعد أن اتصل بقيادتهم الدينيَّة وأعلمهم بأنَّهُ سيمنحهم الحُريَّة الدينيَّة بعد أن نالهم الضيم جرَّاء المُمارسات القمعيَّة التي انتهجها الأخشيديين ضدَّهم أواخر عهد دولتهم.

ولمَّا فتح الفاطميّون مصر، سلك جوهر الصقليّ سُلوكًا دبلوماسيًّا هادئًا مع المصريين، فأعلن في خِطبة الجُمعة الأمان لأهل السُنَّة وللمسيحيين واليهود، واستقبل مُمثِّلُ الأقباط الذي كان يرفع صوته ويقول: «إِنَّنَا نَنْتَظِرُ وُجُودَكُم فِي مِصْرَ بِلَهْفَةِ المُضْطَهِدِ حَتَّى نَنْعَمَ بِالحُرْيَّةِ حَتَّى فِي حَيَاتِنَا اليَوْمِيَّةِ وَأَمْوَالَنَا وَمُمَارَسَةِ دِيَانَتِنَا».

وكان المُعز لدين الله، ابن العزيز، أكثر تسامحًا مع أهل الكتاب من غير المُسلمين، فقد جعل عيسى بن نسطورس وزيرًا له، وتزوَّج من امرأةٍ مسيحيَّةٍ ملكانيَّة،

وهي أُمُّ ولده الحاكم وشقيقة اثنين من البطاركة: أحدهما بطريرك كنيسة الإسكندريَّة، والآخر بطريرك كنيسة بيت المقدس، وكان يحتفلُ مع النصارى ويُشاركهم أعيادهم.

ومن شدَّة تسامح الخُلفاء الفاطميين الأوائل مع أهل الكِتاب، قيل بأنَّهم كانوا يُشجعون إقامة الكنائس والبيع والأديار، بل ربما تولوا إقامتها بأنفسهم أحيانًا.

تغيَّر وضعُ اليهود والنصارى مع تولّي الحاكم بأمر الله شؤون الخِلافة، فقسا عليهم في المُعاملة، ويُحتمل أن يكون ذلك بسبب ضغط المُسلمين بعامَّةً الذين ساءهم أن يتقرَّب الخُلفاء من غير المُسلمين ويُعينوهم في المناصب العُليا، فأصدر الحاكم أمرًا ألزم أهل الذمَّة بلبس الغيار، وبوضع زنانير مُلوَّنة مُعظمها أسود، حول أوساطهم، ولبس العمائم السود على رؤوسهم، وتلفيعات سوداء،وذلك لتمييزهم على المُسلمين. وفي وقتٍ لاحق منعهم من الاحتفال بأعيادهم، وأمر بهدم بعض كنائس القاهرة، كما صدر سجل بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس.

كان أهل السُنَّة يُشكلون غالبيَّة الشعب الفاطميّ، وكانت أوضاعهم مُتقلِّبة كأوضاع أهل الكِتاب، وفق سياسة الخليفة الفاطمي، وما تُمليه عليه طبيعة الأُمور. فمن مظاهر تسامُح الخُلفاء الفاطميين تعيين بعض عُلماء أهل السُنَّة في مناصب الوزارة والقضاء، فعلى سبيل المِثال، أنشأ الحاكم بأمر الله مدرسةً لتعليم الفقه المالكيّ، وأهداها دار كُتبٍ، وعيَّن أبا بكرٍ الأنطاكيّ ناظرًا لها، وخلع عليه وعلى مُدرِّسيها وأجلسهم في مجلسه.

كما أقدم على تعيين ابن أبي العوَّام قاضيًا للقُضاة، وعندما قال أعوانه له: «إنَّهُ ليس على مذهبك ولا على مذهب من سلف من آبائك»، قال: «هو ثقةٌ مأمونٍ مصريٍّ عارفٍ بالقضاء وبأهل البلد، وما في المصريين من يُصلحُ لهذا الأمر غيره».

ومن مظاهر التعصُّب ضدَّ أهلُ السُنَّة شُيوع سبّ الصحابة وكتابة ذلك على جُدران المساجد والحوانيت والمقابر والدور، وتلوينها بالأصباغ والذهب،ومنع صلاتيّ

التراويح والضُحى في جميع مساجد مصر زمن الخليفة سالِف الذِكر، تحت طائلة ضرب وتشهير من يؤديها.

وكان الوُلاة والأُمراء يُطبقون سياسة الخليفة في ولاياتهم القاضية بالتساهل أو التشدد مع أهل السُنَّة، فقد قبض نائب دمشق «تموصلت الأسود البربريّ» على رجلٍ مغربيٍّ في المدينة وضربه لارتكابه ذنبًا لم يذكره المؤرخون، لكن يُرجَّح أنه مذهبيّ، بدليل أنَّهُ طيف به في شوارع المدينة، ونودي عليه: «هذا جزاءُ من يُحب أبا بكرٍ وعُمر».

ظهرت خِلال العصر الفاطمي عدَّة طوائف وجماعات دينيَّة انشقت عن الإسماعيليَّة، ومن هذه الطائفة الدُرزيَّة، وتفصيل ذلك أنَّ الحاكم بأمر الله أرسل إلى الشَّام داعيةً اسمه «مُحمَّد بن إسماعيل الدَرَزي» لينشر الدعوة بين أبنائها، فنزل الدَرَزي في وادي التيم من البقاع، حيثُ كثُر أتباعه، ولكنَّ الدَرَزي شذَّ عن الدعوة التي أوفده الحاكم لنشر مبادئها، ودعا لنفسه، فنبذه أتباعه وقتلوه وتبرَّأوا من الانتساب إليه. وكثُر الدُعاة وكثُر الموحدون الدروز في وادي التيم، ومنه انتشروا في صفد وجبل لُبنان وحوران والكرمل. وكان من أبرز الدُعاة حمزة بن عليّ الزوزني، الذي يعود الفضل إليه في توطيد الدعوة وصيانتها ووضع أُسس المذهب وفلسفته.

الحياة الاقتصاديَّة

كان الإمام عُبيد الله المهدي أوَّل من نظَّم ماليَّة الدولة تنظيمًا دقيقًا، فقد وضع جميع الأموال المجموعة في الأمصار تحت تصرُّفه جاعلًا لها بيت مالٍ مُوحَّدٍ، فلمَّا وصل الإمام إلى بلاد كتامة وحلَّ في إيكجان، أمر بإحضار الأموال التي كانت عند الدُعاة وأُمراء القبائل والمشايخ، فأحضروها إليه فقبضها، وبعد ذلك نظَّم الجباية والضرائب والمُكوس، ثُمَّ شدَّ المال أحمالًا سيَّرها معه حيثُ استُخدمت لصالح الدولة. وقد أقام ديوانًا للماليَّة يُشرفُ على تسيير أُمورها، فانتعشت الدولة وبدأ فيها الرفاه.

«الفتخاء الإسلاميَّة». إحدى أبرز المنحوتات الفاطميَّة المُقتبسة عن الفارسيَّة الساسانيَّة، وهي لكائنُ الفتخاء (الشيردال) الخُرافي.

اعتنى الفاطميّون بالزراعة لأنَّها مورد مصر والشَّام الأوَّل. ومن أهم ما أنتجتهُ ضِفَّتا النيل الخصبتان: القمح، والذُرة، والقُطن، وقصب السُكَّر.[202] واشتهرت سواحلُ الشَّام بالحمضيَّات على أنواعها، كما اشتهرت سُفوحُ جبالها بالتُفَّاح، وكثُرت في سُهولها الداخليَّة أنواع العنب. كما عُرفت ألبانُ الشَّام وعسلها بالجودة.[232] وأهمُّ الصناعات الفاطميَّة كانت صناعة البناء، وصناعة الحفر على العاج والخشب، وصناعة التماثيل من البرونز والنُحاس. والمنسوجات صناعةٌ فاطميَّةٌ مشهورة، وقد كثُرت فيها صُور الحيوانات كالغزلان والأرانب والسِّباع، كما كانت تُزخرف بالخط العربي.

ويُلاحظ أنَّ الفاطميين في هذا المجال خالفوا دُول الخِلافة السَّابقة عليهم، فقد استباحوا تصوير الكائنات والأشخاص على مُنتجاتهم وحرفيَّاتهم على عكس أهل السُنَّة، الذين كثيراً ما تجنَّبوا ذلك خوفًا ممَّا جاءت به الأحاديث النبويَّة من مُعاقبة المصورين يوم القيامة، ولكن نظرًا لاختلاف تأويل بعض الأحاديث بين أهل السُنَّة والشيعة، ومُعارضة الفاطميين لعددٍ من التعاليم الفقهيَّة السُنيَّة، فقد زاولوا مهنة التصوير، وتأثَّرت مصنوعاتهم تأثُرًا كبيرًا بالمصنوعات الفارسيَّة الساسانيَّة القديمة.

من أبرز الصناعات الفاطميَّة التي شاعت في الشَّام أيضًا: صناعة الثياب المُقصَّبة وصناعة الطنافس. وتفوّقت مدينة صور بصناعة الخرز والزُجاج واستخراج السُكَّر، كما اشتهرت طرابلس بصناعة الورق للكتابة. وكانت مرافئ السَّاحل اللُبناني سوقًا رائجة لكُل المُنتجات الزراعيَّة والصناعيَّة، كما كانت مركزًا لتصديرها إلى مُدن حوضُ البحر المُتوسِّط.

ومن الصناعات الرائجة الأُخرى خلال العهد الفاطمي: صناعة الخزف وتجليد الكُتب والرسم على الأطباق المعدنيَّة. وقد نشطت هذه الصناعات بفعل رواج

الحركة التجاريَّة، فقد كان التُجَّار يتنقلون بين مصر والشَّام شرقًا إلى العراق وفارس وخُراسان والهند والصين، وبين مصر والمُدن الأوروبيَّة، وخاصَّةً جنوة والبُندقيَّة في إيطاليا.

أُصيب الازدهار الاقتصادي الفاطمي بنكسةٍ عظيمة زمن المُستنصر بالله، فأُصيبت البلاد بقحطٍ مُروعٍ أتى على الأخضر واليابس فعمَّت المسغبة البلاد وتضوَّر الناسُ جوعًا وقد أطلق المؤرخون على هذا القحط اسم الشدَّة العُظمى لفظاعته وهوله، و«الشدَّة المُستنصريَّة» كونها وقعت في عهد المُستنصر. وآل الأمر إلى أن باع المُستنصر كُلَّ ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس على حصيرٍ، وتعطَّلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن «الجوع ! الجوع!» تردن المسير إلى العراق فتسقطن عند المُصلى وتمتن جوعًا. واضطرَّ المستنصر إلى بيع حلية قبور آبائه حتَّى، واستمرَّ الوضع هكذا حتَّى انتهى القحط وتساقطت الأمطار وعاد النيلُ للجريان.

الحياة الدينيَّة:

طالع أيضًا: إسماعيلية الحشاشون موحدون دروز

كان دينُ الدولة الفاطميَّة الرسمي هو الإسلام، ومذهبُها هو المذهب الشيعي الإسماعيلي، وهو مذهبُ الخُلفاء وكِبار رجالات الدولة، واعتنقهُ قسمٌ من الشعب المُوالي للسُلطة، كالكتاميين البربر وبعضٌ من الصقالبة والروم وغيرهم من الأجانب الذين دخلوا مصر جنودًا في الجيش الفاطمي. وكانت مذاهب أهلُ السُنَّة والجماعة: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشَّافعيَّة، والحنبليَّة، هي الأكثر انتشارًا على المُستوى الشعبي، ومردُّ ذلك أنَّ الفاطميّون في بداية عهدهم اتبعوا وصيَّة الدَّاعي أبو عبد الله الشيعي القائلة: «إنَّ دَوْلَتُنَا دَوْلَةُ حُجَّةٍ وَبَيَانٍ، وَلَيْسَتْ دَوْلَةَ قَهْرٍ واستِطَالَةٍ، فَاتْرُكُوا النَّاسَ عَلَى مَذَاْهِبِهِم، وَلَا تُلْزِمُوْهُم بِاتِّبَاعِ الدَّعْوَةِ الهَادِيَةِ المَهْدِيَّة»، فلم يفرضوا التشيُّع بالقوَّة، بل عمدوا إلى الدعوة ونشر الدُعاة في طول البلاد وعرضها لحث الناس على اعتناق

المذهب الإسماعيلي. وكان الدُعاة الفاطميّون نوعين: الدُعاة الشعبيّون ولهم أعمال تتعلَّق بالإعداد الشعبي لإثارة النَّاس ضدَّ الحُكم، والدُعاة الدينيّون المُختصون بنشر فكرة الدعوة الإسماعيليَّة في صُفوف الشعب. وقد نشط الدُعاة نشاطًا عظيمًا في بداية عهد الدولة وخِلال عصرها الذهبي، فاستجابت لهم بعضُ قبائل كنانة في الفسطاط وجنوبها، وأخذت تُنادي بالخليفة الفاطمي المُعز لدين الله إمامًا وارتبطوا به عقائديًّا. وقد أمدَّ الخُلفاء الفاطميّون هذه الدعوات بكُلِّ ما تحتاجه من تمويلٍ ماديٍّ ومعنويٍّ خلال عصر الدولة الذهبي، واشتهر المُعز لدين الله بعنايته الشديدة لجهاز الدعوة المذكور، حتَّى أُشير بأنَّ الدُعاة وصلوا الأراضي الصينيَّة الخاضعة لأُسرة سونگ في أيَّامه.

وكان الخُلفاء يخلعون على الدُعاة النعم والأموال تقديرًا لخدمتهم المذهب الإسماعيلي وإخلاصهم للإمام، فها هو ذا أحد أشهر الدُعاة والمُلقَّب بفيلسوف الدعوة أحمد حميدُ الدين الكرماني يتحدثُ عن النعم الكثيرة التى أولاه إيَّاها الحاكم بأمر الله فيقول: «وَقَضَاءٌ بِحَقِّ النِّعْمَةِ فِيْمَا أَوْلَانِيَهُ وَلِيُّ اللهِ فِي أرضِهِ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَبَرَكَاتِهِ التِي أَصْبَحْتُ بِهَا فِي نِعْمَةٍ تَامَّةٍ وَرَوْضَةٍ مُدَهَامَةٍ، مَاؤُهَا مَعِيْنٌ وَهَوَاؤُهَا عَلَى المُرَادِ مُعِيْنٌ، وَكَأَنَّهَا حُوْرُ العِيْنِ، ثُمَّ شُكرًا عَلَى المَوْهِبَ، وَطَالِبًا لِلأَجْرِ وَالمَثْوَبَةِ».

ودرجاتُ الدُعاة عند الإسماعيليَّة سبع، هي: «الباب»، وهي أعلى درجاتُ الدُعاة، ولمَّا يصل إليها إلَّا أفرادٌ قلائلٌ، وأُحيط من يشغل هذه الدرجة بسريَّةٍ تامَّةٍ حتى في عصر الظهور. و«الحُجَّة» أو «داعي الدُعاة» ويكونُ بجانب الإمام وله الإشراف على كُلِّ شيءٍ يتصلُ بالدعوة، و«داعي البلاغ» وله رتبة الاحتجاج، و«الدَّاعي المُطلق» وله رُتبة تعريف التأويل بالباطن، و«الدَّاعي المحدود» ولهُ التعريف بالعبادات الظاهرة، و«الدَّاعي المأذون» وله أخذ العهد والميثاق، و«الدَّاعي المُكالب» أو «المُكاسر»، وهو الذي يستميل الناس إلى المذهب الإسماعيلي.

خلفاء الفاطميين

عبيد الـلـه المهدي

عبيد الـلـه بن الحسين المهدي يُعتَبرُ مؤسسَ سلالةِ الفاطميين، وهي الدولة الـشيعيّة الوحيـدة التي حكمت عموم المسلمين على غرار الخلافة الأموية والعباسية، وأَسّستْ حُكُـمَ الفـاطميون في كافـة أنحاء مُعظم شمال أفريقيا.

يعتبر مؤسس السلالةِ الفاطمية والإمام الحادي عشر للـشيعة الإسـماعيلية المـشهور أنـه عبيـد الـلـه بن الحسين الزكي عبد الـلـه والمتفق عليه عند الـشيعة الإسـماعيلية وأيـضا ايـده المقريـزي وابـن خلدون وبناء على هذا يرجع نسبه إلى فاطمة الزهراء، بنت نبي الإسلامِ، محمد، من خلال الحسين بـن علي.

نسبه

أنكر بعض المؤرخين نسبه إلى فاطمة الزهراء أمثال ابن حزم والسيوطي وغيرهما وانكـار نـسبه بدأ بصفة عامة في عام 1011، عندما أصدرَ الخليفة العباسي في بغداد وثيقة وقّعـت مِـن قِبـل العلـماءِ السنّةِ والشيعةِ المُخْتَلِفينِ في بغداد، تدّعي بأنّ السلالةَ الحقيقية له مِنْ ديصان ،بـدلاً مِـنْ بنـت رسـول الـلـه فاطمة الزهراء.

وبالتالي لا يستطيع أحـد القطـع بـرأي حاسـم في نـسب "عبيـد الـلـه المهـدي"، فـإن الـشيعة الإسماعيلية يؤكدون صحة نسبه إلى محمد بن إسـماعيل بـن جعفـر الـصادق، في حـين يـذهب بعـض المؤرخون من أهل السُنّة وبعض خصوم الفاطميين من الشيعة إلى إنكار نسب عبيد الـلـه إلى علي بـن أبي طالب.

ولكن على أية حال نحن أمام رجل يسمى عبيد الـلـه، ويـدّعي أنـه صـاحب الحـق في إمامة المسلمين، وأنه من سلالة الإمام جعفر الصادق، وقد نجح أحـد دعاتـه أبـو عبـد الـلـه الـشيعي في إقامـة دولـة باسـمه في إقلـيم إفريقيـة، وجـزء كبـير مـن المغـرب الأوسـط. ثـم

ذهب المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر وتم تأسيس مدينة القاهرة على يد جوهر الصقلي.

خروجه

خرج عبيد الله المهدي من مكمنه في "سلمية" من أرض حمص ببلاد الشام في سنة (292 هـ = 905م)، واتجه إلى المغرب، بعد الأنباء التي وصلته عن نجاح داعيته أبي عبد الله الشيعي في المغرب، وإلحاح كتامة القبيلة البربرية في إظهار شخصية الإمام الذي يقاتلون من أجله، وبعد رحلة شاقة نجح عبيد الله المهدي في الوصول إلى "سجلماسة" متخفيا في زي التجار، واستقر بها.

ومن ملجئه في سجلماسة في المغرب الأقصى أخذ عبيد الله المهدي يتصل سرًا بأبي عبد الله الشيعي الذي كان يطلعه على مجريات الأمور، ثم لم يلبث أن اكتشف "اليسع بن مدرار" أمير سجلماسة أمر عبيد الله؛ فقبض عليه وعلى ابنه "أبي القاسم" وحبسهما، وظلا في السجن حتى أخرجهما أبو عبد الله الشيعي بعد قضائه على دولة الأغالبة.

وكان أبو عبد الله الشيعي حين علم بخبر سجنهما قد عزم على السير بقواته لتخليصهما من السجن، فاستخلف أخاه "أبا العباس" واتجه إلى سجلماسة، ومر في طريقه إليها على "تاهرت" حاضرة الدولة الرستمية فاستولى عليها، وقضى على حكم الرّستميين، وبلغ سجلماسة فحاصرها حتى سقطت في يده، وأخرج المهدي وابنه من السجن.

ويذكر المؤرخون أن أبا عبد الله الشيعي حين أبصر عبيد الله المهدي ترجّل وقابله بكل احترام وإجلال، وقال لمن معه: هذا مولاي ومولاكم قد أنجز الله وعده وأعطاه حقه وأظهر أمره.

وأقام أبو عبد اللـه الشيعي وعبيد اللـه المهدي في سجلماسة أربعين يوما، ثم رحلـوا عائـدين فدخلوا رقادة في يوم الخميس الموافق (20 من شهر ربيع الآخر 297هـ= 7 من يناير 910م).

وخرج أهل القيروان مع أهل رقادة يرحبون بالإمام المهدي، وفي يوم الجمعة التـالي أمـر عبيـد اللـه أن يُذكر اسمه في الخطبة في كل من رقادة والقيروان، معلنـا بـذلك قيـام الدولـة الفاطميـة.وقـد اختطّ عبيد اللـه المهدي مدينة المهديّة وجعلها عاصمة لدولته بحكم موقعها المميّز، إذ أنها عبارة عن شبه جزيرة متصلة بالبر من جهة واحدة، فأنشأ فيها قـصره، ثـمّ قـصر ولـده القـائم بـأمر اللــه، كـما أحاطها بسور منيع لدرء الحملات البحرية.

وإلى جانب المهدية أقام المهدي زويلة التي بدأت أولاً بوصفها سوقاً عامـةً يجتمـع فيهـا تجـار القبائل فيبيعون ويشترون، وأرادها أن تكون - بالإضـافة إلى دورهـا الاقتـصادي - تجمعـاً تخـتلط فيـه القبائل وتشترك في معاشها إمعاناً في تحصين المهدية وحمايتها.

خلافة عبيد اللـه

استهدف عبيد اللـه الفاطمي منذ أن بويع بالخلافة واستقامت له الأمور أن يدعم مركزه، وأن تكون كل السلطات في يديه، وأن يكون السيد المطلق على الدولة الناشئة والدعوة الإسماعيلية.

وكان لا بد من أن يصطدم مع أبي عبـد اللــه الـشيعي مؤسـس الدولـة، ولم يجـد غـضاضة في التخلص منه بالقتل في سنة (298هـ= 911م) بعد أن أقام له دعائم ملكه، وأنشأ دولة بدهائه وذكائـه قبل سيفه وقوته، إلا أنه من ناحية أخرى شهد جنازته وأثنى عليه وذكر فضله.

أثار مقتل أبي عبد الـلـه الشيعي فتنة كبيرة قام بها أتباعه من أهل كتامة، وقدّموا طفلا ادعـوا أنه المهدي المنتظر، وامتدت هذه الدعوة وقويت، واضطر عبيد الـلـه إلى إرسال حملـة قويـة إلى أرض كتامة بقيادة ابنه لقمع هذه الفتنة، فألحق بهم الهزيمة، ويرد لـدى بعـض المـؤرخين أنـه قتـل الطفـل الذي ولّوه باسم المهدي.

وفاة عبيد الـلـه المهدي

وبعد فترة حكم ناهزت ربع قرن من الزمان توفي المهدي في (15 مـن ربيـع الأول 322 هــ= 5 من مارس 934م) وخلفه ابنه محمد القائم بأمر الـلـه، وكانت فـترة عبيـد الـلــه المهـدي بمثابـة عهـد التأسيس وإرساء القواعد، بعد عهد التمهيد والإعداد على يد الداعي أبي عبد الـلـه الشيعي.

الخليفة الثاني :القائم بأمر الـلـه

هو محمد بن عبيد الـلـه بن الحسين القائم بأمر الـلـه الخليفة الفاطمي الثـاني والإمـام الثـاني عشر في سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية.

تولى الخلافة عام 322 هجري بعد وفاة ابيه عبيد الـلـه المهدي

وفي عهده بل في نفس العام الذي تولى فيه الحكم توجـه جـيش الفـاطميين إلى الإسـكندرية في مصر التي كانت تحت حكم الإخشيد ولكن لحقت بالفاطميين هزيمة ولم يتمكنوا من دخولها.

وفي عهده أيضا غزا الأسطول الفاطمي جنوة الإيطالية وجزيرة سردينيا

وفي عهده كانت مقاتلة ثورة الخوارج التي كانت بزعامة ابن كيداد في وادي الملح ولكن بقتـل القائد الفاطمي ويستمر ابن كيداد في توسعاته.

توفي القائم عام 334 هجري وخلفه ابنه المنصور إسماعيل.

الخليفة الثالث:المنصور باللـه الفاطمي

هو إسماعيل بن محمد بن عبيد اللـه الملقب بالمنصور باللـه تـولى حكـم الدولـة الفاطميـة بعد وفاة ابيه القائم بأمر اللـه عام 334 هجري. وهو الإمام الثالث عشر في سلسلة أئمة الإسماعيلية ولم تدم فترة خلافته طويلا حيث مات في عام 341 هجريا.

الخليفة الرابع:المعز لدين اللـه

معد المعز لدين اللـه، المعز أبو تميم معدّ بن منصور (المهدية حوالي 932 - القاهرة 975) هو رابع الخلفاء الفاطميين في إفريقية (تونس حالياً) وأول الخلفاء الفاطميين في مصر. والإمام الرابع عـشر من أئمة الإسماعيلية حكم من 953 حتى 975. وقد أرسل أكفأ قواده وهو جوهر الصقلي للاستيلاء على مصر من العباسيين فدخلها وأسس مدينة القـاهرة بـالقرب مـن الفـسطاط، والتـي تعتـبر أول عاصـمة للعرب في مصر.

وقد تحدثنا عنه في جانب من الكتاب

الخليفة الخامس :العزيز باللـه الفاطمي

العزيز باللـه نزار بن معد بن إسماعيل (المهدية 344 هـ/955 م - القـاهرة 386 هــ/ 15 996 م) هو خامس الخلفاء الفاطميين والإمام الخامس عشر من أئمة الإسماعيلية

أهم اعماله

إعلان وظيفة الوزير التي لم تكن موجودة في البلاط الفاطمي من قبل وكان أول وزير للخليفة الفاطمي هو يعقوب بن كلس عام 367 هجري.

قطع الخطبة للخليفة العباسي في اليمن وإعلانها للعزيز باللـه الفاطمي.

حملة بقيادة جوهر الصقلي ضد أفتكين والقرامطة والسيطرة على دمشق 368 هجري.

خروج حملة ضد الروم الذين استولوا على حلب عام 386 هجري.

نساء في حياة العزيز بالله

لعبت المرأة دورًا مهما في حياة الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وبالرغم من أن المرأة ساهمت بنصيب كبير في سياسة البلاد الداخلية والخارجية في العصر الفاطمي، فإنها نالت في عهد الخليفة العزيز مكانة لم تحظ بها في أي من العهود السابقة.

السيدة المعزية أم الخليفة العزيز، زوجة الخليفة المعز لدين الله، والتي تلقبت بأم الأمراء، واسمها "تغريد" وقيل وهي "أم ولد" من أصل عربي تزوجها الخليفة المعز بالمغرب قبل أن يأتي إلى مصر، وكان لها نشاط تجاري واسع في مصر، وبالرغم من أنه لم يكن لها أي دور سياسي معروف فإن الخليفة المعز كان يتشاور معها في بعض الأمور السياسية على نحو ما يذكر المقريزي.

كما كانت لزوجته السيدة العزيزية مكانة كبيرة في حياته، وكان لها أثر كبير في كثير من السياسات التي انتهجها العزيز؛ فقد كانت تلك السيدة مسيحية على المذهب الملكاني -مذهب الكنيسة القسطنطينية- وهي أم ست الملك أخت الحاكم بأمر الله لأبيه، وكان لهذه السيدة سلطان كبير على الخليفة العزيز؛ وهو ما جعله يرفع أخويها إلى أرقى المناصب الكنسية، فعين أخاها "أُرِيسْتس" مطرانا على بيت المقدس سنة (375هـ= 985م)، وعين أخاها الآخر أرسانيوس مطرانا على القاهرة، ثم أصبح بطريركا على القاهرة بعد ذلك.

أما ست الملك ابنة الخليفة العزيز بالله وأخت الخليفة الحاكم بأمر الله فقد حظيت بمكانة عالية لدى أبيها الذي أحاطها بكل أسباب الترف والثراء، حتى إنه بنى لها القصر الغربي لتعيش فيه بمفردها، وكانت تمتلك ثروة كبيرة من التحف الثمينة

والجواهر النفيسة، ولها إقطاع في ضياع الصعيد والوجه البحري، فضلا عما كانت تملكه من الدور والبساتين.

مظاهر حضارية

وقد شهد عصر العزيز بالله العديد من مظاهر العمران والنهضة الحضارية التي شملت الكثير من العلوم والفنون والآداب. وكان من أبرز الآثار المعمارية التي أنشأها العزيز قصر اللؤلؤة الذي شيده على النيل، كما اهتم كذلك بالقصر الشرقي الكبير الذي أسسه جوهر الصقلي والذي يعد من أعظم عمائر الفاطميين.

وكانت القاهرة طوال العصر الفاطمي هي مركز الدعوة الإسماعيلية في العالم الإسلامي، وقد تركزت هذه الدعوة في بداية الأمر في الأزهر، وشهدت بداية خلافة العزيز بالله أولى حلقات الدراسة في الجامع الأزهر، حيث جلس القاضي علي بن النعمان في سنة (365هـ= 975م) ليملي مختصرا في الفقه على جمع كبير من العلماء والكبراء.

كما شهدت الفنون المتطورة ازدهارا كبيرا في العصر الفاطمي، حتى بلغت أقصى درجات الجودة والإتقان، ومن ذلك صناعة الخزف والمصنوعات الزجاجية، وخاصة في عهد الخليفة العزيز بالله.

أنشأ ملحقا بقصره ضم مكتبة ضخمة عرفت بكونها أكبر مكتبة في التاريخ الإسلامي ضمت مجموعة هائلة من ملايين المجلدات والكتب في شتي العلوم والآداب، لكن هذه المكتبة احترقت ودمرت وضاعت منها مئات آلاف الكتب والمجلدات حين وقع الخلاف بين الجنود السودانين والأتراك في عام 1068 م.حين لم يتمكن الخليفة آنذاك من دفع رواتب الجند، فهجموا علي المكتبة وأتلفوا محتوياتها، وأشار القلقشندي إلى نهاية المكتبة بقوله: (وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم... ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم (أي دولة

الخلفاء الفاطميين)". (من محاضرة ألقاها د. منصور سرحان مدير إدارة المكتبات العامة ببيت القرآن).

وشهدت مصر كذلك في عهده استقرارا ملحوظا ونهضة اقتصادية ورواجا تجاريا، فضلا عن النهضة العمرانية العظيمة وإنشاء العديد من المساجد والأربطة والمدارس، والاهتمام بالحدائق والبساتين وتشييد القصور الأنيقة والمباني الفخمة؛ وهو ما يعكس حياة الترف والرفاهية التي اتسم بها عهد العزيز.

وفاته

وصل ملك الروم إلى حلب فاستولى على ما فيها، ثم اتجه إلى حمص فاستولى عليها، وسار إلى طرابلس فحاصرها أربعين يوما دون أن يتمكن من فتحها، حتى اضطر إلى العودة إلى بلاده مرة أخرى.

وعندما علم العزيز بما حدث عظم ذلك عليه، ونادى في الناس بالخروج للقتال، وفتح خزائنه فأنفق منها على التجهيز للحرب، وأعد أسطولا حربيا جمع له العدد والآلات والأسلحة اللازمة.

ولكن حدثت مجموعة من الكوارث العجيبة والأحداث الغريبة، فقد احترق الأسطول الذي أنفق الكثير من الجهد والمال لتجهيزه قبل أن يخرج للقتال، فتمّ صنع أسطول آخر، فلما خرج إلى البحر هبت ريح قوية فتحطم الأسطول وغرق عدد كبير من الجنود.

ولكن ذلك كله لم يجعل الوهن أو اليأس يتسرب إلى نفس العزيز بالله، ولم يضعف ذلك من عزيمته، فخرج في جيوش هائلة إلى بلاد الشام لينتقل منها إلى أرض الروم.

ولم يكن يدري أن ساعات قليلة تفصل بين يومه الذي يحياه وغده الذي لن يراه؛ فقد اشتد عليه مرض "القولنج" الذي أصابه ببلبيس عند خروجه من مصر وتزايد

عليه حتى أودى بحياته في (28 من رمضان 386هـ= 15 من أكتوبر 996م) وهو في الرابعـة والأربعـين من عمره.

الخليفة السادس:الحاكم بأمر الـلـه المنصور

الحاكم بـأمر الـلــه المنـصور (985 - 1021) الخليفـة الفـاطمي الـسادس، حكـم مـن 996 إلى 1021.

ولد في مصر وخلف والده في الحكم العزيز بالـلـه الفاطمي وعمره 11 سنة, وتكنى بـأبى عـلى وهي كنية أخذها بعد ميلاد إبنه علي الذي تلقب بالظاهر لإعزاز دين الـلـه حينما تـولى الخلافـة بعـد اختفاء أبيه, ويعتبر البعض أن الحاكم كـان آخـر الخلفـاء الفـاطميين الأقويـاء. كانـت عينـاه واسـعتان وصوته جهير مخوف. اتسمت فترة حكمه بالتوتر، فقـد كـان عـلى خـلاف مـع العباسـيين الـذين كـانوا يحاولون الحد من نفـوذ الإسـماعيليين، وكـان مـن نتـائج هـذا التـوتر في العلاقـات أن قامـت الخلافـة العباسية بإصدار مرسوم شهير في عام 1011 وفيه نص مفاده أن الحاكم بأمر الـلـه ليس من سلالة علي بن أبي طالب. بالإضافة إلى نزاعه مع العباسيين فقد انهمك أيضا الحاكم بـأمر الـلــه في صراع آخـر مـع القرامطة.

الحاكم بأمر الـلـه يخلف أبيه علي حكم مصر 996م

تولي الحاكم بأمر الـلـه السلطة خلفاً لأبيه العزيز بالـلـه سنة 996 م / 386 هـج و كـان في 11 من عمره فتولي الوصاية عليه أبو الفتوح برجوان، الذي تنسب إليه حارة برجـوان. ثـم انفـرد الحـاكم بالسلطة و هو في الخامسة عشر من عمره.

يعد عهد الحاكم من أغرب العهود التي عاشتها مصر، فبعـد أن أمـسك الحـاكم بمقاليد السلطة من برجوان تحول إلي سفاك للدماء و أتي بأمور تشير إلي أنـه ربمـا كـان مختلاً عقلياً ، فقد قتل الحاكم أبا الفتوح برجوان خوفاً من سلطانه، و اضطهد العلماء و كتب علي المساجد سب الصحابة ولكنه عاد و محاه، و اضطهد أهـل الذمـة و هـدم

كنائسهم و أجبرهم علي لبس أجراس ثقيلة في رقابهم ، و لكنه عاد و عدل عن سياسته.

كما أدعي الحاكم بأمر اللـه الألوهيـة و معرفتـه بالغيـب، و هنـاك مخطـوط اسـمه "رسـائل الحاكم بأمر اللـه والقائمين بدعوته" تبين ما يدعيه الحاكم من صفات الألوهية.

وساعد الحاكم بأمر اللـه علي ظهور و انتشار المذهب الدرزي ، ففي سنة 1018 م / 408 هج ظهر رجل شيعي متطرف يدعي حمزة بن علي الزوزني أخذ يدعو لتأليه الحاكم بأمر اللـه عن طريـق حلول روح اللـه تعالي -معاذ اللـه - في آدم عليه السلام ثم انتقالها إلى علي بن أبي طالب ثم الحـاكم بأمر اللـه.

وصدق الحاكم مذهب الزوزني فانتشرت الفكرة بين كثير من السذج في الشام. ولما قتل الحاكم في القاهرة لم يعترف هؤلاء بموته بل اعتقدوا أنه سيرجع في آخر الزمان لأنه المهدي المنتظر.

ولقد انتشرت أفكار حمزة بن علي الـزوزني في الـشام عـلي يـد محمـد بـن اسـماعيل البخـاري الدرزي الذي ينسب إليه المذهب الدرزي، و يتركز معظم معتنقي هـذا المـذهب في سـوريا و لبنـان و فلسطين الآن.

أعمال الحاكم بأمر اللـه في مصر و نهايته

أتم الحاكم بأمر اللـه المسجد الحاكم الذي بدأه أبوه العزيز باللــه . كـما انـشأ دار الحكمـة سنة 1005 م / 395 هج لنشر المذهب الشيعي لتنافس المكتبات الكبري في بغداد العباسـية و قرطبـة الأموية، و كانت تضم عدداً من القراء و الفقهاء و المنجمين و النحاة و الغويين و الأطباء، و كـان بـدار الحكمة مكتبة سميت بدار العلم حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة من المكتبات.

مسجد الحاكم بشارع المعز بالقاهرة

اغتيل الخليفة الحاكم بأمر اللـه عام 1020 م / شـوال مـن عـام 411 هـج بعـد أن أمـضي 24 عاماً في الحكم ، و لا يعرف يقيناً كيف و لا من قتله ، و تقول المصادر التاريخية أن أختـه سـت الملـك تآمرت مع الوزير سيف الدين بن رواس عليه فبعثوا بعبيد خلفه فقتلوه و هو يتنزه في صحراء حلوان.

خلف الحاكم في الخلافة الفاطمية ابنه الظاهر لدين اللـه

تولي الظاهر لدين اللـه الحكم خلفاً لأبيه سنة 1020 م / 411 هـج ، و لكنـه كـان في 16 مـن عمره، فقامت عمته بالإشراف علي شؤون البلاد لمدة أربعة أعوام حتي توفيت عام 1024 م / 415 هج ، فأكمل الظاهر حكم الدولة. من أبرز معالم عهده أنه ألغي القوانين الشاذة التي أصدرها أبوه الحاكم بأمر اللـه ، كما عمل علي كسب ود أهل الذمة و أطلق لهم حرية إقامة شعائر دينهم.

أصيب الظاهر بمرض شديد حتي وافته المنية سنة 1035 م / شعبان 427 هج و هو في 31 مـن عمره ، فخلفه ابنه أبو تميم معد الذي لقب بالخليفة المستنصر باللـه.

سيرته وأحداث عصره

في بداية عهد الحاكم حاول بعض الطامحين استغلال صغر سنه لتحقيق أطماعهـم في الـسلطة فكان أولهم شيخ كتامة (أبو محمد بن عمار) الذي أجبر الحاكم على توليته لشئون الدولة فأصبح هـو المتصرف فيها ولُقب بـ(أمـين الدولـة). وكـان ينافـسه في الوقـت نفـسه رجـل آخـر وهـو (أبـو الفتـوح برجوان) وقد كان موجودا أيام العزيز باللـه ووصل إلى مرتبة (كبير الخـدم). ونجـح برجـوان في إثـارة طوائف المشارقة ضد طوائف المغاربة الذين استبدوا بالحكم مع سـيدهم (ابـن عـمار) وكانـت بيـنهم مواقع عديدة انتهت بانتصار (برجوان) وهروب (ابن عمار).

قام (برجوان) بإخراج الحاكم وأخذ له البيعة من جديد. ثم تولى شئون الدولـة وكـوّن لنفـسه طائفة خاصة من الجند والمماليك. ثم تلطَف بإبن عـمار ومنحـه إقطاعاتـه التـي كانـت لـه مـن قبـل، واشترط عليه الطاعة وبذلك استمال إليـه المغاربـة أيـضا. عـلى أن برجـوان سرعـان مـا جـنح للطغيـان والاستبداد فكان يعتبر نفسه الخليفة الحقيقى. وصار يستصغر خليفته الحاكم. كما أنه استغل منـصبه في تكوين ثروة ضخمة له. هذا بالإضافة إلى انشغاله بالـلـهو والملذات مما أدى إلى انصرافه عن شـئون الدولة التي تعطلت وفسدت من جراء ذلك. وقد نسى برجوان في غمرة ذلك أن الحاكم قد جـاوز سـن الصبا ودخل مرحلة الشباب وصار متنبها إلى استبداد برجوان وتغلبه عليه. وقام الحاكم بتدبير مـؤامرة لقتل برجوان ، وتم ذلك وأصدر الحاكم بيانا يبرر فيه أسباب قتل برجوان. ثم قام بعد ذلـك بـالتخلص من رجال برجوان في الجيش والقصر. كما أنه أعد كمينا لشيخ كتامة ابن عمار بأن حـرّض عليـه بعـض المشارقة الذين قتلوه ثم أفنى الحاكم أعوانه من شيوخ كتامة.

بذلك تمكن الحاكم من استرداد سلطانه والتخلص من كل المنافسين والسيطرة على كل مقاليـد الحكم وكان حينها قد تجاوز الـ15 سنة. أظهر الحاكم عندما تولى تقشفا وزهدا عـلى عكـس آبائـه. إذ أخرج من قصره جماعة من حظاياه وأعتق سائر مماليكه من الإنـاث والـذكور وملّكهـم أمـر نفوسـهم والتصرف فيما يملكونه وإقتنوه منه ومن أبيه. كما إنه انتقل تدريجيا من الملابـس المذهبـة عـلى عـادة آبائه إلى ملابس خشنة مـن الـصوف كـما أنـه خفـف مـن الإسراف الـذي كـان يحـدث في الاحتفـالات بالمناسبات المختلفة, وأمر كذلك بألا يصلى عليه أحد في كتاباته ويقتصر على هذه الصيغة: (سلام الـلـه وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين).

كان الحاكم مسرفا في القتل إلى مدى كبير لـكى يحفـظ دولتـه ويـصلح شـئونها وكان الحاكم شديدا في التعامل مع رجال دولته وكان يحاسبهم بشدة إذا أخطأوا. كما أنه اعتمد على نظر المظالم لتطهير دولته من الفساد. وكان يواصل ركوبـه لـيلا ونهـارا

على حماره ويطوف به في الأسواق والقرى لكى يسمع مظالم الناس. وقد ورث الحاكم عن أبيه العزيز بالله حرصه على توزيع المال على الفقراء والمساكين. ويشهد المؤرخون بأن يده لم تمتد على أخذ مال إطلاقا بحيث قال أحدهم - وهو نصرانى - (لعمرى إن أهل مملكته لم يزالوا في أيامه آمنين على أموالهم, غير مطمئنين على أنفسهم), كما أنه أيضا حرص على تخفيف الضرائب عن رعاياه خاصة ما تعرف بضريبة المكوس (reference?).

روي عن الحاكم في بداية عهده أنه كان سخيّاً معطاءً فبعد أن تولى الخلافة أجزل العطاء لكتامة. كما يروي المقريزي شكل الاحتفالات في عهده لكافة الطوائف ففي عهده احتفل المسيحيون بالغطاس بشكل كبير ومهيب كما أعطى للأتراك خيلا وسلاحا في عيد النوروز.

أهم المراسيم التي أصدرها

قرئ سجل في الأطعمة بالمنع من أكل الملوخية والبقلة المسماة بالجرجير والمتوكلية المنسوبة إلى المتوكل.

المنع من عجن الخبز بالرجل والمنع من أكل الدلنيس والمنع من ذبح البقر التي لا عاقبة لها إلا في أيام الأضاحي وما سواها من الأيام، ولا يذبح منها إلا ما لا يصلح للحرث.

وقرئ سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر في أول الساعة السابعة ويؤذن لصلاة العصر في أول الساعة التاسعة.

إصلاح المكاييل والموازين والنهي عن البخس فيهما، والمنع من بيع الفقاع وعمله ألبتة لما يؤثر عن علي من كراهة شرب الفقاع.

ضرب في الطرقات بالأجراس، ونودي ألا يدخل الحمام أحد إلا بمئزر وألا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج.

لا يباع شيء من السمك بغير قشر ، وأن لا يصطاده أحد من الصيادين.

تتبعت الحمامات وقبض على جماعة وجدوا بغير مئزر فضربوا وشهروا.

ومما يروى عنه أيضا أنه رسم لجماعة من الأحداث أن يتقافزوا من موضع عال في القصر ورسم لكل منهم بصلة فحضر جماعة وتقافزوا فمات منهم نحو ثلاثين إنسانا من أجل سقوطهم خارجاً عن الماء على صخر هناك ووضع لمن قفز ماله.

أمر بكنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور في كل مكان .

فتح دار الحكمة بالقاهرة وحمل الكتب إليها وانتصب فيها الفقهاء والقراء والنحاة وغيرهم من أرباب العلوم، وفرشت وأقيم فيها خدام لخدمتها، وأجريت الأرزاق على من بها من فقيه وغيره وجعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر والأوراق والأقلام.

ذكر جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن الوقائع في عهد القادر بالله العباسي ما نصه : في سنة 396 هـ أمر - أي الحاكم بأمر الله - الناس بمصر والحرمين إذا ذكر الحاكم أن يقوموا ويسجدوا في السوق وفي مواضع الاجتماع.

في عام 398 هجريا في المحرم ابتدأ نقص ماء النيل من ثامن عشر توت فاشتد الأمر وبيع الخبز مبلولا وضرب جماعة من الخبازين.

ويرى البعض أن هذه المحاولات غالبا مجرد تجنى على الحاكم من أجل تشويه صورته، إذ لم يذكر هذه المحاولات أى مؤرخ من المؤرخين المصريين الذين كتبوا تاريخ الفاطميين سواء كانوا مؤيدين لهم أو معادين ومنهم: المقريزي، ابن تغري بردي، وجاء ذكر ذلك لأول مرة في كتاب المؤرخ الحافظ البغدادي (تاريخ بغداد)وكتاب تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي وغيرهما.

الدعوة التوحيدية أو(الدرزية)

ظهر داع اسمه حمزة بن علي الزوزني وتلقب بالهادي وأقام بمسجد تبر خارج القاهرة. وبث دعاته في أعمال مصر والشام وكان عالما من أعلام الشريعة وأسقط جميع التكاليف الجسمانيه في الصلاة والصوم واهتم وأتباعه بالصلاة الروحانية فالصلاة تعني صلة العبد بالخالق سبحانه وتعالى. على هذا الأساس اطلق دعوته التوحيدية الداعية إلى توحيد الله والابتعاد عن أي شرك يشرك أحد بالله فهو بنضره المنزه الذي لا يحده شي ولا شبيه له، واحد أحد لم يلد ولم يولد ونحو ذلك، فاستجاب له خلق كثير. فظهر حينئذ مذهب التوحيد في بلاد إيران وأفغانستان والهند وبلاد صيدا وبيروت وساحل الشام. أما اللقب الحالي لاتباع الإمام حمزة بن علي فهي (الدرزيه)، فهم يرفضون تسميتهم "بالدروز" ويفضلون "الموحدين"، إذ انهم يقولون انهم ورثوا هذا الاسم عنوة عنهم فالدرزية هي كلمة تركية الأصل لا صلة لها بعقيدتهم. وإذا عدنا للواقع فان كتبهم(reference?) التي تدعوهم لاتباع القران الكريم وتشرح تعاليم المذهب على رغم كثرتها لا توجد فيها أي ذكر لذلك الداعي الذي يلعنوه ويقولون انه من اتباع ابليس أي (نشتكين الدرزي) فهو من الخارجين عن الدعوة التوحيدية. ولم يطع الداعي حمزة بن علي مؤسس دعوته مماستحق القتل على ايديهم لاحقاَ في بلاد الشام.

اختفاء الحاكم

تختلف المصادر في تفصيل مقتل الحاكم، لكن هناك روايات كثيرة ترجح أنه كان ضحية مؤامرة دبرت ضده من أعدائه الكثيرين انتهت بمقتله، وإن كان متواتراً في الروايات السنية والقبطية قتله على يد اخته ست الملك لأسباب شخصية. كذلك حاول الحاكم تغيير نظام الوراثة المعمول به كأصل من أصول المذهب الشيعي الإسماعيلي، فالإمامة لابد أن تكون في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم، وأن تنتقل من الأب للإبن لأنهم كانوا يعتقدون أن للإمامة صفات وعلوم خاصة لابد أن

تنتقل بالوراثة، وقد التزم الفاطميون منذ إنشاء دولتهم بهذا النظام، لكن الحاكم حاول مخالفة هـذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم ابن إلياس، وأخذ له البيعة على جميع رجـال الدولـة، ودعا له بمكة وأمر الناس بالسلام عليه بأن يقولوا " السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين " وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه بجانب اسم الخليفة على العملة. ولم تؤدِّ محاولته هذه سوى لانقسام خطير انتهى بمقتله ومقتل ابن عمه. الرواية الأشهر تقول أنه خرج كعادته في الليل على حماره إلى جبل المقطم ليتدبر في ملكوت الله ولم يعد، فأُرسِل الجند يقتفون أثره لعلهم يجدوه، فلم يعثروا إلا على عباءته الملطخة بالدماء، وتلت هذه الواقعة أربع سنوات اعترف بعدها أحدهم بقتل الحاكم.

الخليفة السابع:الظاهر لإعزاز دين الله

هو الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله منصور. أمه أم ولد تدعى رقية ويقال اسمها آمنة بنت الأمير عبد الله بن المعز . عاش (20 يونيو 1005 - 13 يونيو 1036) خلفا لابيه الخليفة المنصور الحاكم بأمر الله ، وخلفه ابنه الخليفة أبو تميم معد المستنصر بالله وجد الخليفة أبو القاسم المستعلى بالله أحمد.

هو علي الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن المنصور الحاكم بأمر الله بن نزار العزيز بالله بن معد المعز لدين الله بن إسماعيل المنصور بالله بن محمد القائم بأمر الله بنعبيد الله المهدى.

الخليفة الفاطمي السابع (1021 - 1036) ، والإمام السابع عشر من أئمة الشيعة الإسماعيلية.

ولادته

ومولده بالقصر من القاهرة على مضي ثلاث ساعات من ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة 395 هجري وبويع بالخلافة في يوم عيد الأضحى سنة 411

هجري وله من العمر ست عشرة سنة وثلاثة أشهر. واتفق في هـذا اليـوم أن صُلى للحـاكم في خطبـة العيد . ثم بويع الظاهر بعد عودة القاضي من المصلى فكان بين الدعاء في الخطبـة للحـاكم وبـين أخـذ البيعة للظاهر ثلاث ساعات ولم يتفق مثل ذلك.

خلافته

ويروي المقريزي أن السيدة ست الملك هي التي خلعت عليه لقب الظاهر لإعـزاز ديـن اللــه بعد أن ألبسته تاج المعز لدين اللـه حيث يقول ما نصه:

"فأخرجت علي بن الحاكم بأمر اللـه ولقبته الظاهر لإعزاز دين اللـه وألبسته تاج المعـز جـد أبيه . وهو تاج مرصع بالجواهر الفاخرة وجعلت على رأسه مظلة مرصعة. وأركبته فرسا رائعـا بمركـب ذهب مرصع وأخرجت بين يديه الأمير الوزير رئيس الرؤساء ، خطير الملك أبا الحسن عمار بـن محمـد ونسيماً صاحب السيف في عدة من الأستاذين تخدم. فلما برز وشوهد تقـدم الـوزير وصـاح: يـا عبيـد الدولة مولاتنا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه فقبل ابـن دواس الأرض ومـرغ خديـه بين يديه وفعل ما يتلوه من سائر طبقات العسكر مثل ذلك . وضربت البوقات والطبول وعـلا الـصياح بالتكبير والتهليل والظاهر يسلم على الناس يمينا وشمالا."

سيرته وعصره

وملك الظاهر لإعزاز دين اللـه سائر ممالك والده، مثل الشام والثغور وإفريقية، وقامت عمته ست الملك بتدبير مملكته أحسن قيام، وبذلت العطاء في الجند وساست الناس أحسن سياسة.

وكان الظاهر لإعزاز دين اللـه عاقلاً سمحاً جواداً يميل إلى دين وعفة وحلـم مـع تواضـع. أزال الرسوم التي جددها أبوه الحاكم إلى خـير، وعـدل في الرعيـة وأحـسن الـسيرة، وأعطـى الجنـد والقـواد الأموال، واستقام له الأمر مدة، وولى نوابه بالبلاد الشامية.

إلى أن خرج عليه صالح بن مرداس الكلابي وقصد حلب وبها مرتضى الدولة أبو نصر بن لؤلؤ الحمداني نيابة عن الظاهر هذا، فحاصرها صالح المذكور إلى أن أخذها.

ثم تغلب حسان بن المفرج بن دغفل البدوي صاحب الرملة على أكثر الشام، وتضعضعت دولة الظاهر.

واستوزر الوزير نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجرائي. وكان الوزير هذا من بيت حشمة ورياسة، وكان أقطع اليدين من المرفقين، قطعهما الحاكم بأمر الله في سنة 404 هجري، وكان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد الله القضاعي، وكانت العلامة الحمد لله شكراً لنعمته.

ولم يظهر أمر هذا الوزير إلا بعد موت عمة الظاهر ست الملك بعد سنة415 هجري.

وكان الظاهر لإعزاز دين الله كثير الصدقات منصفاً من نفسه، لا يدعي دعاوى والده وجده في معرفة النجوم وغيرها من الأشياء،

وقع من بعض حجاج المصريين كسر الحجر الأسود بالبيت الحرام في سنة 413 هجري. وكان أمر الحجر أنه لما وصل الحاج المصري إلى مكة المكرمة وثب شخص من الحاج إلى الحجر الأسود وهو مكانه من البيت الحرام، وضربه بدبوس كان في يده حتى شعثه وكسر قطعاً منه، وعاجله الناس فقتلوه، وثار المكيون بالمصريين فقتلوا منهم جماعة ونهبوهم، حتى ركب أبو الفتوح الحسن بن جعفر فأطفأ الفتنة ودفع عن المصريين.

وقيل: إن الرجل الذي فعل ذلك كان من الجهال الذين استغواهم الحاكم وأفسد عقائدهم. فلما بلغ الظاهر ذلك شق عليه وكتب كتاباً في هذا المعنى.

وفاته

وتوفي ببستان الدكة خارج القاهرة في ليلة الأحد النصف من شعبان سنة 427 هجري وعمره إحدى وثلاثون سنة. ومدة خلافته خمس عشرة سنة.

الخليفة الثامن:المستنصر بالله الفاطمي

هو أبو تميم معد بن الظاهر المعروف بالمستنصر بالله بن علي الظاهر لإعزاز دين الله وهو الخليفة الفاطمي الثامن والإمام الثامن عشر في سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية.

كانت الدولة الفاطمية حين اعتلى عرشها الخليفة المستنصر بالله الفاطمي قد استقرت تمامًا، واتسعت اتساعًا هائلاً، وبلغت دعوتها الشيعية أقصى مدى لها في الذيوع والانتشار، وامتلأت خزائنها بالأموال. غير أن وقوعها في أيدي المغامرين والطامحين، واشتعال الفتن والثورات بين فرق الجيش، والتنافس على الجاه والسلطان أضاع منها كل شيء. واختُزلت الدولة التي كانت تمتد من أقصى المحيط الأطلسي إلى الفرات في مصر فقط . وبعد أن كانت ترفل في غناها وثرائها وكثرة خيراتها أصبح يعلوها الذبول والشحوب بفعل المجاعات التي أصابتها. هذا التحول من السعة إلى الضيق ومن الغنى إلى الفقر هو ما شهده عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

عصر القوة والازدهار

في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق (17من جمادى الآخرة 420هـ =5 يوليو 1029م) ولد أبو تميم معد بن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله في القاهرة . ولا يعرف شيء عن حياته الأولى قبل توليه الخلافة التي اعتلاها وهو دون الثامنة من عمره بعد وفاة أبيه في (15 من شعبان 427هـ = 13 من يونيو 1036م).

وكانت البداية الأولى لعصر المستنصر بالله زاهية ناضرة بفضل الوزير القوي أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، وكان قد سبق له أن عمل وزيرًا في عهد الحاكم

بأمر الله وابنه الظاهر، وأكسبته هذه السنوات خبرة واسعة ودراية بشئون الحكم . فسيطر على الدولة سيطرة تامة وأحسن سياستها وتوجيه شئونها حتى توفي في (رمضان 436هـ = مارس 1045م) بعد وزارة دامت ثمانية عشر عامًا تركت أثرًا طيبًا في تاريخ الدولة . وقد زار مصر الرحالة الفارسي ناصر خسرو عقب وفاة الجرجرائي، فأشاد برخاء مصر وأمنها، ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها وصف المعجب بما رأى وشاهد.

وامتد سلطان الخلافة ليشمل بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية، وشمال إفريقيا، وتردد اسم الخليفة على المنابر في هذه البلاد . وتطلع إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية السُّنّية ليضمها إلى سلطانه، فنجح في استمالة "أبي الحارث أرسلان البساسيري" أحد قادة العباسيين، ومدّه بالأموال والذخائر . فثار على الخليفة العباسي واستولى على بغداد، وأقام الخطبة بها للمستنصر لمدة عام وذلك في سنة (450هـ = 1058م) ، وألزم الخليفة "القائم بأمر الله" العباسي بكتابة كتاب يقر فيه بأنه "لا حق لبني العباس ولا له من جملتهم في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء" . غير أن حركة البساسيري لم تستمر، ولم تعززها الدولة الفاطمية مع أنهم كانوا ينتظرون هذه الفرصة وفي الوقت نفسه كانت قوة السلاجقة قد بدأت في الظهور، فقدم زعيم السلاجقة "طغرل بك" إلى بغداد، وأنهى حركة البساسيري، وأعاد الخليفة العباسي إلى منصبه.

اضطراب الأحوال الداخلية

بعد وفاة الوزير القوي أبي القاسم الجرجرائي بدأت أم الخليفة المستنصر تتدخل في شئون الدولة وصار لها الكلمة الأولى في تعين الوزراء والإشراف على تصرفاتهم . وأصبحت الدولة في يد أعوانها وتلقبت بـ"السيدة الملكة"، ويخاطبها الرجال في حضرة ابنها الخليفة بمولاتهم، ويشار إليها بالجهة الجليلة والستر الرفيع.

وأسفر تدخلها في شئون الحكم عن إذكاء نار العداوة والفتنة بين طوائف الجيش . فاشتعلت المنازعات والمعارك بينهم . ولم تجد أم الخليفة وزيرًا قويًا بعد عزل

"اليازوري" سنة (450 هـ=1058م) من يمسك بزمام الأمور ويسوس الجند، وهو ما جعل أحوال البلاد تسوء بسرعة ويعمها الفوضى والاضطراب، ويحل بها الخراب.

الشدة العظمى

شاءت الأقدار أن لا تقتصر معاناة البلاد على اختلال الإدارة والفوضى السياسية، فجاء نقصان منسوب مياه النيل ليضيف إلى البلاد أزمة عاتية . وتكرر هذا النقصان ليصيب البلاد بكارثة كبرى ومجاعة داهية امتدت لسبع سنوات متصلة من (457هـ = 1065م) إلى سنة (464=1071م) . وعُرفت هذه المجاعة ب الشدة المستنصرية أو الشدة العظمى.

وقد أفاض المؤرخون فيما أصاب الناس من جراء هذه المجاعة من تعذر وجود الأقوات وغلاء الأسعار، حتى ليباع الرغيف بخمسة عشر دينارًا . واضطرار الناس إلى أكل الميتة من الكلاب والقطط، والبحث عنها لشرائها. بل أن بعض المؤرخين ذكروا اكل الناس جثث من مات منهم . وصاحب هذه المجاعة انتشار الأوبئة والأمراض التي فتكت بالناس حتى قيل: إنه كان يموت بمصر عشرة آلاف نفس، ولم يعد يرى في الأسواق أحد، ولم تجد الأرض من يزرعها، وباع الخليفة المستنصر ممتلكاته، ونزحت أمه وبناته إلى بغداد . وساء به الحال حتى أن بعضهم ممن كانوا في بعض من اليسر كان يتصدّق عليه بما يأكل في يومه.

وكان من نتيجة هذه الأزمة العاتية أن أخذت دولة المستنصر بالله في التداعي والسقوط . وخرجت كثير من البلاد عن سلطانه، فقُتل البساسيري في العراق سنة (451هـ =1059م). وعادت بغداد إلى الخلافة العباسية، وقُطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة . وخُطب للخليفة العباسي في سنة (462هـ == 1070م)، ودخل النورمان صقلية واستولوا عليها . فخرجت عن حكم الفاطميين سنة (463هـ == 1071م) بعد أن ظلت جزءًا من أملاكهم منذ أن قامت دولتهم.

وتداعى حكم المستنصر في بلاد الشام، فاستقل قاضي صور بمدينته سنة (462هـ == 1070م) وخرجت طرابلس من سلطان الفاطميين، وتتابع ضياع المدن والقلاع من أيديهم، فاستقلت حلب وبيت المقدس والرملة عن سلطانهم في سنة (463هـ == 1071م) ثم تبعتهم دمشق في العام التالي.

بدر الدين الجمالي والخروج من الأزمة

لم يكن أمام الخليفة المستنصر بالله للخروج من هذه الأزمة العاتية سوى الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فرض النظام، وإعادة الهدوء والاستقرار إلى الدولة التي مزقتها الفتن وثورات الجند، وإنهاء حالة الفوضى التي عمت البلاد، فاتصل ببدر الجمالي واليه على "عكا"، وطلب منه القدوم لإصلاح حال البلاد، فأجابه إلى ذلك، واشترط عليه أن لا يأتي إلا ومعه رجاله، فوافق الخليفة على شرطه.

وما إن حل بدر الجمالي بمدينة القاهرة حتى تخلص من قادة الفتنة ودعاة الثورة، وبدأ في إعادة النظام إلى القاهرة وفرض الأمن والسكينة في ربوعها، وامتدت يده إلى بقية أقاليم مصر فأعاد إليها الهدوء والاستقرار، وضرب على يد العابثين والخارجين، وبسط نفوذ الخليفة في جميع أرجاء البلاد.

وفي الوقت نفسه عمل على تنظيم شئون الدولة وإنعاش اقتصادها، فشجع الفلاحين على الزراعة برفع جميع الأعباء المالية عنهم، وأصلح لهم الترع والجسور، وأدى انتظام النظام الزراعي إلى كثرة الحبوب، وتراجع الأسعار، وكان لاستتباب الأمن دور في تنشيط حركة التجارة في مصر، وتوافد التجار عليها من كل مكان.

واتجه بدر الجمالي إلى تعمير القاهرة وإصلاح ما تهدم منها، فأعاد بناء أسوار القاهرة وبنى بها ثلاثة أبواب تعد من أروع آثار الفاطميين الباقية إلى الآن وهي: باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة، وشيد مساجد كثيرة فبنى في القاهرة مسجده المعروف بمسجد الجيوش على قمة جبل المقطم، وبنى جامع العطارين بالإسكندرية.

ولم يكن للوزير بدر الجمالي أن يقوم بهذه الإصلاحات الماليـة والإداريـة دون أن يكـون مطلـق اليد، مفوضا من الخليفة المستنصر، وقد استبد بدر الجمالي بالأمر دون الخليفة، وأصبحت الأمور كلهـا في قبضة الوزير القوي، الذي بدأ عصرا جديدا في تاريخ الدولة الفاطمية في مـصر، تحكـم فيـه الـوزراء أرباب السيوف، وهو ما اصطلح عليه بعصر نفوذ الوزراء.

لقد كان لدور بـدر الـدين الجـمالي في اسـتعادة الأمـن واسـتتبابه والعـودة بالدولـة إلى سـابق عهدها، بالغ الأثر في قلوب المصريين حتى أنهم اطلقوا اسمه على أحد أشهر أحيائهم آنذاك وهـو حـي الجماليّة الذي ما زال معروفاً إلى اليوم في مصر.

نهاية الخليفة المستنصر

بلغت سطوة بدر الجمالي أن عهد بالوزارة لابنه الأفضل الـذي كـان يـشاركه في أعـمال الـوزارة فلما توفي بدر في جمادى الأولى (487هـ =1094م) خلفه ابنه في الوزارة، وأقره الخليفة على منصبه، ثم لم يلبث أن توفي المستنصر بعد ذلك بشهور في (18 من ذي الحجة سنة 487هــ =29 ديـسمبر 1094م) عن عمر يناهز سبعة وستين عامًا، وبعد حكم دام نحو ستين عامًا.

الخليفة التاسع:المستعلي بالـلـه

أبو القاسم المستعلي بالـلـه أحمد بن معد بن الظـاهر بـن عـلي بـن منـصور (1074 - 1101) كان تاسع الخلفاء الفاطميين في مصر والمغرب والإمام التاسع عشر عند الإسماعيلية المستعلية.

ولد في القاهرة في سبتمبر سنة 1074م وتولى بعد موت أبيـه المستنـصر بالـلــه متخذا لقب المستعلي بالـلـه، وبويع في يوم عيد الغدير، في 3 يناير 1095م. في عهـده وقعت اشتباكات ومعارك ما بين أمير جيشه ووزيره الأفضل شاهنشاه بن بـدر الـدين

الجمالي والصليبيين في بلاد الشام، استطاع الصليبيون بها الاستيلاء على القدس مجددا.

مات المستعلي بالـلـه في مدينة القاهرة في عام 1101م بعد حكم دام سبع سنوات وشهرين.

الخلاف على توليته ودور الأفضل

بعد موت المستنصر بالـلـه نشب خلاف بين من رؤوا أن ابنه نزار هو الأحق بالخلافة وبين من رؤوا أن أحمد هو الأحق. كان وزير المستنصر القوي الأفضل شاهنشاه مؤيدا للمستعلي وأكثر الأطـراف المتنازعة نفوذا، مما حسم الخلاف لصالح هذا الأخير وأدى إلى سجن نزار وموته لاحقـا في الـسجن ثـم خروج ابنه الهادي بن نزار في أتباعه إلى آسيا الوسطى محدثين بـذلك انـشقاقا جديـدا في الإمامـة، بـين مستعلية ونزارية.

كان الأفضل نافذا ومـؤثرا في حكـم المـستعلي واسـتمر نفـوذه إلى أن انقلـب عليـه الآمـر ابـن المستعلي.

الخليفة العاشر:الآمر بأحكام الـلـه

أبو علي منصور بن أحمد (ولد 1096 - مات 1130) تلقب عنـد توليتـه بلقـب الآمـر بأحكـام الـلـه فكان الخليفة الفاطمي العـاشر والإمـام العـشرين للإسـماعيلية المـستعلية، وهـو ابـن المـستعلي بالـلـه (1094 - 1101)، الخليفة الفاطمي التاسع. حكم منذ عام 1101 وهو صبي، وو حتى وفاته.

في 1121 انقلب الآمر بأحكام الـلـه على وكيله الأفضل شاهنشاه ووكيل أبيه مـن قبلـه، فقتلـه وعين مكانه المأمون البطائحي فاستطاع السيطرة على حكومته.

في عهده أخذ الفرنج عكا عام 1103، كما أخذوا طرابلس عام 1108. وبعد ذلك تسلموا تبنين عام 1117، وصور عام 1124، وأخذوا بالسيف بيروت عام 1109، وصيدا عام 1110، وسقطت الفرما للملك الإفرنجي بردويل.

كان الآمر في هودجه يتنزه فيما بين القاهرة والجزيرة في ذي القعدة سنة 524 عندما هاجمته جماعة مسلحة بالسيوف يروي المقريزي أنها تابعة للنزارية الذين أرادوا الانتقام منه لما كان من شقاق ما بين أبيه المستعلي بالله وعمه نزار على عرش الفاطميين في مصر، فحُمل الآمر إلى القصر إلا أنه توفي يوم الرابع عشر من ذي القعدة (موافقا 7 أكتوبر 1130)، فكانت مدة حكمه تسعا وعشرين سنة وتسعة أشهر.

لم يكن الآمر بأحكام الله قد سَمَّى عند موته خليفة فوقع خلاف فيمن يخلفه بين من بايعوا ابنه الطيب أبوالقاسم فعرفوا بالطَّيِّبية، وآخرون بايعوا الحافظ لدين الله ابن عم أبيه المستعلي فعرفوا بالحافظية، فنجم من جراء ذلك انشقاق جديد في الإمامة.

الخليفة الحادي عشر:الحافظ لدين الله

الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير محمد بن المستنصر بالله معد بن الظاهر علي بن الحكم بن العزيز بن المعز ، العبيدي الإسماعيلي المصري ولد بعسقلان سنة 467 هـ وتوفي في الخامس من جمادى الآُولى سنة 544 هـ (467/ 1130-544/1149) تولى الخلافة من بعد ابن عمه الآمر بأحكام الله ومات سنة 1149 للميلاد دامت دولته عشرين سنة سوى خمسة أشهر وعاش سبع وسبعين سنة، وقام بعده ولده الظاهر

بويع بالقاهرة يوم مقتل ابن عمّه الآمر، بولاية العهد وتدبير المملكة، حتى يظهر الحمل المخلف عن الآمر، فغلب عليه أبو علي أحمد بن الآفضل، في صبيحة يوم

مبايعته، وكان الآمر لمّا قتل الأَفضل اعتقل جميع أولاده وفيهم أبو علي المـذكور، فأخرجـه الجنـد مـن الاعتقال لما قُتل الآمر، وبايعوه فسار إلى القصر، وقبض على الحافظ المذكور، واسـتقلّ بـالأَمر وقـام بـه أحسن قيام، وردّ على المصادرين أموالهم، وأظهر مذهب الاِماميّة وتمسك بالأَئمّـة الاثنـي عـشر، ورفـض الحافظ وأهل بيته، ودعا على المنابر للقائم في آخر الزمان المعروف بالاِمام المنتظر على زعمهم، وكتـب اسمه على السّكة، ونهى أن يوَذن (حي على خير العمـل) وأقـام كـذلك، إلى أن وثـب عليـه رجـل مـن الخاصّة بالبستان الكبير بظاهر القاهرة، في النصف من المحرم سنة ست وعـشرين وخمـسمائة فقتلـه، وكان ذلك بتدبير الحافظ، فبادر الأَجناد بـإخراج الحـافظ ، وبـايعوه ولقبـوه الحـافظ، ودعـي لـه عـلى المنابر.

كان الحافظ كلما أقام وزيرا تمكن وحكم عليه، فيتألم ويتحيل عليه، ويعمل على هلاكه؛ مـنهم رضوان، فسجنه سبع سنين، وكان قد قدم الشام، وجمـع جموعـا، وقاتـل المـصريين، قـاتلهم عـلى بـاب القاهرة وانتصر، ثم دخلها، فاعتقله الحافظ عنده معززا في القصر، ثم نقب الحبس، وراح إلى الـصعيد، وأقبل بجمع عظيم، وحارب، فكان الملتقى عند جامع ابن طولون ، فانتصر وتملك، فبعث إليه الحـافظ بعشرين ألف دينار، رسم الوزارة، فما رضي حتى كمل له ستين ألفا، ثم بعث إليـه عـدة مـن المماليـك، فقاتلهم غلمانه وهو، فقُتل، وبقي الحافظ بلا وزير عشر سنين.

ولما قُتل الأكمل أقام في الوزارة يانس مولاه ، فكبر يـانس، وتعـدى طـوره، فـسقِي. ثـم وزر لـه ولده الحسن، فكان شر وزير، تمرد وطغى، وقتل أربعـين أمـيرا، إلا أنـه كـان فيـه تـسنن، فخافـه أبـوه، وجهز له عسكرا فتحاربوا أياما، ثم سقاه أبوه.

الخليفة الثاني عشر:الظافر بدين الـلـه

الظافر بدين الـلـه (1149 - 1154) ابن الحافظ لدين الـلـه كان الخليفة الفاطمي الثاني عشر.

لم يذكر عنه الكثير وليس له دور يذكر في التاريخ او في الحكم الفاطمي

الخليفة الثالث عشر:الفائز بدين اللـه

الفائز بدين اللـه (1154-1160) كان الخليفة الفاطمي الثالث عشر.

الخليفة الرابع عشر:العاضد لدين اللـه

العاضد لدين أبو محمد عبد اللـه بـن يوسـف بـن الحـافظ لـدين اللـــه ولـد حـسب روايـة المقريزي يوم الثلاثاء لعشر من المحرم سنة 546 هجريا وبويع لثلاث عشرة من رجب سنة 555 هجريا وعمره يومئذ تسع سنين.

خلافته

يروي المقريزي في اتعاظ الحنفا في أحداث عام 555 هجريا:

""وذلك أنه لما مات الخليفة الفائز ركب الصالح بن رزيك إلى القصر بثيـاب الحـزن واسـتدعى زمام القصر وسأله عمن يصلح في القصر للخلافة فقال: ههنا جماعة. فقال: عرفني بأكبرهم. فسمى لـه واحداً فأمر بإحضاره. فتقدم إليه أمير يقال له على ابن مزيد وقال لـه سراً: لا يكـن عبـاس أحـزم منـك رأياً حيث اختار الصغير وترك الكبير واستبد بالأمر. فمال إلى قوله وقال للزمام: أريد منك صغيراً. فقـال: عندي ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد اللـه وهو دون البلوغ. فقال: عـلي بـه. فأحـضر إليـه بعمامة لطيف وثوب مفرط وهو مثل الوحش أسمر كبير العينين عريض الحاجبين أخنس الأنف منتشر المنخرين كبير الشفتين. فأجلسه الصالح في البادهنج وكان عمره إحـدى عـشرة سـنة. ثـم أمـر صـاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء وهي لـبس ولي العهـد إذا حـزن عـلى مـن تقدمـه وقـام وألبسه إياها. وأخذوا في تجهيز الفائز فلما أخرج تابوته صلى عليه وحمل إلى التربة. وأخذ الصالح بيـد عبد اللـه وأجلسه إلى جانبه وأمر أن تحمل إليه ثياب الخلافة فألبسها وبايعه ثم بايعه النـاس ونعتـه بالعاضد لدين اللـه.""

أحداث عصره

نهاية دولة بني رزيك ووزرائهم.

النزاع بين الوزير شاورو الضرغام لتولى الوزارة.

وصول أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الايوبي إلى مصر والقضاء على الضرغام.

اسد الدين شيركوه يقتل شاور.

استيلاء الصليبيين على صور.

تغلغل صلاح الدين في البلاط الفاطمي.

الخلاف بين نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي.

نهاية الفاطميين

في عام 567 هجريا خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها.

وذلك أنه لما ثبتت قدم صلاح الدين بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة العاضد بقتل رجاله وذهاب أمواله وصار الحكم على قصره قراقوش طواشي أسد الدين نيابة عن صلاح الدين وتمكنت عساكر نور الدين من مصر طمع في أخذها.

وكتب إلى صلاح الدين وفي ظنه وظن جميع عساكره أن صلاح الدين إنما هو نائب عنه في مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه يأمره بقطع خطبة العاضد وإقامتها للمستضيء العباسي. فاعتذر بالخوف من قيام المصريين عليه وعلى من معه لميلهم كان إلى الفاطميين ولأنه خاف من قطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء أن يسير نور الدين إلى مصر وينزعه منها.

فلم يقبل منه نور الدين وألح عليه وألزمه إلزاماً لم يجد مندوحة عن مخالفته وساعدته الأقدار بمرض العاضد المرض الذي غلب على الظن أنه لا يعيش منه.

فجمع صلاح الدين أصحابه إليه واستشارهم في ذلك فاختلفوا فمنهم من أشار بقطع خطبة العاضد ومنهم لم يشر بها.

فتقدم إلى جميع الخطباء بأن يخطبوا في الجمعة الآتية للمستضيء وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر. في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من المحرم عشية يوم عاشوراء مات العاضد لدين الله وقامت عليه الواعبة وعظمت ضوضاء الأصوات النادبة حتى كأن القيامة قد قامت.

وكتب صلاح الدين إلى نور الدين بموت العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء كما أشار به مع ابن أبي عصرون.

وكانت النفوس متطلعةً إلى إقامة خليفة بعد العاضد من أهله يشار إليه بالأمر فلم يرض ذلك صلاح الدين.

ومات العاضد وعمره إحدى وعشرون سنة. وكان كما يروي المقريزي كريماً سمحاً لطيفاً لين الجانب يغلب عليه الخير وينقاد إليه. وكان متغالياً في مذهبه شديدا على من خالفه.

أقوال في نهاية الدولة الفاطمية

قال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون إن هؤلاء القوم في أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ورقة تذكر فيها ألقاباً تصلح للخلفاء حتى إذا تولى واحد لقبوه ببعض تلك الألقاب فكتب لهم ألقاباً كثيرةً وآخر ما كتب في الورقة العاضد فاتفق أن آخر من ولي منهم تلقب بالعاضد وهذا من عجيب الاتفاق.

قال: وأخبرني أحد علماء المصريين أيضا أن العاضد رأى في آخر دولته في منامه كأنه بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقرب من مسجد معروف بها فلدغته فلما

استيقظ ارتاع لذلك وطلب بعض معبري الرؤيا وقص عليه المنام فقال ينالك مكروه من شخص هو مقيم في هذا المسجد فطلب والي مصر وأمره يكشف عمن هو مقيم في المسجد المذكور وكان العاضد يعرفه.

فمضى الوالي إلى المسجد فرأى فيه رجلا صوفياً فأخذه ودخل به على العاضد فلما رآه سأله من أين هو ومتى قدم البلاد وفي أي شيء قدم وهو يجاوبه عن كل سؤال. فلما ظهر له منه ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه أعطاه شيئاً وقال له: يا شيخ ادع لنا وأطلق سبيله فنهض من عنده وعاد إلى المسجد.

فلما استولى صلاح الدين وعزم على القبض على العاضد واستفتى الفقهاء أفتوه بجواز ذلك لمخالفتهم له، وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الصوفي المقيم في المسجد وهو نجم الدين الخبوشاني فإنه عدد مساوئ القوم وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام في ذلك فصحت بذلك رؤيا العاضد.

الباب الثالث

الفاطميون في مصر

محاولات العبيديين الفاطميين لفتح مصر

الحقيقة أنه رغم الجهد الكبير الذي بذله خلفاء الدولة العبيدية الفاطمية لتحقيق الاستقرار لهم في بلاد المغرب إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك فكلما أخمدت ثورة ظهرت أخرى.

ولذا كانت عيون العبيديين (الفاطميين) على مصر وقد حاول فتحها عبيد الله المهدي مرارًا منذ سنة 301هـ حيث وجه إليها جيشًا بقيادته، وحال النيل دون تقدمه شرقًا والوصول إلى الفسطاط، فعاد إلى الإسكندرية ولكن الجيش انهزم على يد جيش الخليفة العباسي المقتدر بعد معارك دارت بينهم في برقة، وعاد الجيش إلى المغرب.

وفى سنة 306 وجه عبيد الله جيشا بقيادة ابنه أبي القاسم فاستولى على الإسكندرية ثم سار إلى الجيزة، وتوغل العبيديون (الفاطميون) في بلاد الوجه القبلي لكن مؤنس الخادم استطاع أن يقهر هذه الحملة وأحرق سفن العبيديين (الفاطميين)..

وفى سنة 321 أرسل جيشًا بقيادة جيش حبش بن أحمد المغربي ولكن هزم في سنة 322 على يد محمد بن طغج الإخشيدي كانت هاتان الحملتان بالتنسيق مع ابن طاهر الجنابي أمير القرامطة ببلاد البحرين.

وفى سنة 323 أرسل أبو القاسم الخليفة الثاني العبيدي (الفاطمي) جيوشه إلى مصر فدخلت الإسكندرية بسهولة ووجدت مناصرة من بعض زعماء المصريين مما يدل على انتشار الدعوة العبيدية الشيعية (الفاطمية) بمصر، ولكن العبيديين (الفاطميين) هُزِموا على يد الإخشيديين. وبقيت العلاقات بعد ذلك بين حكام مصر والعبيديين (الفاطميين) يشوبها التربص والحيل.

في سنة 334 هـ حرص كافور الذي كان وقتذاك يحكم مصر (وكان يقوم بالوصاية على أنوجور بن الإخشيد) على تحسين العلاقة مع الخليفة العباسي وكذلك

مع الخليفة العبيدي (الفاطمي)، فكان يهادي صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء، وفي هذه الآونة وجه الخليفة العبيدي (الفاطمي) المعز اهتمامه لتوسيع دائرة الدعوة العبيدية (الفاطمية) في مصر، حتى استطاعوا أن يأخذوا البيعة للمعز من رجال بلاد كافور وكبار موظفي دولته، كما أنه عمل على إنشاء الطرق وحفر الآبار في الطريق إلى مصر سنة 356 هـ

قيام الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر

الفاطميون ومصر

تطلع الفاطميون إلى فتح مصر فتكررت محاولتهم لتحقيق هذا الحلم غير أنها لم تكلل بالنجاح، وقد بدأت هذه المحاولات منذ عام 301هـ= 913م أي بعد قيام الدولة بأربع سنوات، الأمر الذي يؤكد عزم الخلفاء الفاطميين على بسط نفوذهم على مصر، وكان فشل كل محاولة يقومون بها تزيدهم إصرارا على تكرارها ومعاودتها مرة بعد مرة، ونبهت هذه المحاولات الخلافة العباسية إلى ضرورة درء هذا الخطر، فدعمت وجودها العسكري في مصر، وأسندت ولايتها إلى محمد بن طغج الإخشيد، فأوقفت تلك المحاولات إلى حين.

حالة مصر الداخلية قبل الفاطميين

كانت مصر خلال هذه الفترة تمر بمرحلة عصيبة، فالأزمة الاقتصادية تعصف بها والخلافة العباسية التي تتبعها مصر عاجزة عن فرض حمايتها لها بعد أن أصبحت أسيرة لنفوذ البويهيين الشيعة، ودعاة الفاطميين يبثون دعوتهم في مصر، وجاءت وفاة كافور الأخشيد سنة (357هـ=968م) لتزيل آخر عقبة في طريق الفاطميين إلى غايتهم، وكان كافور بيده مقاليد أمور مصر، ويقف حجر عثرة أمام طموح الفاطميين للاستيلاء عليها.

وحين تولى زمام الأمور أبو الفضل جعفر بن الفرات ولم تسلس له قيادة مصر، وعجز عن مكافحة الغلاء الذي سببه نقص ماء النيل، واضطربت الأحوال، وضاق الناس بالحكم، كتب بعضهم إلى المعز يزينون له فتح مصر ولم يكن هو في حاجة إلى من يزين له الأمر؛ إذ كان يراقب الأوضاع عن كثب، ويمني نفسه باللحظة التي يدخل فيها مصر فاتحا، فيحقق لنفسه ما عجز أجداده عن تحقيقه.

مقدمات دخول الفاطميين مصر

كان أمل الفاطميين التوسع شرقا ومجابهة الخلافة العباسية للقضاء عليها، وإذا كانت دعوتهم قد أقاموها في أطراف العالم الإسلامي حتى تكون بعيدة عن العباسيين، فإن ذلك لم يعد مقبولا عندهم بعد أن قويت شوكتهم واتسع نفوذهم، وأصبحت الفرصة مواتية لتحقيق الحلم المنشود، والتواجد في قلب العالم الإسلامي.

وقد بدأ الفاطميون منذ سنة (355هـ= 966م) استعدادهم للانتقال إلى مصر، واتخاذ الإجراءات التي تعينهم على ذلك، فأمر المعز بحفر الآبار في طريق مصر، وبناء الاستراحات على طوال الطريق، وعهد إلى ابنه "تميم" بالإشراف على هذه الأعمال.

استيلاء الفاطميين على مصر

أرسل المعز لدين الله إلى مصر واحدا من أكفأ قادته ألا وهو جوهر الصقلي الذي نجح من قبل في بسط نفوذ الفاطميين في الشمال الأفريقي كله وخرج المعز في وداعهم في 14 من ربيع الأول 358هـ = 4 من فبراير 969م ولم يجد الجيش مشقة في مهمته ودخل عاصمة البلاد في 17 من شعبان 358هـ= 6 يوليو 969م دون مقاومة تذكر، وبعد أن أعطى الأمان للمصريين.

الفاطميون و القاهرة

الأزهر بالقاهرة

رأى جوهر الصقلي أن الوقت قد حان لحضور الخليفة المعز بنفسه إلى مصر، وأن الظروف مهيأة لاستقباله في القاهرة عاصمته الجديدة فكتب إليه يدعوه إلى الحضور وتسلم زمام الحكم فخرج المعز من المنصورية عاصمته في المغرب وكانت تتصل بالقيروان في 21 من شوال 361 هـ= 5 من أغسطس 972م وحمل معه كل ذخائره وأمواله حتى توابيت آبائه حملها معه وهو في طريقه إليها واستخلف على المغرب أسرة بربرية محلية هي أسرة بني زيري، وكان هذا يعني أن الفاطميين قد عزموا

على الاستقرار في القاهرة، وأن فتحهم لها لم يكن لكسب أراضٍ جديدة لدولتهم، وإنما لتكون مستقرا لهم ومركزا يهددون به الخلافة العباسية.

وصل المعز إلى القاهرة في 7 رمضان 362هـ= 11 يونيو 972م، وأقام في القصر الذي بناه جوهر، وفي اليوم الثاني خرج لاستقبال مهنئيه وأصبحت القاهرة منذ ذلك الحين مقرا للخلافة الفاطمية، وانقطعت تبعيتها للخلافة العباسية السنية.

قضى المعز لدين الله القسم الأكبر من خلافته في المغرب، ولم يبق في مصر إلا نحو 3 سنوات، ولكنها كانت ذات تأثير في حياة دولته، فقد نجح في نقل مركز دولته إلى القاهرة، وأقام حكومة قوية أحدثت انقلابا في المظاهر الدينية والثقافية والاجتماعية في مصر، ولا تزال بعض آثاره تطل علينا حتى الآن، وجعل من مصر قلبا للعالم الإسلامي ومركزا لنشر دعوته الإسماعيلية والتطلع إلى التوسع وبسط النفوذ.

وقد قامت القاهرة بعد ذلك بدورها القيادي حتى بعد سقوط الدولة الفاطمية في الوقوف أمام المد الصليبي وهجمات المغول، وهو ما يثبت أن العالم الإسلامي كان بحاجة إلى مركز متوسط للقيام بمثل هذه الأدوار، وهذا ما تنبه إليه الفاطميون وأثبتته أحداث التاريخ من قديم الزمان؛ حيث كانت الإسكندرية تشغله في العصر الروماني البيزنطي.

ولم تطل الحياة بالمعز في القاهرة ليشهد ثمار ما أنجزته يداه، لكن حسبه أنه نجح في الانتقال بدولته من المغرب التي كانت تنهكها ثورات البربر المتتالية، ولم تدع له فرصة لالتقاط أنفاسها حتى تكون مستقرا جديدا للتوسع والاستمرار، وأنه أول خليفة فاطمي يحكم دولته من القاهرة، عاصمته الجديدة.

أرسل المعز جيشه بقيادة جوهر الصقلي في حروب ضد قبائل المغرب وأمويي الأندلس. كما أكدت غاراته على إيطاليا سيادة الفاطميين على البحر المتوسط على

حساب البيزنطيين. وتوفي الخليفة المعز لدين الـلـه في القاهرة في 16 ربيع الثاني 365 هـ/23 ديسمبر 975م.

وفى سنة 357 مات كافور فاضطربت الأحوال بمصر وتردت الحالة الاقتصادية بها، وحل الوباء والقحط بالبلاد من جراء انخفاض النيل، وعجزت الحكومة عن دفع رواتب الجند، مما حمل كثيراً من أولي الرأي بمصر على الكتابة إلى المعز لدين الـلـه يطلبون منه القدوم إلى مصر..

وفى 14من ربيع ثاني سنة 358 هـ سار جوهر الصقلي على رأس جيش للعبيديين (الفاطميين) قوامه مائة ألف فارس، فدخل الإسكندرية بغير مقاومة ولما وردت إلى الفسطاط أخبار وصول جوهر إلى الإسكندرية، رأي الوزير المصري جعفر بن الفرات ومن معه أن يفاوضوا جوهر على شروط التسليم وطلب الأمان على أرواح المصريين، فالتقوا به عند تروجة (إحدى قري مركز أبي المطامير بمحافظة البحيرة) في 18من رجب سنة 358 فأمّنهم جوهر على أموالهم وأنه ما جاء إلا للإصلاح كما نص في كتاب الأمان، على أن يظل المصريون على مذهبهم السني ولا يلزمون بالتحول إلى المذهب الشيعي..

دور المعز لدين الـلـه

معد المعز لدين الـلـه، المعز أبو تميم معدّ بن منصور (المهدية حوالي 932 - القاهرة 975) هو رابع الخلفاء الفاطميين في إفريقية (تونس حالياً) وأول الخلفاء الفاطميين في مصر. والإمام الرابع عشر من أئمة الإسماعيلية حكم من 953 حتى 975. وقد أرسل أكفأ قواده وهو جوهر الصقلي للاستيلاء على مصر من العباسيين فدخلها وأسس مدينة القاهرة بالقرب من الفسطاط، والتي تعتبر أول عاصمة للعرب في مصر.

ولاية الامام المعز لدين الـلـه

ولى المعز لدين الـلـه الخلافة الفاطمية خلفاً لأبيه المنصور أبي طاهر إسماعيل، الخليفة الثالـث في قائمة الخلفاء الفاطميين، وكان المعز رجلاً مثقفاً يجيد عـدة لغـات مولعـاً بـالعلوم والآداب متمرساً بإدارة شئون الدولة وتصريف أمورها كيساً فطناً يحظى باحترام رجال الدولة وتقديرهم.

وانتهج المعز سياسة رشيدة، فأصلح ما أفسدته ثـورات الخـارجين عـلى الدولـة، ونجـح في بنـاء جيش قوي، واصطناع القادة والفاتحين وتوحيـد بـلاد المغـرب تحـت رايتـه وسـلطانه ومـد نفـوذه إلى جنوب إيطاليا.

ولم تغفل عينا المعز لدين الـلـه عن مصر، فكان يتابع أخبارها، وينتظر الفرصـة الـسانحة لـكي يبسط نفوذه عليها، متذرعاً بالصبر وحسن الإعداد، حتى يتهيأ له النجاح والظفر.

قصة نقل المقطم

من المعروف أن الحاكم المعـز لـدين الـلــه الفـاطمي كـان محبـاً لمجـالس الأدب ومولعـاً بالمناقشات الدينية ولهذا كان يجمع رجال الدين من المسلمين والمـسيحيين واليهـود للمناقـشة في مجلسه شريطة أن يتقبل الجميع مايثار بلا غضب أو انفعال أو خـصام.. وكـان مـن ضـمن أفـراد هذا المجلس رجل يهودي اعتنق الإسلام لكي يصبح وزيراً في الدولة هو 'يعقوب بن كلـس' ويـتردد أنه في إحدي هذه الجلسات التي كانت تضم الجميع.. بطريرك الأقباط في ذلك الوقت الأنبا ابـرام السرياني.. والوزير يعقوب بن كلـس اليهـودي الأصـل ومعـه زميـل لـه يـدعي مـوسي.. وفي هـذه الجلسة حاول اليهوديان أن يوقعا الحاكم مع الأقباط فقالا للحاكم بأننا وجدنا في إنجيل النـصاري آية تقـول 'ان مـن لـه إيمـان مثـل حبـة خـردل لكنـتم تقولـون لهـذا الجبـل انتقـل مـن هنـا إلي هناك فينتقل ولا يكون شيئاً غـير ممكـن' وبالتـالي فعليـك بـصفتك الحـاكم أن تطلـب مـن البابـا

البطريرك أن ينقل الجبل الجاثم شرق القاهرة وإن لم يستطع يكون دينهم باطلاً ويجب إبادتهم!

وقبل أن ينفض المجلس طلب الخليفة المعز من البابا إبرآم السرياني اثبات صحة هـذه الآيـة.. أي اثبات إمكانية نقل جبل المقطم إذا صحت الآية.. وبعد أن صلي البطريرك طلب من الخليفة مهلـة ثلاثة أيام حتي يثبت له هذه المعجزة

ورجع البابا ليجمع شعبه ويطلب منهم الصوم ثلاثة أيام مـع الـصلاة المـستمرة واعتكـف هـو ورجال الدين داخل كنيسة العذراء بالمعلقة.. وفجر اليوم الثالث ظهـرت الـسيدة العـذراء للبابـا أثنـاء غفوته وأخبرته بأن يخرج إلي الشارع فسيجد رجلاً يحمل جرة ماء وبعين واحدة.. إن هذا الرجل ستتم المعجزة علي يديه.. وأسرع البابا إلي الشارع ناحية السوق فوجد فعلاً رجلاً بهذه الأوصاف فأمـسك بـه وأدخله الكنيسة وأخبره بأن اختير لتقع معجزة نقل جبل المقطم علي يديـه.. واضـطرب الرجـل وأخـبر البابا بأنه رجل فقير ويعمل اسكافياً فكيـف يقـع الاختيـار عليـه؟! ولكـن البابـا البطريـرك أكـد لـه أن السيدة العذراء ظهرت لتبلغه بهذا الأمر.. ووافق الرجل واشترط أن يتكتم حقيقة أمره طالما هـو حـي علي الأرض.

كان هذا الرجل يدعي سمعان الخراز نسبة إلي مهنته التي كانـت موزعـة بـين دباغـة الجلـود والاسكافي وهو من يقوم بإصلاح الأحذية.. المهم انـه طلـب مـن البابـا البطريـرك أن يـصعد إلي الجبـل ومعه رجال الدين حاملين الأناجيل والصلبان والشموع.. وأيـضاً المجـامر مملـوءة بـالبخور ويقفـون في جانب أعلي الجبل وأن يصعد الخليفة وحاشيته ورجال الدولة أعلي الجانـب المقابـل مـن الجبـل.. وأن يصعد الشعب أيضاً ليري ويشاهد الجميع هذه المعجزة التي وعد بها الرب.

وفي الموعد المحدد.. أي بعد ثلاثة أيام من الصوم والصلاة خـرج الخليفـة المعـز من داره ممتطياً جواده وخلفه حشداً كبيراً مـن حاشـيته ورجـال الدولـة متوجهـاً إلي جبل المقطم وهناك وجد في انتظاره البابا ابرام السرياني(تاريخ التقدمـة 3 ينـاير 975

للميلاد- تاريخ النياحة 3 ديسمبر 978 للميلاد)إبـرام الأول ومعـه رجـال الكنيـسة والـشعب خلفـه.. وقف الخليفة ومن معه علي جانب من الجبل.. وعلي الجانب المقابل وقف البابا ابرام ورجال الكنيسة والشعب خلفه.. وكان من ضمن أفراد الشعب سمعان الخراز الذي وقف خلف البابا مباشرة..

وبعد أن قام البابا بالصلاة طلب من شعبه أن يرددوا كلمـة 'كيريالـسيون' وهـي كلمـة باللغـة القبطية معناها يارب ارحم اربعمائة مرة.. بواقع مائة مرة كل جهة مـن الجهـات الأربـع شرقـاً وغربـاً وشمالاً وجنوباً.. وبعدها سجد البابا وشعبه ثلاث مرات.. وعندئذ شعر الجميـع بزلزلـة غايـة في القـوة تجتاح الجبل.. وفي كل سجدة يتحرك الجبل.. ومع كل قيام يرتفع الجبل إلي أعلي وتظهر الـشمس مـن تحته ثم يتحرك من مكانه إلي هذا المكان الذي استقر به.. قال المعـز لـدين اللــه 'عظـيم هـو اللــه تبارك اسمه'.. وما إن هدأت الامور حتي تلفت البابا باحثاً عنه سـمعان الخـراز فاكتـشف انـه اختفـي تماماً!..

ويدعى من يردد هذه القصة أن الجبل انتقل فعلاً من بركة الفيل بالسيدة زينب مكان مسجد أحمد بن طولون إلي هذا المكان ليفسح مساحة كبيرة استطاع الخليفة المعز أن يعمرها وتظهر القاهرة الحالية، وردت قصه نقل جبل المقطم في كتابات المؤرخ الانجليزى الفريد بتلر.

الجدير بالذكر أن مسجد أحمد بن طولون بني عام 876 م

بيد أن طائفة كبيرة من الجند المصريين رفضوا هذا العقد، ودخلوا في معركة حربية مع جـوهر الصقلي ولكنهم استسلموا في النهاية وطلبوا إعادة الأمان.

بناء القاهرة والجامع الأزهر

وبدأ عهد جديد لمصر في ظل الحكم العبيدي (الفاطمي) ووضع الأساس لبناء مدينة المنصورية (القاهرة) في 17 شعبان سنة 358 شمالي الفسطاط وأسس القصر الذي سينزل به المعز وعرف باسم القصر الشرقي الكبير.

ظلت القاهرة تعرف بالمنصورية أربع سنوات، ثم سماها المعز القاهرة تفاؤلا بأنها ستقهر الدولة العباسية، وجعل جوهر بسور القاهرة أربعة أبواب؛ باب النصر، باب الفتوح، باب زويلة، وباب القوس، ثم بدأ بناء الجامع الأزهر سنة 359 وتم بناؤه في سنتين، وذلك ليكون خاصا بشعائر المذهب العبيدي الفاطمي، خشية إثارة المصريين إذا ظهرت هذه الشعائر في مساجدهم.. وأقيمت الصلاة في الجامع الأزهر لأول مرة 7من رمضان سنة 361هـ وتحولت الدعوة على المنابر إلى الخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة العبيدي الشيعي (الفاطمي) بدلاً من اسم الخليفة العباسي، كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وزيد في الخطبة على عادة الشيعة.. (اللهم صل على محمد النبي المصطفى، وعلى على المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً، اللهم صل على الأئمة الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين

محاولة نشر المذهب الشيعي

لم يف العبيديون (الفاطميون) بتعهداتهم بعدم إجبار المصريين على تغيير مذهبهم السني إلى مذهب الشيعة فأسندت المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعيين.

واتخذت المساجد الكبيرة مركز دعاية للمذهب الشيعي.

وتم إضافة منصب جديد يقوم على تعيين أحد كبار المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وكان يعرف بداعي الدعاة، وكانت منزلته تلي قاضي القضاة ويعاونه اثنا عشر نقيبًا، ونواب في سائر البلاد، وكثيرًا ما تقلد رجل واحد منصبي قاضي القضاة والدعوة.

وحولوا الشعائر إلى المذهب الشيعي واحتفلوا بعيد الغدير ويوم مقتل الحسين وتضرر المصريون من ذلك كثيرًا.

وفي سنة 395 أمر الحاكم بأمر الله بنقش سب الصحابة على الجدران وفي الأسواق. ثم تراجع عن ذلك سنة 398.

وظهر الاحتفال بمولد النبي –صلى الله عليه وسلم- ومولد ابنته السيدة فاطمة وعليّ بن أبي طالب.

وأذن في جميع المساجد بـ (حي على العمل) فمهد بذلك جوهر للخليفة المعز المجيء إلى مصر، فدخل المعز مصر في شعبان سنة 362 هـ.

ولما دخل قصره الذي أعد له خر لله ساجدا.. وقدمت إليه الهدايا العظيمة الثمينة واتخذت القاهرة عاصمة للدولة العبيدية (الفاطمية).

أضعف ذلك نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب، واستقلت بلاد عن نفوذ العبيديين (الفاطميين) بالمغرب..

وقد استأثر المعز بالنفوذ والسلطان في مصر ولم يشأ أن يترك لجوهر من السلطة شيئًا لئلا ينازعه ملكه وبالتدريج فقد جوهر ما كان يتمتع به من نفوذ..

اليهود والنصارى في عهد الدولة العبيدي (الفاطمية)

من الأمور البارزة في عهد العبيديين (الفاطميين) أنهم قربوا إليهم أهل الكتاب من النصارى واليهود!!

ففي زمن المعز استعان بكثير من الأطباء اليهود، وترقي بعضهم في المناصب، حتى صار أحدهم وهو يعقوب بن كلس وزيرًا للعزيز بن المعز، وإليه يرجع الفضل في وضع قواعد الدولة ونظمها.

وتزوج العزيز من مسيحية، أصبح لها نفوذ عظيم على العزيز، فقد حملته على العطف على بني ملتها فاحتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية. وأصبح بدواوين الدولة عدد كبير من كتابهم، واستأثروا بمعظم السلطات..

عين العزيز منشا بن إبراهيم الفرار اليهودي واليًا على بلاد الشام.

في سنة 393 أمر الحاكم بأمر الله أن يرتدي أهل الذمة أزياء خاصة، وبعدها بثلاث سنوات أمر بهدم بعض الكنائس في القاهرة، ومن العجيب أنه في ذات الوقت قلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني، الذي أشار على الخليفة العبيدي (الفاطمي) الحاكم بهدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس، فأصدر مرسومًا بهدمها. وكان لهدم هذه الكنيسة الأثر الأكبر في إثارة حمية الصليبيين للاستيلاء على بيت المقدس.

واستمر هذا الاضطهاد حتى اضطر كثير من كتاب النصارى أن يدخلوا في الإسلام، وهاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة.

وفى سنة 411 قرر الحاكم أن يرفع عنهم هذا الاضطهاد، ثم جاء الظاهر فعطف على أهل الذمة..

وفي أوائل عهد المستنصر بالله العبيدي (الفاطمي) ارتفع شأن أبي سعد إبراهيم ابن سهل التستري اليهودي، لأن والدة ذلك الخليفة كانت من قَبْل أَمَة في بيته، فلما ولي ابنها المستنصر الخلافة قربت التستري وولته ديوانها، وتحيز التستري لليهود، فتقلدوا في أيامه كثيراً من مناصب الدولة ولكنه قتل سنة 439 هـ

ظهور فرقة الدرزية

في عهد الحاكم وفي سنوات حكمه الأخيرة جاء إلى مصر بعض الفرس، والـذين راقـتهم الـدعوة الإسـماعيلية فاعتنقوهـا، وزادوا فيهـا فكـرة تأليـه الحـاكم، ودعـوا إليهـا فـسخط علـيهم أهـل الـسنة وطاردوهم وكان أشهرهم والمقرب إلى الحاكم بأمر الـلـه محمد بن إسماعيل الـدرزى، وقـد هـرب إلى بعض قري بانياس (بلدة صغيرة غربي دمشق) حيث أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، فاستمال إليـه كثـيرًا من الأنصار الذي أصبحوا يعرفون باسم الدرزية.

وجد الخليفة الحاكم بأمر الـلـه في هذه الدعوة فرصة ليحيط نفسه بسياج من التقديس رغبة منه في جعل رعاياه طوع إرادته..

ثم جاء الخليفة الظاهر لإعزاز دين الـلـه بعد مضي ثـلاث سـنوات عـلى وفـاة الحـاكم، لـيعلن براءته من دعوى الألوهية التي قيلت في أبيه.

عهد المستنصر العبيدي (الفاطمي)

في عهد المستنصر (427 - 487) وقعت اضطرابات عظيمة في البلاد:

فالجند السودانيون يثيرون الاضطرابات في الوجه القبلي.

ونحوًا من أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب، تحت زعامة ناصر الدولـة الحـسين بـن حمدان التغلبي (المتمرد على الخلافة العبيدية الفاطمية)، يغيرون على الوجه البحـري وينهبـون بـلاده ويحطمون الجسور والقنوات، مما ترتب عليه انقطاع المئونة عن القاهرة والفسطاط.

وفى سنة 462 بعث ناصر الدولة إلى ألب أرسلان سلطان الـسلاجقة بـالعراق رسـولاً مـن قبلـه يسأله أن يرسل إليه عسكرًا ليقيم الدعوة العباسية بمصر على أن تؤول إليه السيادة على مصر، فرحـب أرسلان بذلك ولكنه انشغل بمحاربة الروم عن مصر.

وفى سنة 464 قطع ابـن حمـدان اسـم المستنـصر مـن الخطبـة في الوجـه البحـري، وبعـث إلى الخليفة القائم العباسي ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم إلى الفسطاط وتولي الحكـم في القـاهرة، وأطلـق للخليفة مائة دينار كل شهر وخشي الأتراك على أنفـسهم مـن جـراء اسـتبداد نـاصر الدولـة بـالأمور في القاهرة، فدبروا لقتله فقتل وتتبعوا كل أفراد أسرته بمصر وتخلصوا منهم.

ثم تسلطت الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر سنة 466، فبعث إلى بدر الجمالي والي عكا يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شئون الدولة، فاشترط أن يحضر معـه مـن يختـاره مـن عـسكر الـشام (أرمن)، ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر.

وبدر الجمالي كان مملوكًا أرمينيًا للأمير جمال الدولة بن عمار، ثم أخـذ يترقـي في المناصـب لما أظهره من كفاية في الحروب التي قامت ببلاد الشام، حتى ولي إمارة دمشق مـن قبـل المستنـصر سـنة 456 وحارب الأتراك في تلك البلاد ثم تقلد نيابة عكا سنة 460 هـ

بدأ الجمالي بقتل رءوس الأتراك فاستتب له الأمـن، وكـان مـن جنـده مـن احـتفظ بمـسيحيته، واستطاع الجمالي أن يعيد نفوذ الخليفة عـلى جميـع بـلاد الوجـه القـبلي حتـى أسـوان وكـذلك الوجـه البحري، وبني جامع العطارين وأعاد الرخـاء فـزاد خـراج مـصر في سـنة (457 –464) مـن 2.000.000 دينار إلى 3.100.000 دينار، وتوفي الجمالي سنة 487 وعهد لابنه الأفضل شاهنشاه.

وظل المستنصر في عهد وزرائه كالمحجور عليه إلى أن توفي في 17من ذي الحجة سـنة 487 هــ ومع وفاة المستنصر بدأ العصر العبيدي (الفاطمي) الثاني حيث زادت سلطة الوزراء.

المستنصر بالـلـه والشدة المستنصرية

المستنصر بالـلـه هو الخليفة الخامس من خلفاء الدولة العبيدية الفاطمية في مصر والثامن منذ نشاتها بالمغرب، وأشهر أحداث عصره الشدة المستنصرية أو ما يعرف في كتب المؤرخين بـ "الشدة العظمى"، وهي مصطلح يطلق على المجاعة والخراب الذى حل بمصر لمدة سبع سنوات عجاف (457هـ - 464هـ / 1065م - 1071م).

الخليفة المستنصر بالـلـه العبيدي

هو المستنصر بالـلـه أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الـلـه بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الـلـه العبيدي الفاطمي، تولى الخلافة العبيدية الفاطمية خلفًا لوالده وهو ابن سبع سنين في النصف من شعبان سنة 427هـ / 1036م، وأقام بها ستين سنة إلى 487هـ / 1094م.

وقد بلغت الخلافة العبيدية الفاطمية في عهد من القوة والاتساع والازدهار ما لم يبلغه أحد قبله، حيث امتد سلطان الخلافة ليشمل بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقيا، وتردد اسمه على المنابر في هذه البلاد، وخُطب له في بغداد لمدة عام وذلك في سنة (450هـ / 1058م).

ودام ذلك حتى تغلبت أمه على الدولة، فكانت تصطنع الوزراء وتوليهم، ومن استوحشت منه أوعزت بقتله فيقتل، مما أثار الفتن وعمت الفوضى والاضطرابات، ومنه حل الخراب على الدولة كلها إلى أن سقطت بنفو الوزراء وضياع هيبة الخليفة. وقد كان سب الصحابة فاشيا في أياما لمستنصر، والسنة غريبة مكتومة، حتى إنهم منعوا الحافظ أبا إسحاق الحبال من رواية الحديث، وهددوه فامتنع.

قال ابن خلكان رحمه الـلـه: "جرى على أيامه ما لم يجر على أيام أحد من أهل بيته ممن تقدمه ولا تأخره"، منها: حادثة البساسيري الذي قطع الخطبة للخليفة القائم بأمر الـلـه وخطب للمستنصر ببغداد سنة 450هـ ومنها أنه أقام في الأمر ستين سنة، وهذا

أمر لم يبلغه أحد من أهل بيته ولا من خلفاء الإسلام، ومنها أنه حدث في أيام خلافته في مصر الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام، وهو ما يعرف بالشدة المستنصرية أو الشدة العظمى.

أحداث خلافة المستنصر

شهد أواخر عهد المستنصر (427هـ - 487هـ) عدة اضطرابات عظيمة في البلاد، منها:

1- أن الجند السودانيون يثيرون الاضطرابات في الوجه القبلي.

2- ونحوًا من أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب، تحت زعامة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي (المتمرد على الخلافة العبيدية الفاطمية)، يغيرون على الوجه البحري وينهبون بلاده ويحطمون الجسور والقنوات، مما ترتب عليه انقطاع المئونة عن القاهرة والفسطاط.

3- وفى سنة 462هـ بعث ناصر الدولة إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولًا من قبله يسأله أن يرسل إليه عسكرًا ليقيم الدعوة العباسية بمصر على أن تؤول إليه السيادة على مصر، فرحب أرسلان بذلك، ولكنه انشغل بمحاربة الروم عن مصر.

4- وفى سنة 464هـ قطع ابن حمدان اسم المستنصر من الخطبة في الوجه البحري، وبعث إلى الخليفة القائم العباسي ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم إلى الفسطاط وتولي الحكم في القاهرة، وأطلق للخليفة مائة دينار كل شهر وخشي الأتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور في القاهرة، فدبروا لقتله فقتل وتتبعوا كل أفراد أسرته بمصر وتخلصوا منهم.

5- ثم تسلطت الأتراك، واستبدوا بالأمور دون المستنصر سنة 466هـ.

الشدة المستنصرية

شاءت الأقدار أن لا تقتصر معاناة البلاد على اختلال الإدارة والفوضى السياسية، فجاء نقصان منسوب مياه النيل ليضيف إلى البلاد أزمة عاتية. وتكرر هذا النقصان ليصيب البلاد بكارثة كبرى ومجاعة داهية امتدت لسبع سنوات متصلة (457هـ - 464هـ / 1065م - 1071م) ، وسببها ضعف الخلافة واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل، فزادات الغلاء وأعقبه الوباء، حتى تعطلت الأرض عن الزراعة، شمل الخوف وخيفت السبل برًا وبحرًا.

وقد تخلل تلك المجاعة أعمال السلب والنهب وعمت الفوضى، واشتدت تلك المجاعة حتى لم يجد فيها الناس شيئا يأكلوه فأكلوا الميتة والبغال والحمير، وبيع رغيف الخبز الواحد بخمسين دينارًا.

وذكر ابن إياس من العجائب التي لا يصدقها عقل زمن تلك المجاعة، ومنها: أن الناس أكلوا الكلاب والقطط، وكان ثمن الكلب الواحد خمسة دنانير والقط ثلاثة، وقيل كان الكلب يدخل البيت فيأكل الطفل الصغير وأبواه ينظران إليه فلا يستطيعان النهوض لدفعه عن ولدهما من شدة الجوع والضعف، ثم اشتد الأمر حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر ذلك عليه أحد من الناس، وصار الناس في الطرقات إذا قوى القوى على الضعيف يذبحه ويأكله.

وذكر كذلك أن طائفة من الناس جلسوا فوق أسقف البيوت وصنعوا الخطاطيف والكلاليب لاصطياد المارة بالشوارع من فوق الأسطح، فإذا صار عندهم ذبحوه في الحال وأكلوه بعظامه.

ويروي إياس أن وزير البلاد لم يكن يمتلك سوى بغل واحد يركبه، فعهد بالبغل إلى غلام ليحرسه، إلا أن الغلام من شدة جوعه كان ضعيفًا فلم يستطع أن

يواجه اللصوص الذين سرقوا البغل، وعندما علم الوزير بسرقة بغله غضب غضبا شديدا، وتمكن من القبض على اللصوص، وقام بشنقهم على شجرة، وعندما استيقظ الصباح وجد عظام اللصوص فقط؛ لأن الناس من شدة جوعهم أكلوا لحومهم.

وقيل: إنه كان بمصر حارة تعرف بحارة الطبق، وهي معروفة بمدينة الفسطاط، كان فيها عشرون دارا، كل دار تساوي ألف دينار، فأبيعت كلها بطبق خبز، كل دار برغيف، فسميت من يومئذ بحارة الطبق.

وذكر ابن الأثير أنه اشتد الغلاء، حتى حكي أن امرأة أكلت رغيفا بألف دينار، وباعت عروضا تساوي ألف دينار بثلاث مائة دينار، فاشترت بها شوالًا من القمح، فانتهبه الناس، فنهبت هي منه، فحصل لها ما خبز رغيفًا.

وذكر سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان أن امرأة خرجت ومعها قدر ربع جوهر من اللؤلؤ، فقالت من يأخذ مني هذا الجوهر ويعطيني عوضه قمحًا؟! فلم تجد من يأخذه منها. فقالت: إذا لم تنفعني وقت الضائقة فلا حاجة لي بك، وألقته على الأرض وانصرفت. فالعجب ان ظل اللؤلؤ مرميًا على الأرض ثلاثة أيام ولميوجد من يلتقطه!!

ويروي المقريزي أن سيدة غنية من نساء القاهرة ألمها صياح أطفالها الصغار وهم يبكون من الجوع فلجأت إلى شكمجية حليها وأخذت تقلب ما فيها من مجوهرات ومصوغات ثم تتحسر لأنها تمتلك ثروة طائلة ولا تستطيع شراء رغيف واحد. فاختارت عقداً ثميناً من اللؤلؤ تزيد قيمته على ألف دينار، وخرجت تطوف أسواق القاهرة والفسطاط فلا تجد من يشتريه.

وأخيرًا استطاعت أن تقنع أحد التجار بشرائه مقابل كيس من الدقيق, واستأجرت بعض الحمالين لنقل الكيس إلى بيتها، ولكن لم تكد تخطو بضع خطوات حتى هاجمته جحافل الجياع، فاغتصبوا الدقيق، وعندئذ لم تجد مفرًا من أن تزاحمهم

حتى اختطفت لنفسها حفنة من الدقيق وحزنت لما حدث من الجماهير الجائعة، فعكفت على عجن حفنة الدقيق وصنعت منها أقراصاً صغيرة وخبزتها ثم أخفتها فى طيات ثوبها، وانطلقت إلى الشارع صائحة: الجوع الجوع. الخبز الخبز. وألتفت حولها الرجال والنساء والأطفال وسارت معهم إلى قصر الخليفة المستنصر، ووقفت على مصطبة ثم أخرجت قرصاً من طيات ثوبها ولوحت به وهي تصيح: "أيها الناس، فلتعلموا أن هذه القرصة كلفتني ألف دينار، فادعوا معي لمولاي المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره، حتى تقومت عليَّ هذه القرصة بألف دينار!!".

وقُبض على رجل كان يقتل النساء والصبيان ويبيع لحومهم ويدفن رءوسهم وأطرافهم، فقُتل. واشتد الغلاء والوباء حتى أن أهل البيت كانوا يموتون في ليلة واحدة، وكان يموت كل يوم على الأقل ألف نفس، ثم أرتفع العدد إلى عشرة آلاف وفي يوم مات ثماني عشرة ألفًا.

وحكى أن المستنصر أخرج جميع ما في الذخائر فباعها، ويقال إنه باع في هذا الغلاء ثمانين ألف قطعة من أنواع الجوهر المثمنة وخمسة وسبعين ألف قطعة من أنواع الديباج المذهب وعشرين ألف سيف وأحد عشر ألف دار، وافتقر الخليفة المستنصر حتى لم يبق له إلا سجادة تحته وقبقاب في رجله.

وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع، وكان المستنصر يستعير من ابن هبة صاحب ديوان الإنشاء بغلته ليركبها صاحب مظلته، وآخر الأمر توجهت أم المستنصر وبناته إلى بغداد من فرط الجوع، وذلك في سنة 462هـ وتفرق أهل مصر في البلاد وتشتتوا.

وكان المستنصر يتحمل نفقات تكفين عشرين ألفًا على حسابه، حتى فنى ثلث أهل مصر، وقيل إنه مات مليون وستمائة ألف نفس، ونزل الجند لزراعة الأرض بعد أن هلك الفلاحون.

وقال ابن دحية في كتاب النبراس: "وخرّبت القطائع التى لأحمد بن طولون في الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر العبيدى أيام القحط والغلاء المفرط الذي كان بالديار المصرية، وهلك من كان فيها من السكان، وكانت نيفا على مائة ألف دار". وخربت كذلك مدينة الفسطاط حتى كانت خرابًا.

وكان من نتيجة هذه الأزمة العاتية أن أخذت دولة المستنصر بالله في التداعي والسقوط، وخرجت كثير من البلاد عن سلطانه، فقُتل البساسيري في العراق سنة (451هـ / 1059م). وعادت بغداد إلى الخلافة العباسية، وقُطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة . وخُطب للخليفة العباسي في سنة (462هـ / 1070م)، ودخل النورمان صقلية واستولوا عليها . فخرجت عن حكم العبيديين سنة (463هـ / 1071م) بعد أن ظلت جزءًا من أملاكهم منذ أن قامت دولتهم.

وتداعى حكم المستنصر في بلاد الشام، فاستقل قاضي صور بمدينته سنة (462هـ / 1070م) وخرجت طرابلس من سلطان الفاطميين، وتتابع ضياع المدن والقلاع من أيديهم، فاستقلت حلب وبيت المقدس والرملة عن سلطانهم في سنة (463هـ / 1071م) ثم تبعتهم دمشق في العام التالي.

بدر الدين الجمالي والخروج من الأزمة

لم يكن أمام الخليفة المستنصر بالله للخروج من هذه الأزمة العاتية سوى الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فرض النظام، وإعادة الهدوء والاستقرار إلى الدولة التي مزقتها الفتن وثورات الجند، وإنهاء حالة الفوضى التي عمت البلاد، فاتصل ببدر الجمالي واليه على عكا سنة 466هـ وطلب منه القدوم لإصلاح حال البلاد، فأجابه

إلى ذلك، واشترط عليه أن لا يأتي إلا ومعه رجاله، ومن يختاره من عسكر الشام (أرمن)، ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر.

وبدر الجمالي كان مملوكًا أرمينيًا للأمير جمال الدولة بن عمار، ثم أخذ يترقي في المناصب لما أظهره من كفاية في الحروب التي قامت ببلاد الشام، حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر سنة 456هـ وحارب الأتراك في تلك البلاد ثم تقلد نيابة عكا سنة 460هـ.

وما إن حل بدر الجمالي بمدينة القاهرة حتى تخلص من قادة الفتنة ودعاة الثورة، وبدأ في إعادة النظام إلى القاهرة وفرض الأمن والسكينة في ربوعها، وامتدت يده إلى بقية أقاليم مصر فأعاد إليها الهدوء والاستقرار، وضرب على يد العابثين والخارجين، وبسط نفوذ الخليفة في جميع أرجاء البلاد.

وفي الوقت نفسه عمل على تنظيم شئون الدولة وإنعاش اقتصادها، فشجع الفلاحين على الزراعة برفع جميع الأعباء المالية عنهم، وأصلح لهم الترع والجسور، وأدى انتظام النظام الزراعي إلى كثرة الحبوب، وتراجع الأسعار، وكان لاستتباب الأمن دور في تنشيط حركة التجارة في مصر، وتوافد التجار عليها من كل مكان.

واتجه بدر الجمالي إلى تعمير القاهرة وإصلاح ما تهدم منها، فأعاد بناء أسوار القاهرة وبنى بها ثلاثة أبواب تعد من أروع آثار العبيديين الفاطميين الباقية إلى الآن وهي: باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة، وشيد مساجد كثيرة فبنى في القاهرة مسجده المعروف بمسجد الجيوش على قمة جبل المقطم، وبنى جامع العطارين بالإسكندرية.

واستطاع الجمالي أن يعيد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلي حتى أسوان، وكذلك الوجه البحري، وبني جامع العطارين وأعاد الرخاء فزاد خراج مصر

في سنة (457 –464) من 2.000.000 دينار إلى 3.100.000 دينار، وتوفي الجمالي سنة 487هـ وعهد لابنه الأفضل شاهنشاه.

ولم يكن للوزير بدر الجمالي أن يقوم بهذه الإصلاحات المالية والإدارية دون أن يكون مطلق اليد، مفوضا من الخليفة المستنصر، وقد استبد بدر الجمالي بالأمر دون الخليفة، وأصبحت الأمور كلها في قبضة الوزير القوي، الذي بدأ عصرا جديدا في تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، تحكم فيه الوزراء أرباب السيوف.

وفاة المستنصر بالله

وظل المستنصر في عهد وزرائه كالمحجور عليه، وآلت به شدائد عظيمة، وفقد القوت فلم يقدر عليه، حتى كانت امرأة من الأشراف تتصدق عليه في كل يوم بقعب فيه فتيت، فلا يأكل سواه مرة في كل يوم، وظل كذلك إلى أن توفي في 18من ذي الحجة سنة 487هـ ومع وفاة المستنصر بدأ العصر العبيدي (الفاطمي) الثاني حيث زادت سلطة الوزراء، وهو ما اصطلح عليه بعصر نفوذ الوزراء.

الدولة الفاطمية و الحرب مع الروم البيزنطيين

اتجهت سياسة الفاطميين بعد أن امتد نفوذهم إلى مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي سنة 358 هـ / 969م إلى إستعادة المدن التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام، و لقد كان الفاطميون بعيدي النظر حين أدركوا أن الجيوش البرية وحدها لا تكفي لحماية العالم الإسلامي و انقاذ الوطن العربي، فأنشأوا إسطولا ضخما حمى البلاد من الهجمات البيزنطية ثم دافع عنها بعد ذلك في الحروب الصليبية.

و إلى جانب ذلك فأن الفاطميين وضعوا منذ الساعة الأولى لحكمهم خطة هي أن يقوم هذا الحكم على قواعد ثابتة من العلم و المعرفة، و خططوا كما يقال اليوم لسياسة تعليمية شاملة ترتكز على إنشاء جامعة كبرى، ثم على تفريغ العلماء للعلم،

ثم أرسلوا يستدعون العلمــاء من الخارج و قد اشتــد هذا المــنهج و اتسع و قوي بعد إقامة الوحدة بضم البلاد الأخرى إلى مصر، و انشاء القاهرة و اقامة الأزهر.

وقام بتنفيذ هذه السياسة القائد الفاطمي جعفر بن فـلاح الـذي جهـز جيـشا كبـيرا لأسـترداد أنطاكية من الروم، و لكن الحملات الفاطمية التـي أرسـلت لأجلائهـم عنهـا، فـشلت في تحقيـق هـذه السياسة. و ظلت النزاعات و الغارات العسكرية المتبادلة قائمة بين الدولة الفاطمية و الدولة البيزنطية حتى عام 377هـ / 987م حيث قدمت إلى مصر رسل الامبراطور بارسيل الثاني، تحمل الهـدايا للخليفـة الفاطمي العزيز، و تطلب عقد الصلح بين الدولتين، و ابرمت اتفاقية للهدنه بينهما إلا إنهـا سرعـان مـا انهارت بعد فترة لم تدم طويلا، و ظل الروم البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميين، و تكررت المواجهات المسلحة بين الطرفين، و على الرغم من تتابع انتصارات الفاطميين على البيـزنطيين في شـمال الشام، فأن القائد الفاطمي برجوان عول على مهادنتهم ليتسنى له التفرغ للقضاء على الفتن الداخليـة في مصر، و بعد مراسلات سلمية بين قادة الدولتين إستؤنفت المفاوضات و لما تـم الأتفـاق عـلى شروط الصلح، انتدب برجوان ارسطيس بطريرك بيت المقدس لمصاحبة السفير البيزنطي لدى مصرف سفره إلى القسطنطنية لعرض هذه الشروط على الامبراطور الرومي و اقرارها منه، فقام ارسطيس بهذه المهمة، و تم بذلك إبرام معاهدة صداقة بين مصر و الدولة البيزنطية تقرر فيها ما يأتي:

تظل الهدنة قائمة بين مصر و الدولة البيزنطية مدة عشر سنوات.

يتمتع المسيحيون الذين يقيمون في أنحـاء الدولـة الفاطميـة بالحريـة الدينيـة، و يـسمح لهـم بتجديد كنائسهم و بناءها.

يتعهد امبراطور الروم باسيل الثاني بأمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب.

ورغم معاهدة الصلح هذه ظلت الأجواء المتوترة تحكم العلاقات ما بين الفاطميين و البيزنطيين إلى أن توفي الخليفة الفاطمي العزيز سنة 411 هـ / 1020م و خلفه إبنه الظاهر، الذي تم في عهده ابرام معاهدة صلح جديدة تضمنت الشروط التالية:

أن يسمح للامبراطور البيزنطي بأعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس.

أن يسمح لكافة المسيحيين بأعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم عدا التي حولت إلى جوامع.

أن يعين الامبراطور البيزنطي بطريقا في بيت المقدس.

أن لا يقوم الفاطميون بأي عمل عدائي نحو حلب، حتى تقوم بسداد الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة البيزنطية منذ عام 970م.

ألا تمد الدولة الفاطمية يد المساعدة لأي عدو من أعداء الدولة البيزنطية و خاصة أهل صقلية الذين هددوا هذه الدولة و عاثوا في جزر بحر الأرخبيل.

و في مقابل هذه الشروط، يتعهد الأمبراطور بما يأتي:

أن يعمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة في جامع القسطنطنية و المساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية.

أن يعيد بناء جامع القسطنطينية، و كان قد هدم ردا على هدم كنيسة القيامة في عهد الحاكم بأمر الله.

أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين في قبضة الروم.

أن لا يقدم الامبراطور أية مساعدة لحسان بن مخرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة الذي خرج على الخليفة الظاهر الفاطمي.

وفي سنة 429هـ / 1027م تجدد ابـرام اتفـاق صـلح جديـد بـين الخليفـة الفـاطمي المستنـصر بالـلـه و الامبراطور ميخائيل الرابع، بعد تعرض الاتفاق الـسابق لخروقـات كانـت سـببا في تعكـير جـو العلاقات بين الدولتين.

الباب الرابع

التوسع و عصرها الذهبي

التوسّع والفُتوحات

بعد أن استقرَّت أمور الفاطميين في إفريقية، أرادوا توسيع دولتهم لتضمَّ المغرب الأقصى (مُرَّاكش)، وقد تمكنوا من بسط سيطرتهم على معظم أنحائه بعد نزاعٍ مع حكَّامه الأدارسة، إذ تمكن القائد الفاطمي «موسى بن أبي العافية» من هزيمتهم سنة 312هـ وقد تمرَّد بن أبي عافية على الفاطميّين بعد فتح المغرب، وحوَّل ولاءه إلى عبدُ الرحمٰن الناصر لدين الله أمير الأندلس الأمويّ، لكن عُبيد الله المهدي أرسل ابنه «أبا القاسم» سنة 315هـ فتمكَّن هذا الأخير من استعادة سيطرة الفاطميّين على المغرب.

اضطرَ الفاطميون لاحقاً لخوض حروبٍ كثيرة مع الخوارج بالمغرب، فقد ثار عليهم خارجيٌّ يدعى «أبا زيد» انتشرت ثورته انتشارًا كبيرًا، وتوفيَّ خلال أيام هذه الثورة عبيد الله، فورث عنه حكم دولة الفاطميين ابنه القائم بأمر الله، واستمرَّ بمحاربة الخوارج، لكنه توفي سنة 334هـ دون تمكّنه من هزيمتهم. فخلفه ابنه المنصور بالله الذي تمكَّن أخيرًا من القضاء على ثورة أبي يزيد في سنة 336هـ وأسَّس مدينة «المنصوريَّة» بإفريقية ليجعلها عاصمة الفاطميين. توفي الخليفة المنصور سنة 341هـ فخلفه ابنه المعز لدين الله، رابع الخلفاء الفاطميّين وأحد أهم حُكاَّم الدولة الفاطمية.

خريطة توضِّح مسار الفتوحات الفاطمية، انطلاقاً من إفريقية (حالياً تونس) إلى مراكش غرباً ومصرًا ثم بلاد الشام والحجاز شرقًا، وقد اصطدم الفاطميُّون خلال هذه الغزوات بالإخشيديين بمصر والقرامطة والحمدانيين بالشام والحجاز.

كانت تحكم مصر في زمن ظهور الفاطميين الدولة الإخشيدية، ومنذ بداياتهم حاولوا عدَّة مرة الاستيلاء على مصر، فأرسلوا إليها حملاتٍ عسكريَّة في سنوات 302 و307 و321 و322 و332هـ وقد تمكَّنت بعض هذه الحملات من السيطرة على أجزاءٍ كبيرة من البلاد، بل إنَّ بعضها نجحت بالاستيلاء على الإسكندرية،إلا أنَّ

الفاطميين كانوا يضطرُّون للانسحاب في كلِّ مرَّة أمام جيوش محمد بن طغج الإخشيدي. رغم ذلك، كان هناك دعاةٌ منتشرون في مصر طوال العهد الإخشيديّ، يدعون الناس لاتباع الدولة الفاطميَّة.

إلا أنَّ الدولة الإخشيدية قد شهدت مع موت أحد آخر حكامها أبي المسك كافور الإخشيديَّ (سنة 357هـ) انحدارًا كبيرًا وانهيارًا اقتصاديًا شديدًا، فانتشر الغلاء والمجاعات والأمراض، وكثر الموت بين الناس.

أدَّت هذه الأحوال المتردية إلا سخط أهل مصر على الإخشيديين، ووصلت أنباء هذه الحال إلى معز الدين الفاطميّ، فبادرَ على الفور باستغلال الفرصة بإرسال جيشٍ فاطمي على رأسه جوهر الصقلي لضمِّ مصر إلى دولته. لم يبدي المصريُّون أيَّ مقاومة تذكر للفتح الفاطمي نتيجة هذه الأوضاع، وقد استبشروا بقدوم حكامٍ جددٍ لهم عوضًا عن الإخشيديين، خصوصًا بعد خطبة قالها جوهر الصقلي باسم معزّ الدين الفاطمي عندما دخل مصر، فقد قدَّم في هذه الخطبة وعوداً عديدة بينها تجديد سكَّة النقود لتجنُّب الغش فيها، وتخفيف الضرائب الشديدة التي فرضها الإخشيديون، وحماية المصريّين من خطر دولة القرامطة بالمشرق، ومنح أهل السنَّة الحرية بممارسة مذهبهم على طريقتهم.

مدينة الفسطاط القديمة القريبة من القاهرة، والتي دخلها الفاطميُّون دون مقاومة بعد انهيار الدولة الإخشيدية.

جهَّز الفاطميون جيشًا من 100,000 جندي لأخذ مصر بقيادة جوهر الصقلي، وقد كان هذا الجيش متعددًا عرقيًا بدرجةٍ كبيرة، إذ اشتمل على رجالٍ من الأمازيغ والصقالبة والروم والسودان، وصرف معزُّ الدين الفاطمي عليه ملايين الدنانير. وصل جوهر الصقلي أول دخوله مصر إلى بلدةٍ تسمَّى «منية الصيادين» تقع قربَ الإسكندرية، فاستقبله وفدٌ من أهلها على رأسه وزيرٌ إخشيديٌّ بارز يُدعَى «جعفر بن الفرات»، فسلَّموا له وقبلوا بأخذه بلادهم دون مقاومة.

إلَّا أنَّ الحاكم الإخشيدي «أبا الفوارس بن الإخشيد» رفض الاستسلام، وبدأ بجمع جيشٍ لالتقاء الفاطميين، فسارعَ جوهر بالذهاب إلى قاضٍ معروف بالإسكندرية يدعى «أبا الطاهر محمد بن الأحمد» واستشاره بما يفعله مع الإخشيديين متذرِّعاً بالجهاد قائلًا: «مَا تَقُوْلُ فِيْمَن أَرَادَ العُبُوْرَ إلى مِصْرَ لِيَمْضِيَ إلى الجِهَاد لِقِتَالِ الرُّوْمِ، فَمُنِعَ، أَلَيْسَ لَهُ قِتَالِهِمُ؟»، فوافق القاضي، وأصدر فتوى تحلُّ له قتال الإخشيديين. قاد ابن الإخشيد جيشًا إلى وراء النيل في جهةٍ قريبةٍ من الجيزة، والتقى هناك بجيش جوهر، إلا أنَّ الفاطميين سرعان ما انتصروا انتصارًا كبيرًا، ودخلوا الفسطاط بسهولة، ثم فتحوا ما تبقَّى من مصر دون مقاومةٍ تذكر، وقد فرح الناس بهزيمة ابن الإخشيد بعد ما عانوه بسببه، ونهبوا قصور الإخشيديين بعد أن فرَّ هؤلاء إلى بلاد الشام.

شُرِعَ ببناء الجامع الأزهر سنة 359 هـ بعد نحو سنةٍ واحدة على ضمّ مصر إلى الدولة الفاطمية.

أمر جوهر الصقليُّ فور ضمِّ مصر ببناء مدينةٍ جديدةٍ ليستقرَّ فيها جنوده، وذلك تجنُّباً لأيّ مشاكل أو توترات قد تنجم عن اختلاط العساكر بأهل البلاد. وقد قسَّم المدينة الجديدة إلى أقسامٍ ليفصل كل مجموعةٍ عرقيَّة عن الأخرى، فكان هناك حيٌّ خاص بالأمازيغ، وواحد للصقالبة، وآخر للروم، وهلُمَّ جرًا. وبعد أن استقرَّت الأمور في مصر، قرَّر معز الدين نقل عاصمة دولته من المهديَّة بإفريقية إلى هذه المدينة الجديدة، وهكذا تأسَّست مدينة «القاهرة المعزِّيَّة» في 17 شعبان سنة 358 هـ6ودخل معز الدّين الفاطمي مصر في سنة 362هـ المُوافقة لسنة 972م، لتصبح مقرَّ حكم الفاطميين حتى نهاية دولتهم.

قبل أن يرحل المعزّ لدين الله عن إفريقية لينتقل إلى عاصمته الجديدة في مصر، عيَّن بلكين بن زيري واليًا عليها مكانه، وكان ذلك في سنة 362هـ المُوافقة لسنة 972م. وقد استولى أبناؤه من بني زيري على مجمَل شمال أفريقيا فيما بعد، وانقسموا

بعد بعض الخلافات الداخلية إلى قسمَين اثنين: «بنو زيري» في إفريقية، و«بنو حماد» في المغرب الأوسط (الجزائر حاليًّا). لكن الزيريِّين استقلوا لاحقًا عن الدولة الفاطميَّة، وحوَّلوا ولاءهم عوضًا عنها إلى الخلافة العبَّاسيَّة في المشرق.

بعد أن استقرَّت الأمور في مصر للفاطميِّين، انتقل صراعهم إلى دولة القرامطة في الشَّرق. فقد غزا القرامطة بدعمٍ بويهيٍّ مصر عدَّة مرات، وكادوا يصلون إلى القاهرة، لكنَّ جوهر الصقلي نجح بصدّ هجماتهم.

وخلال السنوات الآتية أخذ الفاطميُّون بالتوسُّع تدريجيًّا على حساب القرامطة وباقي الدول الأخرى في المنطقة، فتمكَّنوا من انتزاع بلاد الشام في سنة 363هـ المُوافقة لسنة 973م من الحُسين بن أحمد القرمطي حاكم القرامطة، وضمُّوها حتى مدينة حلب شمالًا بعد القضاء على دولة الحمدانيّين، واستولوا على الحجاز بعد هزيمة أشرافها، فباتت رقعة الدولة الفاطميَّة ممتدّة من المغرب إلى مشارف العراق.

المزايا السياسية و الفكرية لنظام الدولة الفاطمية

كان نظام الحكم في ظل الخلافة الفاطمية، كما كان في سائر الدول الإسلامية الأخرى، في العصور الوسطى، نظاما مطلقا يستأثر فيه الخليفة بجميع السلطات الروحية و الزمنية، و قد سارت الخلافة الفاطمية على هذا النحو منذ قيامها بالمغرب، ثم بعد ذلك منذ قيامها بمصر، فكان الخليفة الفاطمي، هو الدولة، و هو صاحب السلطات المطلق. و صورة الأمور السلطانية تضم الشروح الآتية:

(إن طاعة الأمام جامعة للملوك و الرعايا، و الرعايا تجمع الأعطاء و الطاعة، و إن الوزير يجمع السياسة، و الجباية، و الجباية جامعة للوزراء و العمال، و أن الملك يجمع الطاعة و السياسة، و العامل يجمع الجباية والأعطاء وإن الأعطاء جامع للعمال والرعايا، و أن السياسة مشتركة).

و من هذه الشروح الفلسفية لنظرية الحكم الفاطمية، يتضح إن الأمام هو رئيس الدولة الأعلى، و قد يكون هو الأمام الروحي و الملك الزمني معا، و قد يكون تحت رياسته ملوك آخرون، يدينون له بالطاعة الدينية و الدنيويه، و هو الحاكم المطلق، و من تحته تتدرج السلطات من أعلى إلى أسفل، و أول من يليه من أهل السلطات هو الوزير، و بأسمه و بتوجيهه يزاول سلطاته في الحكم، و يلي الوزير العمال أو حكام الولايات و الثغور، و هؤلاء يزاولون سلطات الحكم على من دونهم من الرعايا، و ليس للرعية شأن و لا قول و لا رأي، و ليس لها أن، تتصل بالعامل أو الوزير أو الملك، إلا بالطاعة المطلقة.

والخلاصة إنها من الناحية الدستورية (نظرية الحكم المطلق) بل هي تمتاز فوق ذلك، بأن رئيس الدولة الاعلى فيها، و هو الأمام يمتاز بصفات العصمة و القداسة، باعتباره قائم الزمان، و أن قيامه يرجع إلى مشيئة الله.

ومن الميزات التي تميزت بها الدولة الفاطمية صبغتها المذهبية العميقة، كما كانت تمتاز بطرافة نظمها السياسية و قد كانت الدولة الفاطمية مبتكرة مجددة في كثير من قواعد الحكم و الأدارة، و في كثير من الرسوم و النظم، و كانت هذه الرسوم و النظم فوق طرافتها الدستورية تطبعها نفس الصبغة الباذخة، التي تطبع الدولة الفاطمية و سائر مظاهرها.

كانت الخلافة الفاطمية خلافة مذهبية (شيعية) شعارها الأمامة الدينية، و كان لهذه الصفة المذهبية أثرها في صوغ كثير من النظم و الرسوم التي اختصت بها. و قد نشأت الدولة الفاطمية في قفار المغرب، دولة عسكرية ساذجة تظللها الصبغة الدينية، فلما اتسع ملكها و عظم سلطانها بأفتتاح مصر و الشام، شعرت بالحاجة إلى التوسع في النظم السياسية و الأدارية، التي يقوم عليها هذا الملك الباذخ، و لم تكتف بالأعتماد على الخطط العسكرية و الدينية و المدنية المعروفة، بل عمدت إلى الأبتكار في تنظيم الاصول و الخطط الدستورية، وفقا لحاجاتها و غاياتها السياسية و المذهبية.

و ليس من المبالغة القول إن ديوان الأنشاء كان أعظم الدواوين قاطبة في إدارة الحكم الفاطمية، و كانت مهمته من أخطر و أدق المهام. ففي دولة كالدولة الفاطمية، لها صبغة مذهبية خاصة، كانت السجلات أو المراسيم تصاغ في أساليب عالية، و كان بث الدعوة المذهبية و عرضها خلال المكاتبات السياسية، يتطلب أرقى و أبلغ الصيغ البيانية.

أما الخطط الدينية فكانت تشمل عدة وظائف خطيرة، أعظمها و أجلها قدرا منصب قاضي القضاة، و منصب الدعاة، و كان قاضي القضاة أعظم زعيم ديني في الدولة، و إليه مرجع الأحكام الشرعية في العبادات و المعاملات و الحدود، و النظر في شؤون السكة (دار الضرب)، و شؤون المساجد و أئمتها و سائر المتصرفين فيها، وكان اختصاصه يشمل مصر و الشام و المغرب و الحرمين، و مركزه العام بالقاهرة.

أما عن المتون الشرعية التي كانت مرجعا للقضاء في العصر الفاطمي، فقد كانت تتضمن أساسا متون الفقه الشيعي أو فقه الأمامية الأسماعيلية، وذلك سواءا في العبادات، أو المعاملات أو الحدود، و كان العلامة الفقيه الشيعي الكبير النعمان بن محمد القيرواني قاضي المعز لدين الله، هو أول من وضع متونا منفصلة في أحكام الفقه الأسماعيلي، لبثت طوال العصر الفاطمي، هي المرجع الأول للقضاء.

من جهة أخرى إتسمت الخلافة الفاطمية على الصعيد الديني بسياسة ثابته، اتسمت بجانب من المرونة، تمثلت في إستمالة أهل السنة و الجماعة، و تمكينهم من إظهار شعائرهم على إختلاف مذاهبهم، و كانت المذاهب السنية المعروفة، الشافعي و مالك و أحمد (بخلاف أبي حنيفه) ظاهرة الشعائر في مملكتهم، و كان مذهب مالك بالأخص ذائعا، و من سأل الحكم به أجيب إلى طلبه.

و قد أنشئت في الخلافة الفاطمية لأول مرة هيئة رسمية خاصة للنظر في شؤون العلوية و المنتسبين إلى آل البيت(ع)، و عرفت هذه الهيئة يومئذ بـ (نقابة الطالبيين)، وكان يتولى النظر عليها واحد من أكبر شيوخهم و أجلهم قدرا، يسهر على صحة

الأنساب و اثباتها و رعاية شؤونهم و رعاية مصالحهم، و فيما بعد عرفت هـذه الهيئـة بأسـم (نقابـة الأشراف).

كانت الدولة الفاطمية أشد الدول الإسلامية حرصا على أن تطبـع الـشعب والمجتمـع بطابعهـا الخاص، و أن تصوغ روح الشعب و عقليته و تفكيره و برامجه وفقا لمناهجها و رسومها.

تركزت الأعياد الدينية الرسمية في عهد الدولة الفاطمية، بجملة أعياد خاصه بها شرعت لغايات دينية و سياسية، أما الأعياد العامة، فهي رأس السنة الهجرية، وليلة المولد النبـوي الكـريم، و ليلـة أول رجب وليلة نصفه، و ليلة أول شعبان و ليلة نصفه، و غرة رمضان، و يوم الفطر، و يوم النحـر أو عيـد الأضحى، و أما الأعياد المذهبية فهي الأحتفال بمولد أمير المـؤمنين عـلي بـن أبي طالـب، و مولـد ولديـه الحسن والحسين، و مولد زوجته السيدة فاطمة الزهـراء ابنـة النبـي(ص)، و هـي التـي ينتـسب إليهـا الخلفـاء الفـاطميون، و يـوم عاشـوراء أو عـاشر المحـرم، أي اليـوم الـذي يـصادف فيـه مقتـل الإمـام الحسين(ع) في طف كربلاء سنة 61 هـ هذا إلى جانب أعياد مصرية قديمة، كعيد فـتح الخلـيج، و يـوم النوروز، و عيد الشهيد.

و كانت الخلافة الفاطمية ترمي بترتيب هذه الرسوم و المناسـبات إلى غـايتين: الأولى أن تثبـت هيبتها الدينية بما تسيغه من الخطورة و الخشوع على بعض المظاهر والرسـوم المذهبيـة، و الثانيـة أن تغمر الناس بفيض من الحفلات والمآدب و المواكب الباهرة، و أن تنثر عليها ما استطاعت مـن دواعـي البهجة والمرح، و ذلك لكي تكسب ولاء الناس و عرفانهم و تأييدهم لها.

الحركة الفكرية و العلمية في ظل الفاطميين

قامت الدولة الفاطمية بمصر و الحركة العقلية المصرية تشكل طورا من أطـوار قوتها، ذلك أن الدولة الأخشيدية التي استخلص الفاطميون منهـا تـراث مـصر، كانـت

نصيرة للعلوم و الآداب، و في ظلها إزدهرت الحركة الفكرية و الأدبية، ونبغ عدة من المفكرين. و الكتاب الممتازين، مثل ابن يونس المحدث و المؤرخ، و الفقيه أبوبكر الحداد، و أبو عمر الكندي المؤرخ، و الأديبين الشاعرين أبو جعفر النحاس و أبو القاسم بن طباطبا الحسيني، و الحسن بن زولاق الفقيه و المؤرخ.

ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر ما لبثت الحركة العقلية أن لقيت ملاذها في قيام الجامعة الفاطمية الكبرى، التي تمثلت بـ (الجامع الأزهر) الذي أقيم في البداية ليكون مسجد الدولة الجديدة و منبرها الرسمي، ثم أنشئت فيه منذ عهد العزيز بالله تلك الحلقات الدراسية التي إستحالت فيما بعد إلى جامعة حقة، و كانت الدولة الفاطمية تعني منذ قيامها بناحية معينة من الدراسات الدينية هي الناحية المذهبية، وانشئت (جامعة دار الحكمة) الشهيرة في عهد الحاكم بأمر الله.

وأيضا أنشئ منصب داعي الدعاة ليشرف على بث الدعوة على يد نوابه ونقبائه، و تولي تدريس الأصول الشيعية و فقه آل البيت(ع) منذ البداية، جماعة من الفقهاء الممتازين، و في مقدمتهم بنو النعمان. و أولى الحاكم الفاطمي الحركة العقلية شيئا أو جانبا من رعايته، فأجزل النفقة لجامعة دار الحكمة كما هو بالنسبة للجامع الأزهر، و زودها بخزائن الكتب الجليلة، وعقد مجالس المناظرة للعلماء و الأدباء، وغمرهم بصلاته، و قرب إليه عدة من أقطاب المفكرين و الأدباء، أمثال الكاتب والمؤرخ الكبير محمد بن القاسم بن عاصم شاعر الحاكم و جليسه، و أبي الحسن علي بن محمد الشابشتي الكاتب صاحب الديارات، و قد توفي سنة 390 هـ و ابن يونس العلامة و الرياضي و الفلكي الشهير و غيرهم.

كما نبغ في مجال علوم الطب عدة من أكابر الأطباء، منهم محمد بن أحمد سعيد التميمي طبيب العزيز بالله، و أبو الفتح منصور بن مقشر النصراني، ثم طبيب ولده الحاكم من بعده.

و ازدهرت الحركة الفكرية المصرية نوعا ما خـــلال النـصــف الأول مـــن القـرن الخـامس، بـــيد إنها ضعفت في أواخر هذا القرن في عهد المستنصر بالـلـه، وكانت هـــذه الفترة غـــاصة بالمحن و الأحـــداث و الفـتن الداخليـة و الخارجيـة، فلـم تلـــق الحركـة الأدبـــية كثـــيرا مـن الرعايـة أو التعضيد، بيد إنها عادت في أوائل القرن الـسادس فانتعـشت، و اسـتمرت عـلى إنتعاشـا و قوتهـا حتـى نـــهاية الدولة الفاطمية سنة 567هـ / 1172م.

و في الفترة الأخيرة من عصر الدولة الفاطمية، ازدهرت حركة الكتابة في مجال النثر مـن حيـث براعته وروعة إسلوبه و افتنانه، و تعاقب فيها من ديوان الأنشاء عدة مـن أئمـة البيـان الرائـع، الـذين جعلوا من رسائلهم الحلافية و الديوانية نماذج من الفصاحـــة الباهـــرة، وكـــان من هؤلاء أبو الفتـوح الدمياطي شيخ القاضي الفاضل، و ابن الخلال.

و من ابرز الفلاسفة الكثيرين الذين تأثروا بالعقائد الـشيعية عامـة و الفاطميـة خاصـة أحمـد حميد الدين الكرماني فيلسوف الدعوة وحجتها في العراق و صاحب الكتـب الفلـسفية الفاطميـة مثـل كتاب راحة العقل و كتاب المصابيح و كتاب الأقوال الذهبية و غيرها، و كذلك المؤيد في الدين و غيره.

و لعل أشهر عالم رياضي شهدته مصر الفاطمية هـو الفيلـسوف أبـو عـلي محمـد بـن الحـسن الهيثم الذي تضاهي مرتبته العلمية مرتبة اينشتاين في العصر الحديث.

لقد تفرد الفاطميون بانشاء دور الكتب الكبرى في الاسـلام و بلغـت تلـك الـدور حـداً عجيبـاً، و اجتمع فيها من امهات الكتب و مصادر العلوم المختلفة. مـن مـآثر الفـاطميين التـي لا يـزال المـسلمون يستفيدون منها حتى اليوم جامع الأزهر، و قد شرع القائد الفاطمي جوهر في بناء الأزهر بأمر من المعز عندما شرع في بناء مدينة القاهرة يوم السبت لست بقين من جمادي الأولى سنة 359هـ، و تم بنـاؤه في التاسع من رمضان سنة 361هـ، ثم جدد فيه العزيز بالـلـه و الحـاكم بـأمر الـلـــه ثـم جـدده المستنـصر

بالـلـه و الحافظ لدين الـلـه. و كان هذا المسجد محل رعاية الخلفاء الفاطميين و عنايتهم فلـم يقـصروا في تجديده و الزيادة فيه، و وقفوا لمؤذنيه و خدمه وسائل نظافته و انارته و فرشه مـا هـو مـذكور في كتب التاريخ.

أحوال مصر عند الفتح الفاطمي

كانت مصر تتبع الدولة العباسية تبعية أسمية حيث بلغت الخلافة العباسية في بغداد درجة كبيرة من الضعف بحيث لم يعد للخليفة أية سلطة عليها بعد أن أستقل حكام الولايات بولاياتهم مع بقاء اعترافهم بالسيادة الدينية للخلفاء العباسيين ممثلة في ذكر اسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة و نقش اسمه علي السكة (العملة).

فاستقلت مصر أيام الدولة الطولونية ثم الإخشيدية ، كما استقل السامانيين بخراسان و بلاد ما وراء النهر، و أنشأ عبد الرحمن الثالث الخلافة الأموية في الأندلس.

وبلغت الخلافة العباسية ضعفاً كبيراً حتي في عقر دارها فأصبح الخليفة العباسي تحت سيطرة قواده من الفرس و الأتراك الذين جاء بهم ليكونوا جنوداً له بدلاً من العرب، فتحول الأمر أن أصبحوا هم القوة الحقيقية المسيطرة، فقامت الدولة البوبهية في العراق و بعض مدن فارس، و الدولة الحمدانية في الموصل و ديار بكر، و الدولة الغزنوية في أفغانستان أولاً ثم ما لبثت أن استولت علي بعض أملاك الدولة السامانية و الدولة البويهية.

على الرغم أن هذه الدويلات المستقلة كانت تمثل تفتيتاً للخلافة العباسية الجامعة و أدت إلي نزاعات كثيرة فيما بينها، إلا أنها في الوقت نفسه أفرزت قادة أقوياء استطاعوا أن يصدوا هجمات البيزنطينيين و أن يوسعوا حدود الأمة الإسلامية بفتح دولاً جديداً ما كانت الخلافة العباسية تستطيع أن تصلها بعد ما حل بها من ضعف و ميل إلي الترف و البذخ ، منها علي سبيل المثال بلاد الهند التي فتحتها الدولة الغزنوية و كانت سبباً في دخول الإسلام لشبه القارة الهندية (الهند و باكستان و بنجلادش الآن).

و كثرة الـدويلات الإسـلامية المنفـصلة عـن الخلافـة العباسـية قـد أدي أيـضاً إلي ظهـور مراكـز حضارية بجانب بغداد هي عواصم تلك الدويلات مثل القاهرة و قرطبة و طشقند و غيرها مـما وسـع الزخم الحضاري للحضارة الإسلامية.

تفاصيل الفتح الفاطمي لمصر

حاول الفاطميون فتح مصر ثلاث مرات سابقة حتـي تـولي الخلافـة الفاطميـة في بـلاد المغـرب الخليفة المعز لدين الـلـه الفاطمي سنة 341 هج ، و بدأ في تجهيز جيش ضخم ليفتح به مـصر وصـل عدده إلي 100 ألف جندي ، وولي علي قيادته جوهر الصقلي .

خرجت الحملة في 14 ربيع ثاني سـنة 358 هـج / فبرايـر 969 م مـن مدينـة القـيروان بقيـادة جوهر الصقلي و دخل الاسكندرية فسلمها أهلها بدون قتال. و أدرك أهل الفـسطاط أنـه لا قبـل لهـم بصد جيوش الفاطميين فأرسل الوزير جعفر بن الفرات رسولاً من العلويين إلي جـوهر الـصقلي يطلـب منه الأمان ، ووافق جوهر وكتب عهداً بنشر العدل و بث الطمأنينة و ترك الحرية للمصريين في إقامـة شعائرهم الدينية.

وفي 17 شعبان دخـل جـوهر مـصر (الفـسطاط) وخـرج الـوزير جعفـر بـن الفـرات و سـائر الأشراف و العلماء في استقباله و رحبوا به ، و عسكر جوهر في الموضع الذي بنا فيه مدينة القاهرة.

و هكذا زال سلطان الخلافة العباسية و الحكم الإخشيدي في مصر بدون قتال ولا ضربة سـيف واحدة و أصبحت مصر ولاية فاطمية في دولة تمتد من المحيط الأطلنطي غرباً إلي البحر الأحمر شرقاً و استمرت كذلك لمدة 200 عام.

أعمال جوهر الصقلي في مصر

حكم جوهر الصقلي مصر حوالي ثلاث سنوات من 969 م / 358 هـج إلي 972 م / 362 هـج كإحدي الولايات الفاطمية نائباً عن الخليفة الفاطمي المعز الله الفاطمي .

كان جوهر الصقلي حاكماً عادلاً يجلس للمظالم بنفسه و يرد الحقوق لأصحابها و يضرب علي أيدي المفسدين و مثيري الإضطرابات. ، كما كان يمنع الجند المغاربة من الإعتداء علي الأهالي.

أسس جوهر الصقلي القاهرة ، رابع عواصم مصر الإسلامية ، لتكون مقراً لحكم الخليفة الفاطمي في مصر. و كان مساحتها الأولية 340 فداناً علي شكل مربع طول ضلعه 1200 متر تقريباً ، و كانت تمتد من منارة جامع الحاكم شمالاً إلي باب زويلة جنوباً و يحد من المدينة شرقاً تلال المقطم و من الغرب الخليج الكبير و من الجنوب مدينة القطائع ، كما قام ببناء سور يحيط بمدينة الجديدة من الطوب اللبن له ثمانية أبواب هي : باب زويلة و باب الفرج من الجنوب و باب الفتوح و باب النصر من الشمال و باب القراطين (باب المحروق) و باب البرقية من الشرق و باب القنطرة في الغرب.

اختط جوهر الصقلي قصراً كبيراً لإقامة الخليفة الفاطمي و كان يقع بالقرب من السور الشرقي لذلك سمي بالقصر الشرقي. و كان يمتد من الموضع الذي يوجد به المشهد الحسيني الآن إلي الجامع الأقمر تقريباً و كانت له تسعة أبواب: ففي الناحية الشرقية كانت توجد أبواب العيد و الزمرد و قصر الشوك و الناحية الغربية كانت توجد أبواب البحر و الذهب و الزهومة ، و الناحية الجنوبية كانت توجد أبواب تربة الزعفران و الديلم و في الناحية الشمالية باب واحد هو باب الريح.

وعمل الفاطميون منذ أول يوم لهم علي تحويل أهل مصر إلي المذهب الشيعي، و لكن بدون إجبار. فأمر جوهر الصقلي المؤذنين في المساجد بأن يؤذنوا بحي علي خير العمل بدلاً من حي علي الفلاح – و هو مذهب الشيعة في الآذان.

كما أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً يتلقي الناس فيه عقائد المذهب الشيعي، والذي سعي إلي نشره بالطرق السلمية و الترغيب. فكان يقوم بتعيين معتنقي المذهب الشيعي من المصريين في مناصب الدولة المهمة.

بدأ جوهر بناءه للمسجد الجامع ، الذي سمي بعد ذلك جامع الأزهر ، في أبريل سنة 970 م / جمادي الآخر 359 هج، و اتمه في يونية سنة 972 م / 361 هج. و كانت مساحة الأزهر عند بنائه نصف مساحته الحالية التي تبلغ الآن 12000 متراً مربعاً.

أقيمت في الجامع الأزهر أول صلاة جمعة يوم 6 رمضان سنة 361 هج، ولاحظ الناس أن الخطيب لم يدع للخليفة العباسي كما كان من قبل، و إنما دعي للخليفة الفاطمي المعز لدين الله.

كما أمر جوهر بأن يقال في الخطبة :" اللهم صل علي محمد المصطفي، و علي عليٌ المرتضي، و علي فاطمة البتول، و علي الحسن و الحسين سبطي الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً، و صل علي الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله ".

أتبع الفاطميون وسائل مبتكرة في الترويج لمذهبهم الشيعي، فإلي جانب تعيين معتنقي المذهب في مناصب الدولة، لجأ الفاطميون إلي استحداث احتفالات دينية لم تكن موجودة من قبل، و ربطها بمظاهر فرح و طقوس يغلب عليها البهجة والاستمتاع، و ذلك لتحبيب الناس في المذهب الجديد. من تلك الاحتفالات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف و ليلة النصف من شعبان و عاشوراء و احتفالات

شهر رمضان، وابتداع أكلات و أغاني مخصوصة لهذه الأعياد منها أكلات الكنافة والقطائف في شهر رمضان، وطبق العاشوراء في مولد عاشوراء، و أغنية وحوي يا وحوى التي يغنيها الأطفال و هم يخرجون بالفوانيس في ليالي رمضان.

ضم الشام و فلسطين لسلطان الفاطميين

كان طموح الفاطميين هو التوسع شرقاً علي حساب الخلافة العباسية ،فكلف جوهر الصقلي لذلك جعفر بن فلاح و هو قائد مغربي من قبيلة كتامة بضم فلسطين و الشام لسلطان الفاطميين ، و كانت فلسطين و الشام في ذلك الوقت تحت حكم بقايا الإخشيديين. و دارت معركة فاصلة بين الجيش الفاطمي و جيش الإخشيد بقيادة الحسن بن عبد الله بن طغج، و انتصر فيها الفاطميون و تمكنوا من بسط نفوذهم علي دمشق و فلسطين سنة 969 م / 359 هـج و أصبحت الخطبة في بلاد الشام للخليفة الفاطمي.

و لكن الفاطميون لم يهنأوا طويلاً ، فقد انقلب عليهم القرامطة في الجزيرة ، علي الرغم أنهم شيعيون أيضاً ، و زحفوا علي دمشق و استولوا عليها وهزموا الفاطميين الذين ارتدوا إلي مصر فتبعهم القرامطة داخل مصر و تقابل الجيشان شرق القاهرة ، ودارت معركة قاسية استطاع فيها الفاطميون صد القرامطة وردهم إلي الشام.

و بعد سنتين حاول القرامطة غزو مصر مرة أخري و لكن الفاطميون هزموهم شرق القاهرة ثم تبعوهم إلي الشام و شتتوا شملهم و دخل الفطميون دمشق مرة أخري سنة 974 م / 363 هـج و اعادوا الشام إلي سلطة الفاطميين.

قدوم المعز إلى مصر و تحولها إلى مركز الخلافة

لما رأي جوهر أن دعائم الحكم الفاطمي قد توطدت في مصر أرسل إلي الخليفة المعز يدعوه للحضور إلي القاهرة ليستقر بها و تكون عاصمة الخلافة الفاطمية.

ترك المعز لـدين الـلــه الفـاطمي مدينـة المنـصورية (بتـونس الآن) و سـار إلي مـصر ودخـل القاهرة في 7 رمضان 362 هج / 972 م ، وأصبحت مصر منذ دخوله عاصمة الخلافة الفاطمية و مقـر الخليفة.

حمل المعز معه إلي مصر ألف و خمسمائة جمل محملة بالذهب ، و حمل معه رفات أجداده ليعاد دفنها في القاهرة. و سكن القصرين الذان شيدهما له جوهر الصقلي في مدينة القاهرة.

أعفي الخليفة المعز جوهر الصقلي من الوزارة خوفاً منه علي سلطته و ولي يعقوب بن كلـس ، و هو يهودي عراقي حضر إلي مصر و أقام فيها، و اشتهر بدهائه و تدبيره أيام كافور الإخشيدي حتي قال عنه " لو كان هذا الرجل مسلماً لجعلته وزيراً".

تحول يعقوب بن كلس إلي الإسلام عام 967 م قبل دخول الفاطميين مـصر، و رحـل إلي شـمال إفريقيا حيث ألتحق بخدمة الخليفة الفاطمي المعز ، حتي جاء المعز إلي مصر و ولاه وزارة مـصر بـدلاً من جوهر الصقلي. و كان من أول أعـمال يعقـوب هـو الإفـراج عـن جميـع مـن سـبق اعتقـالهم مـن الأخشيديين و الكافوريين.

و في سبيل نشر المذهب الشيعي أصدر يعقوب أوامره بأن ينقش عـلي الجـدران عبـارة (خـير الناس بعد رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) و استعان بالـشعراء و أغدق عليهم للدعوة إلي المذهب الشيعي.

كما استن الخليفة المعز سنة إقامة الولائم في قصر الخليفة و تبعه الخلفاء مـن بعـده في هـذه العادة. وبلغ عرشه الذي يجلس عليه من الفخامة حداً يفوق الوصف. كما أمر الخليفـة المعـز بعمـل خريطة للعالم من الحرير الأزرق توضح كل أقطار العالم.

قاهرة المعز

قاهرة المعز هي المدينة التي بناها جوهر الصقلي لتكون مقر الخليفة الفاطمي بعد الفتح الفاطمي لمصر سنة 969م. أرسل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قائده جوهر الصقلي لفتح مصر، و تمكن جوهر من دخول مصر دون قتال و دخل الفسطاط في 17 شعبان سنة 358 هج / 7 يوليو سنة 969 م .

حرص جوهر ليلة وصوله علي انشاء حاضرة (عاصمة) للخلافة الفاطمية، فنظر إلي السهل الرملي الواقع شمالي الفسطاط ، و كان يخلوا من المباني إلي البستان الكافوري و دير فسيح يطلق عليه دير العظام و حصن صغير يسمي قصر الشوك. فاختط مدينته و أحاطها بسياج علق عليه أجراس ، و عندما تدق هذه الأجراس تكون إذاناً ببدأ العمل في بناء المدينة.

و ظل جوهر يترقب ظهور كوكب ميمون الطالع ليبدأ العمل في البناء . ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان إذ حط فوق أحد الحبال المعلق عليها الأجراس غراب فدقت الأجراس ، فظن العمال أن هذه إشارة بدء العمل ببناء المدينة فشرعوا في البناء.

وظهر أن إشارة بدء العمل التي تسبب فيها الغراب قد توافقت مع ظهور كوكب المريخ ، قاهر الفلك كما يطلقون عليه ، فرفع جوهر الأمر للخليفة الفاطمي الذي كان مشتغلاً بالتنجيم فوافق علي نسبة المدينة الجديدة للكوكب القاهر و اسموها القاهرة.

ولقد شملت القاهرة أول الأمر قطعة من الأرض مساحتها 340 فداناً علي شكل مربع طول ضلعه 1200 متر تقريباً، و كانت تمتد من منارة شمالاً حتي باب زويلة جنوباً و أحاطها جوهر بسور من اللبن، و يقع في هذا السور ثمانية أبواب هي: باب زويلة و باب الفرج من الجنوب ، باب الفتوح و باب النصر في الشمال، و باب

القراطين (المحروق) و باب البرقية في الشرق و باب السعادة و باب القنطرة في الغرب.

و يحد المدينة من الشرق تلال المقطم ، و من الغرب الخليج الكبير و من الجنوب مدينة القطائع التي بناها أحمد بن طولون.

و لقد نمت القاهرة و اتسعت و ذاعت شهرتها فأعجب بها الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر ما بين سنتي 1047 و 1049 م، فذكر أن حوانيتها (دكاكينها) لم تقل عن عشرين ألفاً و خاناتها و حماماتها لا يمكن حصرها. و كانت أبنيتها أعلي من الأسور الحصينة للمدينة ، و في كل منها خمس أو ست طبقات. وكانت البيوت في المدينة مبنية بناءً نظيفاً و كانت مفصولة بعضها عن بعض بحدائق يرويها مياه الآبار.

الازدهار في مصر

تاريخ بناء الأزهر

الجامع الأزهر (359 - 361 هـ) / (970 - 972 م). هو من أهم المساجد في مصر وأشهرها في العالم الإسلامي. وهو جامع وجامعة منذ أكثر من ألف سنة ، وقد أنشئ على يد جوهر الصقلي عندما تم فتح القاهرة 970 م، بأمر من المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر، وبعدما أسس مدينة القاهرة شرع في إنشاء الجامع الأزهر ، ووضع الخليفة المعز لدين الله حجر أساس الجامع الأزهر في 14 رمضان سنة 359 هـ - 970م، وأتم بناء المسجد في شهر رمضان سنة 361 هـ - 972 م، فهو بذلك أول جامع أنشى في مدينة القاهرة المدينة التي اكتسبت لقب مدينة الألف مئذنة ، وهو أقدم أثر فاطمي قائم بمصر. وقد اختلف المؤرخون في أصل تسمية هذا الجامع، والراجح أن الفاطميين سموه بالأزهر تيمنا بفاطمة الزهراء إبنة النبي محمد وإشادة بذكراها.

بعد الإنتهاء من بناء المسجد في 972، تم توظيف 35 عالم في مسجد من قبل السلطات من في 989، ويعتبر المسجد ثاني أقدم جامعة قائمة بشكل مستمر في العالم بعد جامعة القرويين. وقد اعتبرت جامعة الأزهر أول في العالم الإسلامي لدراسة المذهب السني والشريعة، أو القانون الإسلامي.

تم تأميم جامعة متكاملة داخل المسجد كجزء من مدرسة المسجد منذ إنشائه، وعينت رسميا جامعة مستقلة في عام 1961، في أعقاب الثورة المصرية لعام 1952 .

صلاح الدين الأيوبي والسلاطين الأيوبيون السنيين الذي أتو من بعده تجنبوا الأزهر على مدى تاريخ طويل، وقد تم إهمال المسجد بالتناوب وبشكل كبير، لأنه تأسس باعتباره مؤسسة لنشر المذهب الإسماعيلي، وقد تم إزالة مكانته باعتباره مسجد شيعي وحرمان رواتب للطلبة والمدرسين في مدرسة الجامع.

في عهد السلطنة المملوكية تم عكس هذه التحركات ،حيث بلغ الاهتمام بالأزهر ذروته، وكان ذلك بمنزلة العصر الذهبي للأزهر، وقاموا بالعديد من التوسعات والتجديدات التي طرأت على البنى التحتية للمسجد، كما أظهر الحكام في وقت لاحق من مصر بدرجات متفاوتة الكثير من الإهتمام والإحترام للمسجد، وقدمت على نطاق واسع مستويات متفاوتة من المساعدة المالية، على حد سواء إلى المدرسة وإلى صيانة المسجد.

اليوم، لا يزال الأزهر مؤسسة لها تأثير عميق في المجتمع المصري ورمزاً من رموز مصر الإسلامية.

تأسست مدينة القاهرة بواسطة جوهر الصقلي ،وهو قائد فاطمي رومي من أصل يوناني من جزيرة صقلية، وأطلق عليها اسم المنصورية ، وأعدت المنصورية لتكون مقراً للخلافة الفاطمية المتواجدة في تونس ، وقد استخدم المسجد لأول مرة في عام 972، وسُمّي في البداية بجامع المنصورية ،وقد كانت تسمية المسجد باسم المدينة

التي يتواجد بها ممارسة شائعة في ذلك الوقت، مع دخول الخليفة المعز لدين الـلـه لمصر قام بتسمية المدينة بالقاهرة ، وهكذا أصبح اسم المسجد جامع قاهرة ، في أول نسخه من المصادر العربية.

اكتسب المسجد اسمه الحالي، الأزهر، في وقـت مـا بـين الخليفـة المعـز ،ونهايـة عهـد الخليفـة الفاطمي الثاني في مصر العزيز بالـلـه، والأزهـر معنـاه المـشرق وهـو صـيغة المـذكرة لكلمـة الزهـراء، والزَّهْرَاءُ لقبُ السيدة فاطمة بنتِ الرسول، زوجة الخليفة علي بن أبي طالب ، وقد ادعـى المعـز وأئمـة الدولة الفاطمية أنهم من سلفهم ؛ وهي نظرية واحدة لمـصدر تـسمية الأزهـر، هـذه النظريـة، ومـع ذلك، لم يتم تأكيدها في أي مصدر عربي ، وقد تم الاستحسان في دعمها كلياً، وقد نفتهـا مـصادر غربيـة في وقت لاحق.

نظرية بديلـة هـي أن اسـم المـسجد اشـتق مـن الأسـماء التـي قـدمها الخلفـاء الفـاطميين إلى قصورهم، القريبة من المسجد والتي سميت بشكل جماعي بالقصور الزاهرة تيمناً بالحدائق الملكية بها ، التي اختيرت من قبل العزيز بالـلـه، وقد تم الانتهاء من القصور وتم تغيير اسـم المـسجد مـن جـامع القاهرة إلى الأزهر.

أما اشتقاق كلمة جامع من جذر الكلمة العربية الجامعة ، وتعنـي "الجمـع"، ويـتم اسـتخدام الكلمة للمساجد التي تجمع الكثير من الناس. بينما في اللغة العربية التراثية اسم الأزهر تم تغيـيره إلى جامع الأزهر، ونطق كلمة جامع هي تغييرات كلمة جماعة "في لهجة مصرية.

فالخليفة الفاطمي المعز لدين الـلـه، إمام إسماعيلية الرابع، قام بغزو مصر عن طريق قائد قواتـه جوهر الصقلي، الذي نجح في انتزاعها من سلالة "إخشيديون"، وبأمر من الخليفة، أشرف جوهر عـلى بنـاء المركز الملكي "للخلافة الفاطمية" وجيشها، وقد بنـي الأزهـر كقاعـدة لنـشر مـذهب الـشيعة الإسـماعيلية، الـذي يقـع بـالقرب مـن مدينـة الفـسطاط الـسنية، وقـد أصـبحت القـاهرة مركـزا للطائفـة الإسـماعيلية الشيعية، ومركز للدولة الفاطمية كـما أمـر جـوهر ،ببـدأ بنـاء مـسجد كبـير للمدينـة الجديـدة، وقـد بـدأ

العمل في 4 أبريل، 970 وقد تم الانتهاء من المسجد في عام 972، وعقـدت أول صـلاة الجمعـة في 22 يونيو 972 خلال شهر رمضان.

سرعـان مـا أصبح الأزهـر مركـزا للتعليـم في العـالم الإسـلامي، وصـدرت التـصريحات الرسـمية وجلسات المحكمة التي عقدت هناك، وخلال الحكم الفاطمي، أصبحت التعـاليم الـسرية سـابقا مـن المذهب الإسماعيلي (كلية القانون) متاحة لعامـة الناس،وقـد عـين المعـز القـاضي الـنعمان بـن محمـد القاضي ، مسؤولا عن تدريس المذهـب الإسماعيلي، وقد كانت بعض الفـصول تـدرس في قـصر الخليفـة، وكذلك في الأزهر، مع دورات منفصلة للنساء، وخلال عيد الفطر عام 973، تم ترسيم المسجد كمسجدا لصلاة الجماعة الرسمي في القاهرة بأمر من الخليفة ، المعز وابنه عندما أصبح بـدوره الخليفـة، جعلـوا خطبة الجمعة خلال شهر رمضان في الأزهر.

كما جعل يعقوب بن كلس، الموسوعي والفقيه والوزير الرسمي الأول للفاطميين، الأزهر مركـزا رئيسيا للتعليـم في القـانون الإسـلامي في عـام 988، وفي الـسنة التاليـة، تـم توظيـف 45 عـالم لإعطـاء الدروس، وإرساء الأساس لما يمكن أن يصبح الجامعة الرائدة في العالم الإسلامي.

وتم توسيع المسجد أثناء حكم الخليفة العزيز (975-996). ووفقا للمفـضل، أنـه أمـر بترمـيم أجزاء من المسجد تصدعت بقياس ذراع واحدة كحـد أقـصى . كـما اسـتمر الخليفـة الفـاطمي القـادم، الحاكم، بترميم المسجد وتوفير باب خشبي جديد في عام 1010. ومع ذلـك، شـهد عهـد الحـاكم إكـمال مسجده الذي سمي تيمنا به، ومنه فقد الأزهـر مركـزه كمـسجد صـلاة الجماعـة الأولي في القـاهرة. في أيار/مايو 1009 أصبح مسجد الحاكم بأمر الـلـه المكان الوحيد لخطب للخليفة وخطبة الجمعـة. بعـد عهد الحاكم، استعاد الأزهر مكانه في عهد المستنصر، وقد تم تنفيذ إضافات وتجديـدات عـلى المـسجد ،وقداضيفت الكثير من التجديدات في عهد الخلفاء الفاطميين الذي أتو من بعده.

في البداية كان الأزهر يفتقر لمكتبة التي أنشئت في وقت لاحق من تشييده، وقد وهبت للأزهر من قبل الخليفة الفاطمي في 1005 ، الآلاف من المخطوطات التي شكلت الأساس لمجموعتها،وكانت الجهود الفاطمية لإقامة الإسماعيلية الممارسة بين السكان، ومع ذلك لم تنجح جهودهم إلى حد كبير، الكثير مما يتعلق بتجميع المخطوطات فرقت في الفوضى التي تلت سقوط "الخلافة الفاطمية"، وأصبح الأزهر مؤسسة سنية بعد ذلك بوقت قصير

بلغت الدولة الفاطميَّة ذُروة عزِّها وكمالها في عهد الخليفة الخامس، أبو منصور نزار العزيز بالله، وإليه يُعزى تمكين السيطرة الفاطميَّة على مصر والشَّام، ونشر السلام والرَّخاء في مُختلف أرجاء الدولة، التي بلغت في عهده أقصى اتساعها.

كان العزيز مسؤولًا عن إرساء الدولة الفاطميَّة وتشكيل هويَّتها، إذ يمكن تشبيه دوره بدور أبي جعفر المنصور في الدولة العبَّاسيَّة،وقد بدأ عهده في سنة 365 هـ الموافقة لِسنة 975م.

من بين 270 سنة تقريبًا عاشتها الدولة الفاطميَّة من صعودها إلى سقوطها، يُعتبر أنَّ عصر قوتها الحقيقيَّة استمرَّ لنحو 115 سنةً منها، بعدها قرابة 70 سنةً عاشتها في ازدهارٍ حضاري لكن بضعفٍ سياسي، قبل أن تبدأ بالانحطاط والسُّقوط.

أبو عليّ المنصور الحاكم بأمر الله، أحد أبرز الخُلفاء الفاطميين، ومن أبرز أعلام الإسماعيليَّة عبر التاريخ. حكم خلال العصر الذهبي للدولة الفاطميَّة.

شهد عهد العزيز إنجازاتٍ إدارية وتنظيميَّة متنوعة. فقد رُتِّبت الدواوين بدقَّة لتسهيل الإجراءات الإدارية. وأحاط العزيز نفسه بمظاهر الترف وأغدق الأموال على قصوره وممتلكاته. واستحدث منصب الوزراء، فعمل على اختيار رجالٍ كفؤين لشغل هذا المنصب، إلا أنَّه اختارهم من الطائفتين اليهوديَّة والنصرانيَّة، لكي لا يكون لهم نفوذٌ كبير يسمح لهم بالانقلاب عليه (وقد كان أوَّلهم وأحد أشهرهم يعقوب بن

كلس). وكذلك عدّل تركيبة الجيش العرقية، فقد كان الجيش الفاطمي بأكمله تقريباً مؤلّفا من الأمازيغ، فخشي أن يتكاتفوا معًا عليه إذا ما اضطّربت الأمور، لذا شكّل جيشًا جديدًا خاصًا به من الجنود التُرك والأكراد والسُّودان، وكلّف هذا الجيش بإدارة معظم ولايات دولته عوضًا عن الجيش الأمازيغي. وقد وقعت نتيجةً لذلك فتنةٌ في الجيش بين المغاربة والأعراق الأخرى. وقد أراد العزيز أن يكون مذهب الدولة الرسميُّ هو المذهب الإسماعيليّ، فعمل على نشره في دولته بكلُّ ما استطاع، وسمح بسبِّ صحابة محمّد.

شهد عصره بعض الإنجازات العسكريّة أيضًا، فقد قاد جوهر الصقلي عدّة حملاتٍ على الشام والعراق، تمكّن خلالها من ضمّ مدن شيزر وحمص وحماة، بل وقد نجح ببلوغ الموصل وإجبار جوامعها على الدعاء للخليفة الفاطمي لفترةٍ قصيرة. توفّي العزيز نتيجة مرض في القولون سنة 386هـ الموافقة لسنة 996م.

خلف العزيز ابنه الحاكم بأمر الله، فاتّبع أباه في بداية عهده، ونجح بتثبيت أركان الدولة وتهيئة أمورها، وحسّن علاقته مع أهل السُنَّة، فجالس علماءهم وبنا لهم دور علم. وقد كان متديّنًا كثيرًا لحدّ المُغالاة، حتى أنه حظر زراعة العنب خشية استعماله بصناعة الخمر، ومنع النسوة من المشي في الشوارع، واضطّهد المسيحيّين واليهود. إلا أنَّ شخصيته تقلّبت فيما بعد، فغيَّر منهجه مع أهل السُنَّة، ولم يعد شديد التديُّن، بل إنَّه أصيب بالغرور حتى شبَّه نفسه بالإله وسمح لأتباعه بوصفه بأوصافٍ إلهية، ممَّا أساء لسمعته وسمعة الإسماعيليَّة في مصر والعالم الإسلامي، وأثار سخط النَّاس عليه، فثاروا عليه وكرهوه، وانتشرت الفوضى بمصر، فوقعت اشتباكاتٌ بين السكان وجيش الحاكم بأمر الله، ودبّت الفوضى. وأخيراً قرَّر الحاكم الخروج من القاهرة، وكان ذلك في شوَّال سنة 411هـ الموافقة لِسنة 1021م، واختفى اختفاءً غير مفسَّرٍ بعد خروجه منها بفترةٍ قصيرة. وهناك العديد من الروايات والنظريات حول سبب اختفائه، لكن الأرجح أنَّه اغتيل. منذ نهاية عهد الحاكم، أخذت قوّة الفاطميين

السياسيَّة بالانحدار شيئا فشيئًا، وكان معظم الحكام الذين تبعوه صغارًا لم يبلغوا سنَّ الرُّشد بعد، لذا فقد افتقروا إلى السُّلطة، وأصبحت الدولة فعليًّا في أيدي الوزراء الفاطميّين أو أقارب حكامها صغار السِّن.

خلف الحاكم بقيادة الدولة الفاطميَّة ابنه الظاهر لإعزاز دين الله، إلا أنَّه كان حدثًا لم يبلغ سنَّ الرشد، فأصبحت عمَّة له تُدعَى «ست الملك» الحاكمة الفعليَّة للدولة، وتمكَّنت من إدارة شؤون الدولة بصورةٍ جيِّدة، إلا أنَّها توفّيت في منتصف عصرهسنة 415هـ وقد سار عهده بهدوءٍ في البداية، إلى أن بدأت الثورات ضدَّه، فخرج صالح بن مرداس في الشام وانتزع منه حلب، ثمَّ جاء حاكم الرملة «حسان بن المفرج البدوي» فانتزع معظم أنحاء الشام.

وقد دام حكم الظاهر لخمسة عشرة سنة، ثم توفِّي صغيراً.

مسجد الحاكم بأمر الله أحد معالم العصر الذهبي للدولة الفاطميَّة بالقاهرة.

تولَّى ابنه معد المستنصر بالله الخلافة وهو لا يزال في السَّابعة من العمر، وقد دام حكمه نحو 60 سنة، ليكون أطول الخلفاء الفاطميِّين عهداً على الإطلاق. في بداية عهده، كانت أمُّه وبعض وزرائه هم الحكام الفعليِّين للدولة. كان النصف الأول من خلافة المستنصر مزدهرًا ازدهارًا عظيمًا، فوصلت فيه الدولة الفاطميَّة أوج قوَّتها واتّساعها، وامتدَّت حدودها من المغرب إلى العراق، بل وقد تمكَّن سنة 450هـ الموافقة لسنة 1058م رجلٌ من حلفاء الفاطميّين يدعى «أبا الحارث البساسيري» من الاستيلاء على بغداد والقبض على الخليفة العباسي، فأقام الخطبة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر، وكانت تلك أوَّل وآخر مرَّة في التاريخ تقام بها الخطبة ببغداد للفاطميين.

إلا أنَّ الأمور بدأت بالاضطَّراب فيما بعد، فأصيبت مصر بمجاعةٍ هائلة استمرَّت سبع سنوات من سنة 457 إلى 464هـ (الموافقتين لسنتي 1065 إلى

1071م)، وهي تُعرَف باسم «الشدَّة العظمى» و«الشدَّة المستنصريَّة». وبدأت العديد من أقاليم الدولة بالتمرُّد على الفاطميّين، فانقطعت الخطبة عن المستنصر في مكة والمدينة سنة 462 هـ الموافقة لسنة 1070م ليُخطَب عوضاً عنه للخليفة العباسي مجدَّدًا، وكانت الحال نفسها في المغرب، فقطع أمير بني زيري المعز بن باديس علاقته بالفاطميِّين وحوَّل ولاءه إلى الخلافة العباسيَّة، أمَّا بغداد التي كانت قد انضمَّت للفاطميين حديثًا، فقد قتل حاكمها البساسيريُّ على يد سُلطان السلاجقة طغرل بك القادم من الشرق، لتنتهي سلطة الفاطميِّين عليها حتى نهايتهم. ولم يتوقَّف السلاجقة عند هذا الحدّ، بل تابعوا التقدُّم غربًا ليصطدموا بالدَّولة الفاطمية مرة أخرى في بلاد الشام، ونجح سلطانهم جلال الدولة ملك شاه بانتزاع معظم بلاد الشام من الفاطميين - بما فيها القدس وفلسطين - سنة 463 هـ (1070م). وتسبَّب عجز المستنصر عن السيطرة على هذه الأحداث بانهيار هيبته تمامًا في الدولة.

وعلاوةً على هذه الخسارات الكبيرة، فقد وقعت الفتنة سنة 466 هـ بالجيش بين المغاربة أولاً، والتُرك ثانيًا، والسُّودان ثالثًا، ووقعت معاركة كبيرةٌ بينهم وكثر القتل.

بدأت الدَّولة تخرج تمامًا عن السَّيطرة، وأخذ التُرك يصبحون الحكَّام الفعليِّين للدولة عوضًا عن الخليفة نفسه، فقرَّر المستنصر الاستعانة بحاكم عكا الأرمنيّ بدر الدين الجمالي، وهو أشبه بدكتاتورٍ يُعرَف بشدَّته وقدراته الإدارية والتنظيميَّة العالية. استدعى المستنصر بدر الجمالي ليتسلَّم منصب وزراة الدولة الفاطمية وقيادة جيشها، فوافق هذا الأخير، وجاء إلى مصر، وكان وزيرًا قويًّا ومهيبًا، فأعاد للدَّولة قوَّتها واستقرارها وثبَّت أركانها من جديد. ووصلت الدولة في عهده أوج قوَّتها وازدهارها، فشيِّدت القصور وازدهر العلم والحضارة وعادت الأموال الكثيرة إلى مصر، فارتفع الخراج من مليوني دينارٍ في سنوات المجاعة إلى أكثر من ثلاثة ملايين.

من جهةٍ أخرى، فشل بدر الجمالي في بعض النواحي العسكريَّة، إذ لم يستطع حماية بلاد الشام من تقدُّم السلاجقة التُرك شرقًا والصليبيّين الأوروپيّين شمالاً، فخسر الفاطميُّون كُل الشَّام ما عدا مدينة عسقلان.

لم يكن مجيء بدر الجماليّ جيِّدًا تمامًا للمستنصر، فقد بدأ ينازعه على السُّلطة، وتنامى نفوذه بدرجةٍ كبيرةٍ جدًّا، حتى أصبح أقرب إلى الحاكم الفعلي للدولة الفاطميَّة، واستمرَّت الحال هكذا حتى وفاة المستنصر سنة 487 هـ الموافقة لسنة 1094م، فبدأ بذلك «العصر الفاطمي الثاني»، الذي كان الوزراء فيه هم الحكَّام الفعليّين للدولة.

عصر نفوذ الوزراء وإلغاء الخلافة العبيدية

العصر العبيدي (الفاطمي) الثاني

الخليفة المستعلي الفاطمي و بداية العصر الفاطمي الثاني

يتميز العصر الفاطمي الثاني بضعف الخلفاء الفاطميين و وقوعهم تحت سلطة وزرائهم ، كما شهد هذا العصر بدء الحملات الصليبية علي المشرق الإسلامي التي لم يستطع المسلمون صدها نظراً لما آلت إليه الخلافة العباسية من ضعف، و كذلك الخلافة الفاطمية التي كانت تشهد نزاعات مؤسفة بين الخلفاء الفاطميين و وزرائهم و كذلك بين الوزراء و حكام الأقاليم حتي أنهم استعانوا بالصليبيين ضد بعضهم البعض كما سنري في عهد الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين.

بعد وفاة الخليفة المستنصر، آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء ، قام الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بإقصاء أكبر أبناء الخليفة المستنصر نزار من الولاية، و قام بتعيين ابن الخليفة الثاني أحمد المستعلي سنة 1095 م / 487 هج. و دارت نزاعات مريرة بين الأخوين قتل فيها نزار و تمكن المستعلي من السيطرة علي الحكم. و ينسب إلي نزار، أكبر أبناء الخليفة المستنصر بالله، مذهب الشيعة النزارية.

كان من سوء حظ الخليفة المستعلي أنه وقع عليه عبء التصدي للحملة الصليبية الأولي التي استولت علي القدس سنة 1099 م .

جهز الوزير الأفضل بن بدر الجمالي جيشاً لاستعادة القدس و ألتقي بالصليبيين بقيادة جودفري عند عسقلان و لكن الفاطميون هُزموا هزيمة نكراء و قتل من المسلمين 10 آلاف، و فر الوزير الأفضل غرباً حتي عاد إلي القاهرة. وبذلك تقلصت أملاك الخلافة الفاطمية لتشمل مصر و الجزيرة و اليمن فقط.

لم يدم حكم المستعلي لمصر لأكثر من ست سنوات فقد توفي سنة 1101 م / 495 هج، و خلفه ابنه الآمر بأحكام الله في الحكم.

الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي

تولي الآمر بأحكام الله حكم الفاطميين سنة 1101 م بعد وفاة أبيه المستعلي. ووقع الخليفة تحت نفوذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الذي سبق و أن سيطر علي الخليفة المستعلي.

ولكن الصراع بينهما وصل لذروته عندما تنازل الوزير عن إيمانه بالمذهب الشيعي و تحديه بالتالي لشرعية الخليفة. فما كان من الخليفة إلا أن تآمر مع فرقة الحشاشين لقتله، فقتلوه سنة 1121 م / 515 هج .و عين الخليفة الوزير مأمون البطائحي مكانه.

و لكن مالبث أن ذاق المأمون من نفس الكأس و أُغتيل سنة 1125 م / 519 هج. و لا يعرف علي وجه اليقين من قتله، هل هو الخليفة الآمر بأحكام الله بسبب إسرافه في جمع المال، أم ابن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي انتقاماً من مشاركة المأمون في قتل ابيه.

واستكمالاً لسلسلة المؤامرات و الإغتيالات التي سادت في ذلك العصر، انتهي الأمر بالخليفة الآمر بأحكام الله أن أغتيل علي يد أعدائه بينما كان عائداً يوماً

من جزيرة الروضة إلي قصره سنة 1130 م / 524 هج، و خلفه ابن عمه الخليفة الحافظ لأن الخليفة الآمر لم يكن له ولد.

و من أهم أعمال الخليفة الآمر بأحكام الله إنشائه الجامع الأقمر سنة 519 هج / 1125 م في شارع المعز الذي تعد واجهته البديعة من أجمل الواجهات في العمارة الإسلامية، و لا يضارعها واجهة أخري في جوامع القاهرة الحالية.

الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي

تولي الخليفة الحافظ لدين الله الحكم بعد اغتيال ابن عمه الخليفة الآمر بأحكام الله سنة 1130 م . و لكن الوزير أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي سيطر علي مقاليد الأمور و حد من سلطات الخليفة حتي أنه اعتقله و سجنه سنة 1130 م ، كما اضطهد أبو علي بن الأفضل الشيعة في مصر حتي قتله المتمردون الشيعة و أطلقوا سراح الخليفة.

لما قتل أبو علي بن الأفضل ولي الخليفة بهرام الأرمني وزيراً علي مصر سنة 1136 م / 531 هج ، و كان بهرام مسيحياً كاثوليكياً، و لكنه اضطهد المصريين و كثرت مظالمه، و عاونه علي ذلك ثلاثون ألفاً من الأرمن الذين أخذوا في نهب الأموال و الاعتداء علي الممتلكات و الأعراض حتي ثار الناس. فأمر الخليفة جيشه بمحاصرة القاهرة و طرد بهرام و الأرمن خارجها.

توفي الخليفة الحافظ لدين الله سنة 1150 م / 544 هج و تولي ابنه الظافر حكم مصر.

الخليفة الظافر الفاطمي

أصبحت الخلافة الفاطمية علي شفا الهاوية، فالوزراء يسيطرون علي الخلفاء، و الخلفاء يدبرون المكائد للوزراء. و ماحدث في عهدي الخليفة الظافر و الفائز هو مثال

صارخ و مفجع لسقوط دولة ظلت تحكم حوالي نصف العالم الإسلامي لمدة قرنين من الزمان.

تولي الخليفة الظافر سنة 1150 م / 544 هج . و بدأ عهده بالمكائد فقد أوعز إلي صديق له يدعي نصر بن عباس أن يقتل الوزير ابن السلار لأنه سني مخالف لمذهب الفاطميين الشيعي. فقام نصر باغتيال ابن السلار، و بالتالي أصبح أبوه العباس (أبو نصر) وزيراً فاطمياً. و لكن الخليفة عاد و حرض نصر علي قتل ابيه العباس. و لكن العباس أكتشف المؤامرة و اقنع ابنه بقتل الخليفة الظافر فقتله سنة 1154 م / 549 هج.

خلف الظافر ابنه الفائز، و استطاع القبض علي نصر و ابيه العباس بعد هروبهما إلى الشام، و قام بصلبهما.

وفي عهد الخليفة الظافر فقد الفاطميين آخر معاقلهم في فلسطين و هي عسقلان عندما سارع بلدوين الثالث ملك إمارة بيت المقدس الصليبي بالزحف علي عسقلان و محاصرتها و اقتحامها سنة 1153 م / 548 هج.

و لقد قامت الحامية الفاطمية بعسقلان بنقل رأس الإمام الحسين رضي الله عنه إلي القاهرة عندما علمت بقرب اقتحام الصليبيين للمدينة سنة 1153 م . و لقد أمر الخليفة الفائز بحفظ رأس الإمام الحسين في علبة في أحد سراديب قصر الزمرد إلي أن تم بناء مشهد لها بالقرب من الجامع الأزهر الشريف.

الخليفة الفائز بنصر الله الفاطمي

جاء الخليفة الفائز إلي الحكم و عمره ستة أعوام بعد اغتيال ابيه الظافر، و لكن نساء القصر سارعن بطلب حضور الأمير طلائع بن رزيك ، أحد أمراء الدلتا، ليتولي الوزارة.

ظل الفائز يحكم مصر لمدة ستة أعوام عن طريق أوصياء العرش، ثم مرض و مات سنة 1160 م / 555 هج، و خلفه ابن عمه العاضد آخر الخلفاء الفاطميين.

الخليفة العاضد بالله الفاطمي و نهاية الخلافة الفاطمية

انتقلت الخلافة الفاطمية في مصر إلي الخليفة العاضد سنة 1160 بعد وفاة الخليفة الفائز.و كان وزيره في تلك الفترة طلائع بن رزيك الذي نجح في اخماد الفتن و انهاء حالة الفوضي التي عاشت فيها البلاد في عهدي الخليفة الظافر و الفائز.

إلا أن المؤامرات مالبثت أن حيكت ضد طلائع بن رزيك و شارك فيها الخليفة الفاطمي نفسه، و انتهت بقتل طلائع و تولي الوزارة أبو شجاع (العادل) بن طلائع، إلا انه لم يمكث أكثر من سنتين و خلعه شاور الذي كان حاكماً علي الصعيد و تولي الوزارة مكانه.

ثم صار الأمر إلي صراع مرير بين شاور و ضرغام، أمير فرقة جند مغاربة، علي كرسي الوزارة. حتي أنهم استعانوا بالصليبيين في بيت المقدس و نور الدين زنكي في الشام ضد بعضهم البعض ليستولوا علي وزارة مصر. فما كان من نور الدين محمود زنكي إلا أن انتهز هذه الفرصة و أرسل إلي مصر جيوش متتالية بقيادة أسد الدين شيركوه و ابن أجيه صلاح الدين الأيوبي ليسقط الخلافة الفاطمية المترنحة و يضم مصر إلي الشام تحت إمرته لقتال الصليبيين.

تمكن أسد الدين شيركوه من صد الصليبيين الطامعين في مصر و خلع شاور من وزارة مصر و تولي الوزارة بنفسه بمباركة الخليفة الفاطمي العاضد بالله الذي كان مريضاً و مشرفاً علي الموت، ثم ما لبث أن مات في 1171 م / المحرم 567 هج.

وبذلك انتهت الخلافة الفاطمية التي استمرت ما يقرب من 200 عام. و إجمالاً يعد الحكم الفاطمي حكماً قوياً حتي وفاة الخليفة المستنصر بالله ، خامس الخلافاء

الفاطميين، سنة1094 م. و بعد ذلك اضطرب الحكم اضطراباً شديداً، و انتقلت السلطة الحقيقة إلي الوزراء فأصبحوا المسيطرين الحقيين علي الدولة.

وشهدت الخلافة الفاطمية أسوأ عهودها في الصراعات التي بين الوزراء والخلفاء، وبين بعضهم البعض حتي أنهم لم يتصدوا للصليبيين (الحملة الصليبية الثانية)، و فقدوا كل أملاكهم في الشام و فلسطين للصليبيين.

ولم يكتفوا بذلك، بل بدأوا في الاستعانة بالصليبيين ضد بعضهم البعض. ولكن القدر أراد لمصر أن تصير إلي صلاح الدين الأيوبي بعد سقوط الخلافة الفاطمية، ليتخذ منها قاعدة لبناء سلطنة مصر و الشام التي ستدق المسمار الأكبر في نعش الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي

ظهور طائفة الإسماعيلية النزارية

ابتدأ هذا العصر بالنزاع بين أبناء المستنصر نزار الابن الأكبر وولي العهد من قبل أبيه، وأحمد أبو القاسم صغير السن الذي فرضه الأفضل بدر الجمالي ليكون الخليفة رغم أنف نزار..

وكان في هذه الآونة بمصر الحسن بن الصباح القائم على الدعوة الإسماعيلية بأصبهان، جاء يتعمق في دراسة المذهب الإسماعيلي.. فلما رأي هذه الأحداث، وكان الحسن يري أن تولية نزار الإمامة بعد أبيه تتفق مع تعاليم الإسماعيلية، التي تشترط أن يكون الإمام أكبر أبناء أبيه، وأظهر الحسن رأيه بمصر، وهدد نفوذ بدر الجمالي، فكاد له بدر وزجه بالسجن ونفاه إلى بلاد المغرب، غير أن الريح قذفت بالسفينة التي أبحر عليها سنة 472 هـ إلى سواحل الشام، فنزل بثغر عكا ثم عاد إلى بلاده حيث أخذ ينادي بإمامة المستنصر وابنه نزار، من بعده ولذلك سميت هذه الطائفة الإسماعيلية النزارية.

عصر نفوذ الوزراء

سيطر الوزراء في هذا الطور على مقاليد الحكم، وبلغ من نفوذ الأفضل أنه بعد وفاة المستعلي سنة 495هـ أتى بأبي على بن المستعلي، وأقامه على الخلافة وعمره خمس سنوات، ولقبه بالآمر فلما شب هذا الخليفة الصغير ضاق ذرعًا بنفوذ وزيره فدبر لقتله فقتله سنة 515 هـ.

وفى سنة 524هـ قُتِل الخليفة وتولي أخوه عبد المجيد أبو الميمون الحافظ الخلافة من بعده، ولكن الجند ثاروا عليه وولوا أبا على أحمد بن الأفضل الوزارة، فاستأثر بالسلطة والنفوذ وسجن الحافظ- وكان إماميًا لا إسماعيليًا- فعمل على الانتصار لهم وعلى إضعاف المذهب الإسماعيلي بأن عين أربعة قضاه؛ أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي والثالث شافعي والرابع مالكي، وأعطي كلاً منهم السلطة في إصدار أحكامه وفق مذهبه (ولم يسمع بمثل هذا في الملة الإسلامية قبل ذلك).

ومكث على ذلك حتى اغتالته الإسماعيلية سنة 526هـ وأخرجوا الحافظ من سجنه وعاد خليفة من جديد.

وفي سنة 529هـ طمع بهرام الأرمني والي الغربية في الوزارة، فقدم إلى القاهرة وحاصرها يومًا فاضطر الحافظ إلى توليته الوزارة على الرغم من عدم دخوله الإسلام، وعاني المصريون فترة من سيطرة الأرمن وتحيز بهرام لبني جنسه، حتى أنهم أكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره.. حتى استطاع رضوان بن ولخشي والي الغربية أن يطرد بهرام وأصبح وزيرًا سنة 530 هـ ولكنه أراد أن يعزل الحافظ ودار بينهما صراع انتهي بمقتل رضوان سنة 452هـ.

وهكذا ظل النزاع والتنافس على الوزارة بين الوزراء والخلفاء جيلاً بعد جيل، وتدخل الوزراء في تولية الخلفاء، ولم يراعوا في توليتهم تعاليم الإسماعيلية.

حملات نور الدين محمود إلى مصر

تطور التنافس على الوزارة في مصر في نهاية العصر العبيدي (الفاطمي) إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة، فلقد لجأ شاور وزير الدولة المخلوع على يد أحد قواد الجيش ضرغام سنة 558 إلى الالتجاء لنور الدين محمود، صاحب دمشق، ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، على أن يتنازل له عن ثلث خراج مصر فأعانه نور الدين بحملة بقيادة أسد الدين شيركوه فتغلب على ضرغام وأعيد شاور إلى منصبه سنة 559 هـ ولم يف شاور بما عاهد عليه حليفه نور الدين، وطلب من شيركوه أن يرجع إلى الشام وأرسل شاور إلى ملك الفرنجة ببيت المقدس يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية، فسارع الملك إلى نجدته ونجح في إخراج شيركوه إلى بلاد الشام

وفى سنة 562 أنفذ نور الدين حملة إلى مصر بقيادة شيركوه، لما ثبت له غدر شاور به، وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا في هذه الحملة.

استنجد شاور ثانية بالفرنجة فأجابوه والتقى جند شيركوه وجند الفرنجة وحلفاؤهم في مكان يعرف بالبابين (على مقربة من المنيا)، وكان النصر من نصيب شيركوه ولم يجد نفسه قادرًا على السير إلى القاهره فوطد سلطانه بالصعيد وجبى الخراج، ثم سار إلى الإسكندرية عبر الصحراء وعين ابن أخيه صلاح الدين واليًا عليها، ولكن قوات الفرنجة والمصريين عادت إلى محاصرة الإسكندرية برًا وبحرا فأسرع شيركوه إلى نصرة صلاح الدين. فطلب المصريون والفرنجة الصلح فأجابهم على ألا يقيم الفرنجة بالبلاد المصرية، ثم عاد شيركوه إلى دمشق والحقيقة أن قوات الفرنجة لم تغادر مصر تنفيذًا لهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة كان من أهم شروطها.. (أن يكون لهم بالقاهرة شحنة صليبية، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن إنفاذ عسكره إليهم).

كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبين مائة ألف دينار سنويا من دخل مصر..

أطمع الحال التي وصلت إليها مصر الفرنجة في أن يقدموا بحملة سنة 564هـ لغزوها بقيادة ملك بيت المقدس، ولم يجد شاور أمامه سوى استعمال الحيلة، فأحرق الفسطاط حتى لا يأوي إليها الصليبيون، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يومًا.. ثم أرسل إلى ملك الفرنجة أنه يخشى إن دخلتم مصر أن يقدم نور الدين ليحتل مصر، وأشار عليه بالصلح على أن يؤدي إليه ألف ألف دينار..

على أن شاور ما لبث أن خدع الفرنجة، فأرسل إلى نور الدين يطلب النجدة، وتعهد أن ينزل له عن ثلث بلاد مصر،وأن يأذن لأسد الدين شيركوه بالإقامة عنده مع جنده، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجًا عن ثلث البلاد الذي أفرده لنور الدين.

سارع نور الدين إلى تجهيز قوة كبيرة بقيادة شيركوه توجهت نحو مصر، فلما وصلت الأخبار إلى الصليبيين قرروا الرحيل إلى فلسطين بغير قتال، ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة في ربيع الآخر سنة 564 فرحب به أهلها، واستقبله الخليفة العاضد وخلع عليه، وأصبح أسد الدين شيركوه وزيرًا للعاضد، واستطاع في فترة وزارته القصيرة أن يقبض على زمام الأمر بالدولة.

وحاول شاور أن يدبر مؤامرة للقبض على شيركوه ومن معه من الأمراء، ولكن نهاه ابنه الكامل وقال: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين».

فقال شاور: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعًا».

قال ابنه: «صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الإفرنج».

فعدل عن عزمه ثم تخلص منه أسد الدين بعد ذلك وقتله.

اختيار صلاح الدين وإلغاء الخلافة العبيدية الفاطمية

توفي أسد الدين بعد ثلاثة أشهر من دخوله القاهرة، واختار العاضد صلاح الدين يوسف بن أيوب وزيرًا له، فبذل الأموال للرعية فأحبوه، وأمر بذكر نور الدين في الخطبة بعد الخليفة العبيدي (الفاطمي)، وأقطع أصحابه البلاد، وأسند إليهم بعض المناصب، فهدد بذلك صلاح الدين أصحاب المصالح في بقاء الدولة الفاطمية، فعملوا على المكر، به واتفق رأيهم على أن يكاتبوا الفرنجة ودعوتهم إلى مصر، فإذا ما خرج صلاح الدين إلى لقائهم، قبضوا على من بقي من أصحابه بالقاهرة وانضموا إلى الفرنجة في محاربته.

ولكن صلاح الدين الأيوبي كان يقظًا واستطاع أن يقضي بقوة على خطط هؤلاء، فدبر لقتل جوهر مؤتمن الخلافة، فثار الجند السودانيون، وكانوا يزيدون على خمسين ألفًا ودار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف، فتتبعهم صلاح الدين حتى وصلوا الصعيد حتى قضي على نفوذهم نهائيًا سنة 572..

كانت الفرنجة تتربص بنور الدين وتوسعاته في مصر، ويرون فيه خطرًا يهدد كيانهم، ولذلك هيأوا لحملة جديدة على مصر، استعانوا فيها بإمبراطور الدولة البيزنطية، فتوجهوا إلى دمياط يعاونهم أسطول بيزنطي مزود بالمؤن والعتاد، فوصلوا إليها في صفر سنة 565 فلم يخرج إليهم صلاح الدين بنفسه خوفًا من مؤامرات العبيديين الفاطميين، بل أرسل جيشًا بقيادة أخيه تقي الدين عمر، وخالد شهاب الدين محمود لمواجهة الفرنجة وبعث يطلب المدد من نور الدين فأرسل إليه مددًا، وكان الخليفة العاضد كذلك حريصًا على إعانة صلاح الدين بالمال طوال مدة حصار الفرنجة لدمياط؛ لذلك يقول صلاح الدين.. (ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى ما أرسله إلى من الثياب وغيرها).

وقد فترت حماسة الصليبيين فرجعوا من حيث أتوا في ربيع الأول سنة 565.

لما أيقن صلاح الدين أن سلطانه قد أستقر، وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الـشيعي في مصر، فأنشأ سنة 566 هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وأخـري لتـدريس المـذهب المـالكي،وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس قاضيًا للقـضاة في جميـع أنحـاء الـبلاد المـصرية، فاستعاد بذلك المذهب السني قوته.

ثم أرسل نور الدين إلى صلاح الدين أن يجعل الخطبة باسـم الخليفـة العبـاسي محـل الخليفـة العبيدي الفاطمي، فتردد متخوفًا من سخط المصريين، لكن نور الدين أصر فتحولـت الخطبـة للخليفـة العباسي المستضيء بنور الـلـه... وكان العاضد إذ ذاك مريضًا ولم يعلم أهله بـذلك ثـم تـوفي في 10 مـن محرم سنة 567، وهكذا انتهت الدولة العبيدية (الفاطمية) الشيعية بمصر.

الباب الخامس

الأفول والإرث

الانحسار

دخول الجيوش الصليبيَّة إلى بيت المقدس سنة 492 هـ\1099م، بعد مقاومةٍ من الحامية الفاطميَّة في المدينة دامت لنحو شهر (في زمن خلافة المستعلي).

حسب النظام المتبَّع في الدولة الفاطمية، كان أكبر أبناء الخليفة هو الذي يُعيَّن وليًا للعهد، ولذا كان من المفترض أن تؤول الخلافة بعد وفاة المستنصر إلى ابنه الأكبر نزار المصطفى لدين الله.[87] إلا أنَّ المستنصر كان - بعد ضغوطاتٍ وجهودٍ حثيثة من وزيره الملك الأفضل شاهنشاه - قد قرَّر عوضًا عن ذلك نقل ولاية العهد إلى ابنه الأصغر أحمد المستعلي بالله، وأدَّى هذا الخلاف إلى وقوع شقاقٍ في المذهب الإسماعليّ لا زال موجودًا حتى الآن، حيث انقسم الإسماعيليُّون بين مؤيّدي خلافة نزار بناءً على أحقيَّته (النزارية) ومؤيدي خلافة المستعلي بناءً على توصية والده (المستعلية). وكان الملك الأفضل (وهو ابن الوزير الفاطمي الشهير بدر الجمالي وقد ورث عنه منصب الوزارة) قد رفض خلافة نزار بسبب خلافٍ وقع بينهما، وكانت هذه واحدةً من ملامح نفوذ الوزراء الشَّديد بالدولة الفاطمية وسيطرتهم عليها، التي استمرَّت منذ وفاة المستنصر وحتى نهاية الدَّولة.

حصل في حين وقوع هذه الأحداث أن الحسن بن الصباح جاء إلى مصر لتحصيل علوم المذهب الإسماعيلي، فشهد الخلاف الذي وقع بين الإسماعيليَّة والنزاريَّة، ودعا بأحقيَّة نزار بالخلافة، فغضب عليه الملك الأفضل وسجنه. وقد تمكَّن حسن الصباح من الفرار لاحقًا، فرحل إلى بلده أصبهان ليدعو بإمامة نزار وأسَّس هناك جماعة الحشَّاشين.

معركة عسقلان، دارت بعد سقوط القدس مباشرةً، في محاولةٍ من الوزير الفاطميّ الملك الأفضل لاستعادة بلاد الشام من الصليبيّين، إلا أنَّ الدولة الفاطمية تلقَّت فيها خسارة فادحة.

حدث في عهد المستعلي أن وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى المشرق، وغزا الصليبيُّون سواحل بلاد الشام وأسَّسوا فيها إمارتي الرها وأنطاكية. عندما وصل الصليبيون إلى الشام كان يحكمها السلاجقة، إلا أنَّ السلاجقة أنفسهم كانوا قد انتزعوها من الفاطميين قبل نحو ثلاثين سنة، وعندما رأى الملك الأفضل أنَّهم هزموا أمام الزَّحف الصليبي، طمعَ بأن يعيد هذه الأراضي إلى سلطان الدولة الفاطمية مجدَّدًا، فحشد جيشًا وحاصر القدس وأخذها من السلاجقة، وبسط سيطرته على كامل فسلطين حتى منطقةٍ قريبة من بيروت.

إلا أنَّ الجيوش الصليبية سرعان ما وصلت، وكان قوامها نحو 40,000 رجل، فضربت الحصار على القدس لمدَّة شهر، ثم تمكَّنت من دخول المدينة، ووقعت مذبحةٌ عظيمةٌ في جيوش الفاطميّين راح ضحيَّتها عشرات الآلاف، وسقطت القدس بذلك في شهر يوليو سنة 1099م (492 هـ).

وقد فقد القاطميُّون إثر هذه المعركة آخر أملاكهم في بلاد الشام، وأصبحت دولتهم تقتصر تقريبًا على مصر وحدها.

لم تدم خلافة المستعلي طويلاً، فقد توفي خلال سبع سنين، فخلفه ابنه البكر الآمر بأحكام الله ذي الخمس سنوات، بناءً على رغبة وزير الدولة الملك الأفضل. كان الآمر خليفةً قويًّا، فما إن بلغ سنَّ الرشد حتى بدأ بفرض ثقله في الدَّولة، وقد أحسَّ بنفوذ وزيره الشَّديد في دولته، فدبَّر لاغتيال الملك الأفضل، وعيَّن مكانه المأمون البطائحي.

إلا أنَّه رغم ذلك لم يحسن السِّيرة، فساءت أوضاع الدولة في عهده. وقد قتل اغتيالاً سنة 524 هـ (1130م).

وفي حين مقتله، كان قد عهد الآمر بالخلافة من بعده لابنه الطيب أبو القاسم والذي لم يكن قد ولد حتى، بل كان لا يزال رضيعًا في رحم أمُّه، ولم يكن للآمر ابنٌ

آخر يتولَّى الخلافة، فعُيِّن أخوه الحافظ لدين الـلـه نائبًا للخليفـة ليتـولَّى شـؤون الحكـم حتـى بلـوغ الطيّب سنَّ الرشد. وأخطأ الحافظ باختيار أحمد بن الملك الأفضل وزيرًا له، فـما إن تـولَّى هـذا الـوزارة حتى قبض على الحافظ وزجَّ به في السجن، واستبدَّ الوزير بالدولـة ولم يعـد للخليفـة المـسجون كلمـةٌ فيها. لكنَّ هذه الحال لم تَطُل، فسُرعَان ما اغتال الإسماعيليُّون أحمد بن الأفضل، وحرَّروا الحافظ لـدين الـلـه من سجنه، فعاد لتولّي شؤون الخلافة سنة 526 هـ.

لكنَّ الحافظ ظلَّ بعد ذلك يعاني من نفوذ الوزراء الشديد في دولته، فكان وزراءه هـم الـذين يحكمون الدَّولة طوال عصره.

ففي سنة 529 هـ أراد «بهرام الأرمنيّ» (أحد ولاة الدولة الفاطميَّـة) أن يـصبح وزيـرًا، فـسار بجيشٍ إلى القاهرة وضرب عليها الحصار، حتى اضطرَّ الحافظ للرضوخ وتعيينه وزيرًا، رغم أنَّـه لم يكـن مسلمًا حتى. وقد جاء من بعده «رضوان بن ولخشي»، إذ سار إلى القاهرة سنة 530 هـ فـنجح بإزاحـة بهرام،وأجبر الحافظ على تعيينه وزيرًا جديدًا، لكن نشب فيما بعد خلافٌ بينهما، فزجَّ رضوان بالحـافظ في السِّجن مجدَّدًا وسيطر على الدولة الفاطمية لسبع سـنين،وأخيراً نجـح الحـافظ بطـرده وقتلـه سـنة 542هـ.

ونصَّب الحافظ فيما بعدُ ابنه الحسن وزيرًا، فأفسد في الدولة وقتَّـل العديـد مـن الأمـراء، ثـمَّ تمرَّد على والده وخاض معه حربًا، لكن الحافظ فاز بالنِّهاية، وظـلَّ خليفـةً حتـى وفاتـه سـنة 544 هــ (1149م).

خط سير جيش الشام من دمشق إلى مصر ومعاركه مع الفاطميين والصليبيين.

في سنة 558 هـ - خلال عهد الخليفة الثاني عشر الظافر بدين الـلـه - حدث أن طُرِدَ وزير للدَّولة الفاطميَّة يُـدعَى شـاور بـن مُجـير الـسعدي مـن مـصر، فلجـأ هـذا الـوزير إلى نور الدين محمود الزنكي حاكم دمـشق، وطلـب منـه عونـًا عـسكريًّا يمكِّنـه مـن اسـتعادة

السيطرة على مصر، شريطة أن يعطيه ثلث خراجها. ووافق نور الدين، فأرسل حملةً بقيادة أسد الدين شيركوه تمكَّنت من السيطرة على الدولة الفاطمية سنة 559 هـ. إلا أنَّ شاور نقض اتفاقه مع نور الدين، ولم يدفع له شيئًا من خراج مصر، فأرسلت حملةٌ جديدةٌ بقيادة شيركوه تمكَّنت من استعادة مصر سنة 562 هـ وكان ممَّن شاركوا في هذه الحملة صلاح الدين الأيوبي.

ولأنَّ نجم صلاح الدين برز أثناء هذه الحملات وحروبٍ أخرى في الشام، فقد ضغط الزنكيون لتعيينه وزيرًا بالدولة الفاطميَّة، وكان لهم ما أرادوه، فأصبح صلاح الدين وزيرًا للخليفة الفاطمي الرَّابع عشر والأخير العاضد لدين الله.

خاتمة الدولة

بِتولّي صلاحُ الدين منصب الوِزارة في مصر، كآخر وزيرٍ سُنيٍّ في الدولة الفاطميَّة، وصل المدُّ السُنيّ الذي بدأهُ السلاجقة قبل نحو مائة سنة، وأكمله ورثتهم الزنكيّون، إلى مصر.

وجرى من الأحداث في مصر، بعد تولية صلاحُ الدين منصب الوزارة، أنَّ البلاد كانت تجتاز مرحلةً خطيرةً في تاريخها. فالدولة الفاطميَّة لا زالت موجودة يُساندها الجيش الفاطميّ وكبار رجال الدولة، والخطر الصليبي لا يزالُ جاثمًا على مقربة من أبواب مصر الشرقيَّة، فكان عليه أن يُثبِّت أقدامه في الحُكم، ليتفرَّغ لِمُجابهة ما قد ينشأ من تطوراتٍ سياسيَّةٍ. ولم يلبث أن أظهر مقدرةً كبيرةً في إدارة شؤون الدولة، وهو عازمٌ على الاستئثار بكافَّة الاختصاصات حتّى التي تخصُ منصب الخِلافة، ونفَّذ عدَّة تدابير كفلت له الهيمنة التامَّة، فاستمال قُلوب سُكَّان مصر بما بذل لهم من الأموال والإصلاحات، فأحبوه، وأخضع مماليك عمّه أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكلٍ تامٍّ على الجُند، بعد أن أحسن إليهم، وقوّى مركزه بما كان يمُدُّه به نورُ الدين محمود من المُساعدات العسكريَّة، وقد وصل أخوهُ شمسُ الدين توران شاه بن أيّوب مع إحدى هذه المُساعدات.

وقد أدَّت التدابير التي نفَّذها صلاحُ الدين إلى تقوية قبضته على مُقتدرات الدولة، وزادت من تراجع نُفوذ الخليفة العاضد لدين الـلـه، وبالتالي مركز الإمامة، وأثارت استياء كبـير الطواشـيَّة، مـؤتمن الخِلافة، وهو نوبي، وقائدُ الجُند السودان، وقد أدرك أنَّ نهج صلاح الـدين في الحُكـم سـوف يقـضي، في حال استمراره، على الدولة الفاطميَّـة إن عـاجلًا أو آجـلًا، فحـاول الاتـصال بعمّـوري الأوَّل، ملـك بيـت المقدس، لتحريضه على مُهاجمة مصر، آملًا، في حال الاستجابة، أن يخرج صلاحُ الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة، ويثب على منصب الوِزارة. غير أنَّ صلاح الدين علم بِخيـوط المؤامرة، فقبض على مؤتمن الخِلافة وترقَّب الفُرصة للتخلُّص منه، غـير أنَّ أنبـاء اهتـزاز مركـزه في مـصر شجَّعت الصليبيين على القيام بمُحاولةٍ أُخرى لمُهاجمة البلاد.

حصار دمياط من قبل الأسطول الصليبي والبيزنطي.

رسم «صلاحُ الدين ملك مصر»، من مخطوطة كتابيَّة تعود للقرن الخامس عشر الميلاديّ.

أدرك عمّوري الأوَّل خُطورة الوضع بعد أن تمكَّن نور الـدين الـزنكي مـن توحيـد الـشَّام ومـصر تحت سُلطانه، وشعر الصليبيّون أنَّهم وقعوا فعلًا بين فكيّ الكمَّاشـة، فحـاول الملـك عمّـوري الإسـتعانة بالغرب الأوروبي، فراسل مُلوك وأباطرة أوروبَّا الغربيَّـة يطلـب مـنهم الإسراع بالقيـام بحملـةٍ صـليبيَّةٍ جديدةٍ تُنقذُ الموقف الصليبيّ المُتدهور في المشرق.

على أنَّ الأوضاع السياسيَّة في غـربيّ أوروبَّـا، آنئـذٍ، لا سـيَّما فـيما يتعلَّـق منهـا بالنزاع بين البابويَّة والإمبراطوريَّـة الرومانيَّـة المُقدَّسـة، حالـت دون تحقيـق الـسفارة الصليبيَّة أهدافها، فاضـطرَّ عمّـوري الأوَّل إلى الالتفـات نحـو الإمبراطوريَّـة البيزنطيَّـة طالبًا مُساعدة قيصر الروم الإمبراطـور عمانوئيـل الأوَّل كومنينـوس. وكـان الإمبراطـور سالف الذِكر أشد حماسًا من الصليبيين لغزو مصر، ولم يكن أقل انزعاجًا لاتحاد الشَّام

ومصر تحت راية الزنكيين، ما أدّى إلى انقلابٍ خطيرٍ في توازن القوى بالمشرق، فعرض على عمّوري الأوّل تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية،فوافق الملك على هذا الاقتراح، وتمَّ إعداد أسطولٌ عظيم مُدجج بالرجال والسلاح، وأبحر من القُسطنطينيَّة مُتجهًا إلى دُمياط. كان صلاحُ الدين قد تلقَّى تحذيرًا مُبكرًا بالغ الكفاية عن الحملة، فاستعد لمُواجهتها بأن حصَّن الإسكندريَّة والقاهرة وشحن بلبيس بالعساكر اعتقادًا منه أنَّ هذه الحملة سوف تسيرُ على درب الحملات السَّابقة، وبقي في القاهرة خشية قيام مؤامرةٍ فاطميَّة ضدَّه، وحتَّى يكفل الأمن لنفسه، أمر بإلقاء القبض على مؤتمن الخِلافة وإعدامه، ثُمَّ عزل موظفي القصر من السودان المعروفين بولائهم للخليفة الفاطمي العاضد لدين اللـه، وأحلَّ مكانهم رجالًا من أتباعه. عزَّ على الجُند السودانيين استبعادهم وضياع نُفوذهم، كما غضبوا لمقتل مؤتمن الخِلافة، فثاروا على صلاح الدين، لكنَّه تمكَّن من قمعهم وكسر شوكتهم، فاضطرّوا إلى طلب الأمان منه فأجابهم إلى ذلك.

تراوح موقف العاضد لدين اللـه الذي شهد هذه الأحداث بين الإحجام عن مُساعدة صلاحُ الدين وتأييد خطوته، وفقًا لتطوّر الأحداث. ذلك أنَّهُ ظنَّ في بادئ الأمر أنَّ الجُند السودانيين سوف ينتصرون، ويُنقذونه من قبضة صلاح الدين، فأمر من في القصر أن يقذفوا العساكر الشاميَّة بالنشَّاب والحجارة. ولمَّا هدَّد توران شاه، أخو صلاح الدين بإشعال النار بالقصر، لم يسعه إلَّا أن يُغيِّر موقفه.

مُنمنمة أوروپيَّة للملك عمّوري الأوَّل، ملكُ بيت المقدس وزعيم الحملة الصليبيَّة - البيزنطيَّة على مصر أواخر العهد الفاطميّ.

وفي يوم 1 صفر 565هـ المُوافق فيه 25 تشرين الثاني (نوڤمبر) 1169م، وصل الصليبيّون والبيزنطيّون إلى دُمياط، وما أن علم صلاحُ الدين بوصول القوَّات المُتحالفة إلى المدينة سالِفة الذِكر حتّى أرسل إليها الرجال والسلاح والمؤن، كما أرسل عددًا من السُفن الحربيَّة اتخذت طريقها نحو الشمال في فرع دمياط من نهر النيل،

وبعث في الوقت نفسه رسالة إلى نورُ الدين محمود الزنكي في دمشق يُخبره بما حدث، ويلتمس منه المُساعدة، فسيَّر إليه نورُ الدين العساكر تباعًا، كما قام بالإغارة على مواقع الصليبيين في الشَّام لتخفيف الضغط عن دُمياط. وعلى الرُغم من الاستعدادات الكثيرة والتحضيرات الكثيفة، فشلت الحملة المُشتركة في تحقيق أي هدفٍ من أهدافها لعدَّة عوامل، فقد دافعت حامية دُمياط عن المدينة بشراسة، وتراجع مخزون المؤن البيزنطي بسبب طول الرحلة من القُسطنطينيَّة، وفشل الأُسطول في دخول فرع دُمياط بقدرٍ يسمح له بمُهاجمة المدينة، فعجز عن تقديم المُساعدة العسكريَّة المطلوبة للقوَّات الصليبيَّة البريَّة، وهبَّت عاصفة شديدة مصحوبة بأمطارٍ غزيرة أغرقت المُعسكر الصليبي وحوَّلتهُ إلى مُستنقع، فاستغلَّ المُسلمون هذا وانقضوا على الأُسطول وأنزلوا به خسائر فادحة، فاضطرَّ الملك الصليبي وقيصر الروم أن يطلبا الصُلح، وانسحبا عائدين إلى بلديهما يوم 28 ربيع الأوَّل 565هـ المُوافق فيه 12 كانون الأوَّل (ديسمبر) 1169م، أي بعد أن مكثا بجيوشهما أمام دُمياط أكثر من خمسين يومًا.

بعد هذا النصر، أرسل نورُ الدين الزنكي إلى صلاحُ الدين يطلب منه أن يقطع الخِطبة للفاطميين فورًا ويُرجعها للخليفة العبَّاسي، فاعتذر له بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الاستجابة إلى ذلك لميلهم إلى العَلَويين، إذ أنَّ المؤثرات الشيعيَّة في مصر كانت قويَّةً في ظل الحُكم الفاطميّ الذي استمرَّ قرنين من الزمن.

لكنَّ نورُ الدين أصرَّ على تابعه أن يفعل ذلك في سبيل تحقيق الوحدة الإسلاميَّة والاستفادة من إمكانات مصر الاقتصاديَّة والبشريَّة في الجهاد ضدَّ الصليبيين، وأرسل إليه إنذارًا نهائيًا في شهر ذي الحجَّة سنة 566هـ المُوافق فيه شهر آب (أغسطس) سنة 1171م يأمُرهُ بإسقاط الخِطبة للخليفة الفاطميّ العاضد، وإقامتها للخليفة العبَّاسيّ أبو مُحمَّد الحسن بن يُوسُف المُستضيء بأمر الله، وألزمهُ إلزامًا لا فُسحة له في مُخالفته.

ورأى صلاحُ الدين أن يستجيب لطلب سيِّده في دمشق نظرًا لأنَّ الغالبيَّة العُظمى من سُكَّان مصر لم تتشيَّع، ولأنَّ الدولة الفاطميَّة أصبح من الواضح أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولم يعد لديها القدرة على التحرُّك بعد القضاء على الجُند السودان. وجاءت الخُطوة الحاسمة يوم 7 مُحرَّم سنة 567هـ المُوافق فيه 10 أيلول (سپتمبر) سنة 1171م، عندما قطع صلاحُ الدين الخِطبة بمصر للخليفة الفاطمي وأقامها للخليفة العبَّاسي، وأعاد السَّواد شعارُ العبَّاسيين.

وقد تمَّ هذا التحوّل بهُدوء تام، وبذلك عادت مصر إلى كنف الدولة العبَّاسيَّة، وأُعيدت الوحدة المذهبيَّة في الشرق الأدنى. وكان العاضد لدين الله أثناء ذلك مريضًا يحتضر، فلم يشأ صلاحُ الدين إزعاجه ومُضاعفه همّه، فأمر رجاله بألَّا ينهوا إليه بالأنباء.

ولم تكد تمضي أيَّام على قطع الخِطبة للفاطميين حتّى توفي الخليفة العاضد لدين الله، فكانت تلك نهاية الدولة الفاطميَّة فعليًّا، فزالت من الحياة السياسيَّة بعد أن دامت 262 سنة.

بداية النهاية للخلافة الفاطمية في مصر

كانت هذه الفترة من أسوأ الفترات السياسية في تاريخ مصر الإسلامي، فقد أصبح الخليفة الفاطمي يشارك في مؤامرات و دسائس ضد وزرائه للتخلص منهم و ذلك لضعفه و عدم قدرته علي عزلهم بنفسه، فنجد أن كل الأطراف كانت تتآمر ضد كل الأطراف و لا يخجل أي طرف من أن يتقوي بالصليبيين ضد منافسه ، مما أدي إلي تحريك أطماع الصليبيين في الإستيلاء علي مصر . ولكن لحسن القدر تحركت أيضاً رغبات نور الدين محمود في ضم مصر إلي الشام في جبهة واحدة ضد الصليبيين و كان نور الدين قد نجح في توحيد معظم مدن و إمارات الشام تحت إمرته و أصبح يوجه للصليبيين ضربات موجعة.

ظهر ضرغام أبو الأشبال، أمير فرقة من الجند المغاربة تخدم في مصر ، كمنافس لشاور علي كرسي الوزارة زمن الخليفة العاضد .

و استطاع ضرغام خلع شاور من وزارة مصر بمساعدة الخليفة الفاطمي. فما كان من شاور إلا أن هرب إلي الشام و استنجد بنور الدين محمود زنكي ليعيد إليه الوزارة، و وعده بثلث خراج (إيراد) مصر، و أن يمنح جنده إقطاعات يقيمون فيها في مصر.

بعد فترة من التردد وافق نور الدين محمود زنكي علي مساعدة شاور لاستعادة الوزارة في مصر شريطة أن يعترف شاور بسيادة نور الدين علي مصر. و كان نور الدين يرغب في تحويل مصر إلي المذهب السني و توحيد مصر و الشام ضد الصليبيين.

أرسل نور الدين محمود قائده أسد الدين شيركوه علي رأس جيش إلي مصر. و أصطحب أسد الدين معه ابن اخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كان في الخامسة و العشرين من عمره آنذاك .

تقابل جيش شيركوه و جيش ضرغام عند القاهرة، و استطاع شيركوه أن يهزم قوات ضرغام و يقتله، و يعيد شاور إلي الوزارة ، و لكن شاور نكث بعهده و رفض الاعتراف بولائه لنور الدين محمود، و طلب من شيركوه أن يعود إلي الشام. و لكن شيركوه توجه بجيشه إلي مدينة بلبيس في دلتا مصر و تحصن بها ضد شاور.

فأرسل شاور هذه المرة إلي اموري (Amalricus) ملك بيت المقدس الصليبي ليساعده في التخلص من أسد الدين شيركوه. و كان سقوط عسقلان في غزة، بوابة مصر الشرقية ، في يد الصليبيين قد أغري أموري ملك بيت المقدس بالاستيلاء علي مصر لتصبح أحد الممالك الصليبية، إلي جانب أنه أراد أن يمنع نور الدين من أن يوحد الشام و مصر ضد الصليبيين. و مما يؤكد ذلك قول المؤرخ الصليبي وليم

الصوري " لن تنعم القدس بالأمان إلا إذا استمر العداء بين القاهرة و دمشق". فوافق أموري و سار بجيش إلي مصر و حاصر شيركوه في بلبيس ثلاثة أشهر. و في النهاية قبل شيركوه الخروج كمن مصر مقابل خروج الصليبيين أيضاً.

و الحقيقة أن ما دفع الصليبيين إلي الموافقة علي الخروج من مصر هو أن نور الدين محمود في الشام عمد إلي الإغارة علي قلاع و مدن مملكة بيت المقدس، و سقط العديد منها في قبضته، ثم أرسل أعلام هذه المدن والقلاع التي غنمها لتنشر علي أسوار بلبيس. فلما رأي أموري ذلك انزعج بشدة ، فوافق علي الخروج من مصر ليسرع بالعودة إلي مملكته.

و لكن شيركوه الذي رأي ضعف مصر و هوان الخلافة الفاطمية، عاد يلح علي نور الدين ليرسل حملة أخري إلي مصر. فوافق نور الدين، و بعد سنتين أي عام 1167 م / 562 هج، أرسل جيشاً آخر إلي مصر بقيادة شيركوه و معه صلاح الدين مرة أخري.

ومرة أخري استنجد شاور باموري ملك بيت المقدس الصليبي، و لكن شيركوه كان الأسرع هذه المرة و وصل إلي القاهرة قبل أن يعترضه جيش أموري. و تقابل عند النيل جيش شيركوه علي ضفة و جيش أموري و شاور علي الضفة الأخري وصد شيركوه محاولتهم عبور النيل ، و تظاهر بالانسحاب جنوباً فتبعه أموري فاطبق عليه جيش شيركوه و نجا أموري بحياته بأعجوبة في مكان اسمه البابين جنوب المنيا الحالية. و فرت جيوش شاور و أموري إلي القاهرة.

و بعد هزيمة اموري و شاور لم يتجه شيركوه لدخول القاهرة، و لكنه بدلاً من ذلك اتجه إلي الاسكندرية ليفتحها، و كان أهل الاسكندرية يكرهون شاور لتحالفه مع الصليبيين. و لكن شيركوه وقع في فخ نصبه له أموري الذي حاصره في الاسكندرية بمساعدة أسطول الصليبيين.

استطاع شيركوه أن ينسل بجيشه خارج الأسكندرية و ترك حامية مكونة من ألف رجل يقودها صلاح الدين الأيوبي لتواجه حصار جيش أموري و شاور. حاول شاور أن يفاوض أهل الاسكندرية ليسلموا له صلاح الدين مقابل فك الحصار و لكنهم رفضوا أن يسلموا صلاح الدين للخائن شاور لأن معه الصليبيين.

دام حصار الاسكندرية و الحامية أربعة أشهر و اضطر شيركوه أن يدخل في مفاوضات مع اموري لفك الحصار.

و تم الاتفاق علي أن ينسحب أسد الدين شيركوه بجيشه من مصر و أن تدفع الضرائب من مصر لأموري ملك بيت المقدس في مقابل جلاء القوات الصليبية عن مصر.

و كانت هذه المفاوضات هي أول اتصال مباشر بين صلاح الدين و الصليبيين و يحسب لصلاح الدين أنه أدار المفاوضات بمهارة و حصل علي جلاء الصليبيين عن مصر.

و يقول صلاح الدين عن فترة حصاره في الاسكندرية " و الله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا انساه أبداً. " كان في ذلك الوقت لا يدري أن ملك مصر سيصير إلي بعد سنتين بلا عناء.

أسد الدين شركوه يتولى وزارة مصر و بداية الحكم الأيوبي

لم يتخل أموري ملك بيت المقدس عن حلمه بالاستيلاء علي مصر ، و لكنه أدرك أنه لن يتمكن من مواجهة جيوش نور الدين محمود وحده . لذلك سعي إلي عقد صفقة مع الامبراطور البيزنطي ليتقاسما مصر بينهما علي أن يمده الامبراطور البيزنطي بجيش يسانده.

سار أموري بجيشه إلي مصر عام 1168 م بدعوي أن شاور لم يدفع له الضرائب المتفق عليها ، و هزم الجيش الفاطمي بقيادة شاور في بلبيس و سار إلي القاهرة.

استنجد شاور بنور الدين محمود لينقذه من الصليبيين هذه المرة . قدر نور الدين خطورة سقوط مصر في يد الصليبيين. فقرر إرسال حملة ثالثة بقيادة شيركوه و صلاح الدين هذه المرة ليتخلص نهائياً من شاور والحكم الفاطمي و التهديد الصليبي و يضم مصر إلي الشام تحت امرته.

أصبح شاور يائساً من مواجهة الهزيمة علي يد الصليبيين و جيش شيركوه ، فعمد إلي اللعب علي الطرفين حيث قام بدفع ثلث ربع (أجمالي الناتج المحلي) مصر إلي نور الدين محمود ليحميه من الصليبيين ، و في نفس الوقت قام بتحذير أموري من قدوم جيش نور الدين ليكسبه في صفه.

ثم قرر شاور حرق مصر (الفسطاط) لعرقلة دخول الصليبيين القاهرة ، وأمر أهل الفسطاط بترك بيوتهم و محالهم و الانتقال إلي القاهرة التي بناها المعز، و قام بإحراق الفسطاط عن آخرها، و ظلت النار مشتعلة فيها 54 يوماً، و كان الدخان يري علي مسيرة 3 ايام ، و بذلك ضاع كل أثر للفسطاط التي بناها عمرو بن العاص و لم يبق منها إلا جامع عمرو بن العاص.

عندما سار جيش الصليبيين بقيادة أموري لاعتراض جيش شيركوه ، استطاع شيركوه الماكر بقواته السريعة أن يفلت منهم و أن يدخل القاهرة في 6 من ديسمبر 1168 م بدون أدني مقاومة. و كانت هذه المفاجأة كافية لأموري الذي وجد نفسه أمام جيوش مصر الفاطمية و جنود نور الدين من الشام و قد اتحدت ضده، فقام بسحب جيشه من مصر و عاد إلي بيت المقدس و قد ضاع حلمه بالاستيلاء علي مصر.

أصبح شيركوه الحاكم الحقيقي لمصر و لكنه لم يعزل الخليفة الفاطمي ، فقد كان الخليفة الفاطمي مريضاً مرضاً لا يرجي شفاؤه ، فآثر شيركوه أن يتركه يموت في سلام.

انحني شاور أمام شيركوه ليسترضيه و كان يأتيه بالهدايا كل يوم ، و لكن صلاح الدين أصر علي قطع رأس شاور الخائن المستبد ، و قام بالقبض عليه و قتله بعد موافقة الخليفة العاضد، و فرح المصريون فرحاً عظيما بمقتل شاور الخائن.

صلاح الدين الأيوبي يتولى حكم مصر

بعد تعيينه بشهرين وزيراً علي مصر توفي أسد الدين شيركوه، و خلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي علي وزارة مصر في 26 مارس عام 1169م / 25 جمادي الآخر 564 هج، وكان عمر صلاح الدين وقتها لا يزيد عن اثنين و ثلاثين عاماً.

من الآن فصاعداً انتقل مركز القوي للعالم الاسلامي إلي مصر و استمر فيها إلي أن هزم العثمانيون الأتراك سلاطين المماليك و نقلوا هذا المركز إلي اسطنبول بعد 350 سنة.

أرسل نور الدين محمود إلي صلاح الدين يأمره أن يقوم بتحويل البلاد إلى المذهب السني و الدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة بدلاً من الخليفة الفاطمي، و لكن صلاح الدين استمهله حتي يتوفي الخليفة العاضد المشرف علي الموت.

و لكن نور الدين رفض التأجيل و خشي أن يكون صلاح الدين يماطل فهدده أنه سوف يسير إليه بحملة ، و أرسل إماماً سنياً من الموصل إلي مصر في 10 سبتمبر 1171 م ، فاعتلي المنبر في مسجد القاهرة و دعي إلي الخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي.

بعد ذلك أمر صلاح الدين بالدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة ، و لكنه أخفي ذلك عن الخليفة الفاطمي العاضد و قال " دعوه يموت في سلام "

توفي الخليفة العاضد في 10 محرم عام 567 هج. / 1171 م وهو الخليفة الفاطمي الرابع عشر و آخر الخلفاء الفاطميين و انتهت بموته الخلافة الفاطمية في مصر و التي استمرت حوالي 200 عام .

تولي صلاح الدين حكم مصر منفرداً بعد وفاة الخليفة العاضد و لقب بالسلطان الناصر صلاح الدين و حكم مصر 22 عاماً تقريباً.

بعد تولي صلاح الدين حكم مصر منفرداً، طلب منه نور الدين محمود أن ينضم إليه في هجومه الكبير علي الكرك ، و لكن صلاح الدين لم يكن في عجلة من أمره و أراد أن يرتب أموره الداخلية أولاً، فاعتذر عن المشاركة في الهجوم و تعلل بمرض والده.

كان علي صلاح الدين أن يتصدي أولاً للفتن الداخلية التي كانت تحاك ضد دولته الوليدة ، و منها محاولة بعض الشيعة العلويين إعادة الخلافة الفاطمية الشيعية و منهم عمارة اليمني شاعر الفاطميين ، فتآمروا ضد صلاح الدين و اتصلوا بملك صقلية النورماندي و دفعوا إليه بالأموال ليهاجم الشواطئ المصرية بسفنه ، حتي إذا خرج صلاح الدين من القاهرة ليتصدي لهجومه يقوم المتآمرون بالوثوب علي بقية جنده في القاهرة و يعيدوا الخلافة الفاطمية. و لكن صلاح الدين علم بمؤامرتهم فبعث بمدد للحامية العسكرية في الاسكندرية ليصد الهجوم الصليبي، و قبض علي مدبرى الإنقلاب و أعدمهم و منهم عمارة اليمني.

المصادر والمراجع

المراجع العربية :

1- تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، للدكتور/ عبد الحليم منتصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العاشرة، (2001).

2- فخر العلم الحديث (الإسلام ـ الصين ـ الغرب)، تأليف توبي أ. هاف، ترجمة د. أحمد محمود صبحي، عالم المعرفة 219، الكويت، (1997).

3- شمس الله تشرق على الغرب (فضل العرب على أوروبا) تأليف الدكتورة/ سيجريد هونكه ترجمة الدكتور/ فؤاد حسنين علي، دار العالم العربي، الطبعة الأولى، (2008).

4- 4ـ موسوعة علوم وعلماء العرب والمسلمين، للدكتور/ عبد العزيز يوسف الأحمد، الطبعة الأولى، الكويت، (2006).

5- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، تأليف تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة 845هـ الهيئة العامة لقصور الثقافة (4 أجزاء)، الجزء الأول، القاهرة (1999).

6- العلوم والمعارف الهندسية في الحضارة الإسلامية، للأستاذ الدكتور جلال شوقي، سلسلة التراث العلمي العربي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى (1995).

7- تاريخ العلوم العربية وتحديث تاريخ العلوم، بحث في إسهام رشدي راشد، تأليف الدكتور وائل غالي، سلسلة العلوم والتكنولوجيا، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (2005).

8- الإسلام والعلم ـ الأصولية الدينية ومعركة العقلانية، تأليف برويز أمير علي بهائي بيود، ترجمة محمود خيال، المشروع القومي للترجمة، العدد 898، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (2005).

9- ابن رشد ـ فيلسوف عربياً بروح غربية، للدكتور عاطف العراقي، دار مصر المحروسة، القاهرة (2008).

10- ابن رشد ـ فيلسوفاً معاصراً، للدكتور بركات محمد مراد، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة (2002).

11- ابن رشد في مصر، للدكتور وائل غالي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (1999).

12- المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية ـ من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي، للدكتور أحمد عبد اللطيف حنفي ، تاريخ المصريين، العدد 244، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (2005).

13- الدولة الفاطمية، للدكتور علي محمد الصلابي، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى (2005).

المراجع الأجنبية :

1- Historical Supernovae and Their Remanents, by F. Richard Stephenson and David A. Green, Oxford, (2002).

2- The Exploding Suns, The Secret of the Supernovas, by Isaac Asimov, (1994).

3- The historical supernovae, by Clark, D.H., and F.R. Stephenson Oxford, Pergamon Press, (1977).

4- Supernovae and their Remanents, by Richard McCray, JILA, University of Colorado, USA. Frontiers of Astronomy School/Workshop 22 March - 6 April 2006 (Total Solar Eclipse 29 March 2006). Bibliotheca Alexandria, Alexandria, Egypt. Invited Lecture.

المحتويات

المقدمة 7

الباب الأول:أصول الدولة الفاطمية 9

الباب الثاني:البدايات وقيام الدولة.. 21

الفكر والدعوة.. 21

داعية الباطنية في الشمال الإفريقي.. 23

أبو عبد اللـه الشيعي.. 23

عبيد اللـه المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول.. 29

ثورة قبيلة هوارة في طرابلس.. 32

زحف العبيديين على برقة 33

عبيد اللـه المهدي والنشأة.. 43

مقتل أبي عبد اللـه الشيعي.. 44

القضاء على الأدارسة 44

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد.. 44

إخضاع المغرب للسيطرة العبيدية (الفاطمية).. 45

صعود الفاطميين 46

الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها.. 46

الفاطميون في أفريقيا.. 46

قيام الدولة مرة اخرى.. 52

المستنصر يحكم لمدة ستين عاماً.. 52

انكماش سلطان الفاطميين و الشدة المستنصرية.......... 53
الوزير بدر الجمالي.......... 54
أعمال بدر الجمالي في مصر.......... 55
ملامح الدولة الفاطمية.......... 59
الأدب والعلوم في العصر الفاطمي.......... 60
العلماء والأدباء.......... 60
الشعر.......... 61
الفقهاء.......... 63
المكتبات في عصر الدولة الفاطمية.......... 64
العمارة.......... 64
الجامع الأزهر، من أشهر معالم القاهرة الإسلامية.......... 64
آثار الدولة الفاطمية.......... 65
الفلك والمراصد الفلكية في مصر الفاطمية الإسلامية.......... 66
الوزارة.......... 70
القضاء في الحكم الفاطمي.......... 71
النظام العسكري.......... 71
العلاقات مع دُول الجوار.......... 73
مع الدولة الحمدانيَّة.......... 73
مع الدولة الأُمويَّة الأندلسيَّة.......... 74
مع الدولة العبَّاسيَّة.......... 76

مع الدولة القُرمطيَّة:..77
مع الدولة السُلجوقيَّة:..79
مع الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة:..80
مع مملكة بيت المقدس:..82
مصر الفاطمية الإسلامية : 83
أحوال مصر عند الفتح الفاطمي..83
الفتح الفاطمي لمصر..84
أعمال جوهرالصقلي في مصر..85
نشر المذهب الشيعي..86
الجامع الأزهر بالقاهرة 86
ضم الشام و فلسطين لسلطان الفاطميين 87
ابن يونس المصري :..89
حسن بن الهيثم في مصر الفاطمية : 90
قدسية ثبات الكون في فكر العصور الوسطى :..93
سوبر نوفا علي بن رضوان :..95
الظاهرة في ضوء علم الفلك الحديث : 99
المراصد الفلكية في مصر الفاطمية الإسلامية : 100
المُجتمع والثقافة..104
الحياة الاجتماعيَّة 104
الحياة الفكريَّة والعلميَّة: 105

الحياة الاقتصاديَّة..111

الحياة الدينيَّة:...113

خلفاء الفاطميين..115

الخليفة الثاني :القائم بأمر الـلـه 118

الخليفة الثالث:المنصور بالـلـه الفاطمي..119

الخليفة الرابع:المعز لدين الـلـه 119

الخليفة الخامس :العزيز بالـلـه الفاطمي...119

الخليفة السادس:الحاكم بأمر الـلـه المنصور 123

الخليفة السابع:الظاهر لإعزاز دين الـلـه..130

الخليفة الثامن:المستنصر بالـلـه الفاطمي...133

الخليفة التاسع:المستعلي بالـلـه 137

الخليفة العاشر: الامر بأحكام الـلـه.. 138

الخليفة الحادي عشر:الحافظ لدين الـلـه..139

الخليفة الثاني عشر:الظافر بدين الـلـه 140

الخليفة الثالث عشر:الفائز بدين الـلـه 141

الخليفة الرابع عشر:العاضد لدين الـلـه 141

الباب الثالث 145

الفاطميون في مصر 145

محاولات العبيديين الفاطميين لفتح مصر...147

قيام الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر 149

الفاطميون ومصر......149
حالة مصر الداخلية قبل الفاطميين......149
مقدمات دخول الفاطميين مصر......150
استيلاء الفاطميين على مصر......150
الفاطميون و القاهرة......150
الأزهر بالقاهرة......150
دور المعز لدين اللـه......152
ولاية الامام المعز لدين اللـه......153
قصة نقل المقطم......153
بناء القاهرة والجامع الأزهر......156
محاولة نشر المذهب الشيعي......156
ظهور فرقة الدرزية......159
عهد المستنصر العبيدي (الفاطمي)......159
المستنصر باللـه والشدة المستنصرية......161
الخليفة المستنصر باللـه العبيدي......161
أحداث خلافة المستنصر......162
الشدة المستنصرية......163
بدر الدين الجمالي والخروج من الأزمة......166
وفاة المستنصر باللـه......168
الدولة الفاطمية و الحرب مع الروم البيزنطيين......168

الباب الرابع:التوسع و عصرها الذهبي 173

التوسّع والفُتوحات 175

المزايا السياسية و الفكرية لنظام الدولة الفاطمية.. 178

الحركة الفكرية و العلمية في ظل الفاطميين.. 181

أحوال مصر عند الفتح الفاطمي.. 185

تفاصيل الفتح الفاطمي لمصر 186

أعمال جوهر الصقلي في مصر 187

ضم الشام و فلسطين لسلطان الفاطميين 189

قدوم المعز إلى مصر و تحولها إلى مركز الخلافة.. 189

قاهرة المعز 191

الازدهار في مصر.. 192

تاريخ بناء الأزهر 192

مسجد الحاكم بأمر الـلـه أحد معالم العصر الذهبي للدولة الفاطميَّة بالقاهرة. 198

عصر نفوذ الوزراء وإلغاء الخلافة العبيدية.. 200

العصر العبيدي (الفاطمي) الثاني.. 200

الخليفة المستعلي الفاطمي و بداية العصر الفاطمي الثاني 200

الخليفة الآمر بأحكام الـلـه الفاطمي 201

الخليفة الحافظ لدين الـلـه الفاطمي 202

الخليفة الظافر الفاطمي.. 202

الخليفة الفائز بنصر الـلـه الفاطمي.. 203

الخليفة العاضد بالـله الفاطمي و نهاية الخلافة الفاطمية... 204
ظهور طائفة الإسماعيلية النزارية.. 205
عصر نفوذ الوزراء... 206
حملات نور الدين محمود إلى مصر 207
اختيار صلاح الدين وإلغاء الخلافة العبيدية الفاطمية... 209

الباب الخامس:الأفول والإرث.. 211
الانحسار 213
خاتمة الدولة... 216
حصار دمياط من قبل الأسطول الصليبي والبيزنطي.. 217
بداية النهاية للخلافة الفاطمية في مصر 220
أسد الدين شركوه يتولى وزارة مصر و بداية الحكم الأيوبي.. 223
صلاح الدين الأيوبي يتولى حكم مصر 225
المصادر والمراجع... 227

يبحث هذا الكتاب في موضوع الدولة الفاطمية، فيبدا بجذور النسب الفاطمي، ثم فكرهم ودعوتهم وقيام دولتهم. يبحث تتابع خلفائها وعلاقاتها مع دول الجوار، وحضارتها، إلى مجيء صلاح الدين وتوليه حكم مصر.

مركز الكتاب الأكاديمي
عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري
ص . ب : 11732 عمّــان (1061) الأردن
تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+
الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net
A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net



